يوسف السّودا

تاريخ لبنان الحضاري



دار النهار للنشر

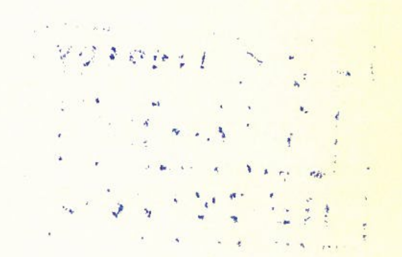
يوسف السودا

تاريخ لبنان الحضاري

الطبعة الثانية



دار النهار للنشر





الطبعة الاولى ١٩٧٢

دار النهار للنشر

بيروت ١٩٧٩

المحتويات

توطئة

لا ينشأ وطن يعجزه الرجوع الى تراث .

على التراث بنى اغريق الهلادة وورّاث روما الوطن والدولة .

استلهموا احداث التاريخ فصاغوها اساطير وانشدوها ملاحم .

ايبسيلنتي وكاناريس وفنزيلوس الى باباندريو صعدوا بانسابهم الى هوميروس وبريكاريس وسقراط وافلاطون وليونيداس .

وارجع دانته وغاريبالدي وموسوليني وساراغات احسابهم الى رومولوس وذئبته والى شيشرون وفرجيل .

تاريخ البقعتين كتبه الاغريق والرومان كما زين لهم الخيال ، فما كان من الاحفاد الا ان عملوا على تجديد مآثر اثينا وروما .

للبقعة المنبسطة من الناقورة الى النهر الكبير تاريخ عميق الجذور ، مشرق المعالم .

بلد يتعرفه ابناؤه فيعزّهم انهم لبنانيون .

وطن يوحي تراثه بحبّه وتوطيد اركانه .

منارة عرفان

حصن حرّية

واحة امان واطمئنان في المشرق .

يوسف السودا

تمهيد

يقسم التاريخ عهوداً اربعة :

الاول – التاريخ القديم وهو يمتد من ٤٠٠٠ سنة ق.م. الى ٣٩٥ ب.م.

الثاني – الاعصر الوسطى – من ٣٩٥ الى فتح القسطنطينية ١٤٥٣.

الثالث – التاريخ الحديث – من فتح القسطنطينية الى الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

الرابع – التاريخ المعاصر – من الثورة الفرنسية الى ايامنا .

على العهود الاولى للتاريخ القديم سجوف متلبدة تضلّ فيها المسالك.

ويسمى هيرودوتس الاغريقي ابا التاريخ وهو ما عاش الا في الجيل الخامس قبل الميلاد .

ومعظم ما يرويه في مؤلفه الضخم عن القرون السابقة له يرجع فيه الى ما كان يتداوله الناس من حكايات ويتناقلون من اساطير .

وتقفّى آثاره من جاء بعده من مؤرخي الاغريق والرومان وغيرهم.

على ان الحفريات التي جرت في المشرق في الازمنة المعاصرة كشفت عن آثار القت الاضواء فيه على دياجير تلك العهود .

ويستوقف المطّلعين ان في ما دوّن عن تاريخ لبنان القديم التباساً ونواقص وغوامض تسيء الى حقيقته ، منها :

١ – عن كلمة فينيقي فينيقيا .

٢ – عن الجالية اللبنانية بقيادة قدموس الى جزر الاغريق وبلادهم .

٣ – عن الجالية اللبنانية الى اترووريا في توسكانا ايطاليا .

٤ – عن الجالية اللبنانية الى قرطاجه .

في الصفحات التالية محاولة لجلاء ما غمض على اعتقاد ان في جلائه خدمة للبنان .

ويساعد على بلوغ الغاية القاء نظرة على الوضع في المشرق ، وفي جزر البحر المتوسط ، وفي اوروبـــا ، وفي افريقيا ، في التاريـــخ القديم .

لبنان وفينيقيا

كلمة « فينيقيا » ومنها « فينيقي » اقحمت في تاريخ لبنان القديم فاحدثت التباساً ادّى الى الاعتقاد ان فينيقيا وفينيقي شيء ولبنان او لبناني شيء آخر . والواقع ان هذه الكلمة ليست اسم مدينة او بلاد ولا هي اسم قبيلة او شعب لكي تصلح اساساً للانتساب ، انما هي صفة في اللغة الأغريقية تعني « احمر » وقد اطلق قدامى الاغريق (في الغرب) هذه الصفة على السفن والملاحين والتجار القادمين اليهم من لبنان .

لبضعة آلاف من السنين قبل الميلاد ، كان سكان الجزر والبلاد المعروفة اليوم باليونان جماعات بدائية تسيطر على عقولها الاساطير ومنها اسطورة الاله « فينيق » ، المتجسد في قالب طائر يشبه النسر شكلاً وحجماً، يكسو عنقه وصدره ورأسه ريش احمر . وكان هذا الطائر الاله يحرق نفسه ثم يبعث حيّاً من رماده . وكانت له عبادة خاصة عند الاغريق يمارسونها باحتفال سنوي عند موته وعند قيامته .

في ذلك العهد اينعت الحضارة في المدن اللبنانية ، لا سيما في جبيل وصيدا وصور وبسطت ظلها على الجوار .

وكان اللبنانيون اسياد البحر المتوسط تطوّف سفنهم فيه وتخفق على صواريها اشرعة صبغ قماشها باللون الارجواني . وكانوا اذا اطلـــوا باحدى سفنهم على الشواطىء الاغريقية وشراعها، من اللون الذي اضفته الاسطورة على الطائر الالـــه ، تراكض الناس هاتفين « فينيكس » « فينيكس » . اي احمر ! احمر !

وشاعت الكلمة في تلك المنطقة حتّى عادت لا تعرف السفن اللبنانية ومن فيها الا بكلمة « فينيقيا » .

وجاء هوميروس في القرن التاسع فكرس الكلمة في ملحمتيـــه

الشهيرتين الالياذة والاوديسية حول حرب طروادة .

لم يكن هوميروس ليجهل ان كلمة « فينيقي» لقب اطلق على اهل المدن اللبنانية ، فكان يستعمل على حدّ سواء الاسم او اللقب ، فيقول : « فينيقيون او صيدونيون ، وفينيقيا او صيدا » .

هكذا وردت في الملحمتين كلمة (فينيقيين) ٧ مرات وكلمة (صيدونيين) ٥ مرات وكلمة (صيدون) ٣ مرات وكلمة (فينيقيا) مرتين ، كقوله في الاوديسية في النشيد الرابع : « ان منيلاس يتحدث عن سفره الى فينيقيا ومصر ويقول لتليماك انه يهدي اليه اجمل ما عنده من تحف واعزها ، وذلك حقّ من فضة ذو شفاه حمراء ، قدمه الي ملك صيدا عندما ازمعت الرجوع » . (شعر ٨٣ و٨٤) .

وفي النشيد الثالث عشر يقول عوليس : « انه التجأ الى (فينيقيين) نبلاء راجياً منهم تغيير طريقهم ... ورغم الجهود التي بذلوها ابتعدوا عن بيلوس — ولم يخدعوني — وانزلوني على شاطىء ايتاك (في الجزر الاغريقية) فارتميت على الرمل ونمت نوماً عميقاً .

ثم اهتموا بنقل حوائجي من سفينتهم ووضعوها الى جانبي على الرمل ورجعوا الى مركبهم وواصلوا السفر الى مدينتهم صيدا ذات البيوت الجميلة» . (من شعر ٢٧٢ الى ٢٨٦) .

وفي الالياذة — في النشيد السادس : « نزلت (هوكوب) الى الغرفة حيث تحفظ البراقع الموشاة بايدي الصيدونيات ، وهي البراقع التي جلبها معه من صيدا في البحر ، الكسندروس البطل » (٢٨٩—٢٩١) .

وفي النشيد الثالث والعشرين : « قدّم اخيل جائزة السبق حقّاً جميلا من الفضة المشغولة لا يضاهيه جمال لان صيدونيين ماهرين كانوا قد اتقنوا صنعه . وقد نقله في البحر رجال فينيقيون . وبعد ان عرضوه في الموانىء قدموه هدية الى الملك تواس» (شعر ٧٤٠—٧٤٥).

وتناقل الناطقون باللغة الاغريقية في الجزر والمدن ملحمتيّ هوميروس ينشد ابياتها المنشدون ويتغنى بروائعها المغنون ويحفظها ويرددها المثقفون .

واصبح كل من جاء بعد الاوديسية والالياذة من كتّاب وشعراء

في الغرب لا يستعملون الا كلمة «فينيقي وفينيقيا» في تعريف لبنان وبنيه امثال صوفوكل في مسرحية «اوديب الملك» وأوريبيد في مسرحية «الفينيقيات».

وحذا حذوهم الشعراء الرومان كهوراس في قصائده وفرجيل في الالياذة . واطلقت الكلمة من ثم في الغرب على كل ما له علاقة بلبنان ومدنه ومهجره فقيل : « الحروف الفينيقية » اي احرف الهجاء التي وضعتها جبيل . وقيل « النجمة الفينيقية » وهم يقصدون نجمة القطب التي اكتشفها الملاّح اللبناني .

وقيل (الحرب البونية) اي (الفينيقية) اشارة الى الحروب التي وقعت بين روما وبين مهاجري لبنان القرطاجيين (١) .

وفي تلك الازمنة لم يكن للقومية او للعنصرية او للطائفية اي ذكر. كان ينسب السكان الى مدينة ، بل كانت البلاد كلها تنسب الى مدينة . فقيل البابليون والامبراطورية البابلية نسبة الى مدينة بابل . وقيل الاشوريون والامبراطورية الاشورية نسبة الى مدينة اشور .

هكذا كان استعمال هوميروس ومن جاء بعده كلمة صيدونيين يشمل في عرفهم ولغتهم الفينيقيين جميعاً او فينيقيا (٢) .

حصر الكلمة في الغرب دون الشرق

حين كان شعراء « فينيقيين وفينيقيا » وهم يقصدون « لبنانيين ولبنان » لم يكن احد في المشرق يستعمل هذه الكلمة ، بل كان الجميع في مصر وسوريا وما بين النهرين يقولون — على ما تثبته الحفريات — « لبنان » اذا كانوا يعنون البلاد ، ويقولون جبيل ، صيدا ، صور او « جبيليون » و « صيدونيون » و « صوريون » اذا قصدوا الاشارة بالتخصيص الى مدن جبيل وصيدا وصور او الى سكانها .

والمصريون كانوا يسمون السفن « مراكب جبلة » اي جبيل . ولم

(١) فيكتور بيرار ، « الفينيقيون والاوديسيه جزء ٢ .

(٢) كونتنو ، الحضارة الفينيقية ص ٦٥ .

ترد عندهم يوماً كلمة فينيقيا وفينيقيين .

والتوراة التي ترجع مع موسى الى ١٢٠٠ ق.م. وتصل مع النبي حزقيال الى القرن السادس ق.م. ورد فيها عشرات المرات ذكر لبنان وجبيل وصيدا وصور والارز . ولم تعرف طوال تلك المدة في اسفارها كلمة « فينيقيا وفينيقيين » .

جاء في اشعيا قوله : « قد أوتيت مجد لبنان» (ف٣٥ — عد٢) .

وجاء فيه : « قد قرّعت الرب على لسان عبيدك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال واواخر لبنان » (ف٣٧ — عد٢٤) .

وفي حزقيال « شيوخ جبلة » (جبيل) وحكامها كانوا فيك جلافطة لحصامك (ف٢٧ عد ٩) .

وجاء في سفر يشوع : « فلما سمع جميع الملوك الذين في عبر الاردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير الى مقابل لبنان ... اعتصبوا معاً لقتال يشوع واسرائيل » (ف ٩ عد ١) . وفيه « ارض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس » (ف ١٣ عد ٥) .

وفي سفر القضاة : « ... جميع الكنعانيين والصيدونيين المقيمين بجبل لبنان » (ف ٣ عد ٣) .

وفي نشيد الاناشيد : « شفتاك تقطران شهداً ايتها العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف ثيابك كعرف لبنان » (ف ٤ عد ١١) .

الى آخر ما ورد في كتاب التوراة وانبيائها مما يثبت ان كلمة « فينيقيين فينيقيا » لقب ردده الغرب بعد هوميروس عن لبنان واللبنانيين والمدن اللبنانية .

واقتصر استعمال اللقب على الغرب والغربيين .

وفي بيروت اليوم حي جديد اطلق عليه كلمة الحمرا . فيقال اليوم « سكان الحمرا » ومن هم الا سكان حي من احياء بيروت وما بيروت الا مدينة من لبنان . فسكان الحمرا لبنانيون مقيمون في لبنان .

هكذا قال الاغريق : فينيقيون فينيقيا (حمر حمراء) وما فينيقيا الحمراء الا لبنان وما الفينيقيون الحمر الا اللبنانيون سكان المدن اللبنانية .

من اين جاء الفينيقيون

سؤال استوقف المؤرخين القدامى ولا يزال يطرحه المؤرخون وقد اختلفوا في تحديد منشأ الفينيقيين ولا يزالون مختلفين .

ولكن بعد ان تبين ان كلمة « فينيقي » ليست اسماً بل صفة تعني « احمر » وان هوميروس استعملها بعد شيوعها لقباً يقصد فيه بالتخصيص ابناء المدن اللبنانية دون سواهم .

لكن بعد هذه الايضاحات لم يبق معنى للتساؤل « من اين جاء الفينيفيون ». فهم جاؤوا من لبنان، من صيدا ، من صور ، من جبيل .

ولم يرد في اية بقعة من بقاع الارض ولا في اي تاريخ ذكر لبلاد اسمها فينيقيا او لقوم اسمهم فينيقيون قبل ان يطلق الاغريق الكلمة ويكرسها هوميروس .

وفي الاساطير التي تداولها الاغريق من قديم الزمان وجعلها شعراؤهم فيما بعد مواضيع لمسرحياتهم ايضاح لما كان يفهمه الاغريق بكلمة (فينيقيا فينيقيين) وهم اولى من غيرهم باعطاء الجواب عما كانوا يعتقدون هم انفسهم بشأن البلاد التي منها جاء الفينيقيون .

فقد وضع شاعرهم اوريبيد مسرحية بعنوان « الفينيقيات » ورد فيها ما كان متعارفاً عندهم على كر العصور ان من يسميهم الاغريق فينيقيين قد جاؤوا من صور او صيدا من لبنان .

فقد وجّه احد ابطال المسرحية الى الجوقة القادمة الى بلاده من صور هذا السؤال : ايتها الغريبات من انتن ؟ ومن اي وطن جئتن الى منزل اغريقي ؟

فأجابت رئيسة الجوقة قائلة : ان فينيقيا هي الوطن الذي غذاني... تركت مياه (صور) وغادرت الجزيرة الفينيقية في تقدمة الى الاله فوابوس .

اما اذا كان السؤال يعني : من اين جاء اهل لبنان الذين الصقت بهم صفة « الحمر او الحمراء » ، فالجواب ان لبنان كان آهلاً بالسكان منذ عشرات الالوف من السنين كما اثبتت الحفريات اخصها حفريات جبيل القائمة على اثنتي عشرة طبقة متراكمة وحفريات انطلياس التي كشفت عن هيكل الصبي الذي يرجع تاريخه الى خمسة وثلاثين الف سنة ق.م.

اما قضية العنصر فليس في العالم بلد واحد صفا عنصره من اي مزيج او اختلاط . والوطن يشمل مع التاريخ والتقاليد العنصر واللغة ، التربة والسماء والماء والهواء، اي العوامل الطبيعية التي تؤثر على تطور الشعوب .

هذه البقعة ، التي اسمها لبنان ومعناه البياض المستوحى من الثلج المكلل هامته ، قامت قبل التاريخ المدون ولا تزال . ولها تراث مستمر لم تستطع طمسه عاديات الزمن .

لبنان والتسمية في التوراة

في الوقت الذي طغا في الغرب اللقب « احمر » على الاسم « لبنان » ظل الشرق يستعمل الاسم الاصلي ، على ما نرى في التوراة ، وهي اقدم تاريخ مكتوب يرقى مع موسى الى سنة ١٢٠٠ ق.م. ويستمر مع الانبياء الى القرن الخامس .

فقد ورد في سفر الملوك الثالث ذكر غابة لبنان بقوله : « ويحمل الملك سليمان ايضاً ثلاث مئة مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ثلاث مئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان » (ف ١٠ عد ١٧) .

وجاء في حزقيال : « هوذا اشور ارزة بلبنان ، بهيجة الافنان » (ف ٣١ عد ٣) .

وجاء في نشيد الاناشيد : « شفتاك تقطران شهداً ايتها العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف ثيابك كعرف لبنان » (ف٤ عد١١) .

وجاء في هوشع : « وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان » (ف ١٤ عد ٧) .

سفر تثنية الاشتراع : « فتحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الاموريين وكل ما يليه من القفر والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر ارض الكنعانيين ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات » (ف ١ عد ٧) .

« كل موضع تطأه اخامص اقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الاقصى يكون تخمكم » (ف ١١ عد ٢٤) .

يشوع : « من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين والى البحر الكبير الذي في وجهة مغارب الشمس تكون تخومكم » (ف ١ عد ٤) .

« وارض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعد جاء تحت جبل حرمون الى مدخل حماة » (ف ١٣ عد ٥–٦) .

« من الجبل الاملس الممتد جهة سعير الى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون واخذ جميع ملوكها وضربهم وقتلهم » (ف١١ عد ١٧) .

سفر الملوك الثالث : « وجميع مدن الخزن التي كانت لسليمان ومدن المركبات ومدن الفرسان وكل ما احب سليمان ان يبني في اورشليم ولبنان وكل ارض سلطانه » (ف ٩ عد ١٩) .

« وكانت جميع آنية شرب الملك سليمان ذهباً وجميع آنية بيت غابة لبنان كانت من ذهب خالص لم يكن فيها فضة اذ لم تكن تحسب شيئاً في ايام سليمان » (ف ١٠ عد ٢١) .

سفر الملوك الرابع : « قد قرعت الرب على لبنان رسلك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال واواخر لبنان قاطعاً ارفع ارزة وخيار سروه وداخلاً المنزل الذي في اقصاه وغابة كرمله » .

سفر اخبار الايام الثاني : « فبعث يوآش ملك اسرائيل الى امضيا ملك يهوذا قائلاً ان العوسج الذي بلبنان ارسل الى الارز الذي بلبنان وقال زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء التي بلبنان ووطئت العوسج » (ف ٢٥ عد ١٨) .

حزقيال : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غبياء الظل شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة » (ف ٣١ عد ٣) .

زكريا : « افتح يا لبنان ابوابك ولتأكل النار ارزك» (ف١١ عد١).

نجوم : « يزجر البحر فيجففه وينضب جميع الانهار. قد ذوى باشان والكرمل وذبل زهر لبنان » (ف ١ عد ٤) .

هوشع : « وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان. فيرجع الساكنون في ظله ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم فيكون ذكره المخمر لبنان » (ف ١٤ عد ٧–٨) .

ارميا : « هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان ام تنضب المياه

المتفجرة الباردة الجارية » (ف ١٨ عد ١٤) .

سفر الملوك الثالث : «فنحتها بنّاؤو سليمان وبنّاؤو حيرام والجبليون وهيأوا الاخشاب والحجارة لبنان البيت » (ف ٥ عد ١٨) .

حزقيال : « شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك جلافطة لحصاصك وجميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك لترويج موسمك » (ف ٢٧ عد ٩) .

يشوع : « فاسلمهم الرب الى ايدي اسرائيل فضربوهم وتعقبوهم الى صيدون الكبيرة ومياه مرفوت وبقعة المصفاة شرقاً وضربوهم حتى لم يبق منهم باق » (ف ١١ عد ٨) .

ارميا : « وكل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي في عبر البحر » (ف ٢٥ عد ٢٢) .

« وارسل بها الى ملك آدوم وملك موآب وملك بني عمّون وملك صور وملك صيدون بأيدي الرسل القادمين الى اورشليم الى صدقيا ملك يهوذا » (ف ٢٧ عد ٣) .

حزقيال : « سكان صيدون وارواد كانوا قذافين لك وحكماؤك يا صور الذين فيك هم مدبروك » (ف ٢٧ عد ٨) .

« يا ابن البشر اجعل وجهك نحو صيدون وتنبأ عليها » (ف ٢٨ عد ٢١) .

« وقل هكذا قال السيد الرب هاءنذا عليك يا صيدون فسأتمجد في وسطك فيعلمون اني انا الرب حين اجري فيها احكاماً واتقدس فيها » (عد ٢٢) .

اعمال الرسل: « وفي اليوم الآخر وصلنا الى صيدا فعامل يوليوس بولس برفق وأذن له ان يذهب الى اصدقائه ليحصل على عناية منهم » (ف ٢٧ عد ٣) .

سفر الملوك الثالث : « ولم يكفه ان يسير في خطايا ياربعام بن نباط فتزوج ايزابل بنت اتبعل ملك الصيدونيين ومضى وعبد البعل وسجد له » (ف ١٦ عد ٣١) .

في القرن الثالث عشر الى زكريا في القرن السادس ق.م.

فقد ورد في سفر يشوع قوله : فلما سمع جميع الملوك الذين في عبر الاردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير الى مقابل لبنان .... اعتصموا معاً لقتال يشوع واسرائيل (ف ٩ عد ١) .

خمسة اقطاب الفلسطينيين وجميع الكنعانيين والصيدونيين المقيمين بجبل لبنان من جبل بعل حرمون الى مدخل حماة (سفر القضاة ف ٣ عد ٣) .

لبنان والارز

كانت غابات الارز تغطي قمم لبنان وتمتد على مساحات شاسعة فلا تكاد تقطع اشجار في منطقة ما حتى ينبت جديد في منطقة اخرى .

وادرك الاقدمون ان لخشب الارز ميزات خاصة لا يضاهيه فيها اي خشب آخر من متانة وليونة ولون ورائحة الى صلابة لا تؤثر فيها عوامل الطبيعة ، الى حيوية لا تجف .

وقد مكن خشب الارز اللبنانيين من بناء السفن فكانت لهم الاساطيل التي اثارت اعجاب الامم حتى طلب المصريون والاشوريون والفرس اليهم ان يبنوا لهم امثالها ويعلموهم قيادتها .

وتغنت التوراة مرات بارز لبنان :

على قيثارة داود ، في اناشيد سليمان ، على اوتار ارميـــا واشعيا وحزقيال ، كانت عروس الشعر لبنان وارز لبنان .

بلغ لبنان في عهده القديم من المجد ما انطق اشعيا في نبوءته بالآية القائلة : « قد أوتيت مجد لبنان » (اشعيا ف ٣٥ عد ٢) .

وتغنى الانبياء بجمال لبنان ، فقال سليمان في « نشيد الاناشيد » :

« هلمّي معي من لبنان ايتها العروس ، معي من لبنان انظري من رأس أمانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور » (ف ٤ عد ٨) .

« ساقاه عمودا رخام موضوعان على قاعدتين من ابريز وطلعتـــه كلبنان هو مختار كالأرز » (ف ٥ عد ١٥) .

« عنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند باب بنت الجماعة وانفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق » (ف ٧ عدد ٤) .

« عين جنّات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان » (ف ٤ عد ١٥) .

وقال داود في مزاميره : « الصديق كالنخل يزهر ومثل ارز لبنان ينمو » (ف ٩١ عد ١٣) .

وقيل عن عظمة لبنان والارز :

« هكذا قال السيد الرب ان النسر العظيم ذا الجناحين العظيمين الطويل القوادم الممتلىء ريشاً الكثير الالوان قد اتى لبنان وأخذ ناصية الارز » . (حزقيال ف ١٧ عد ٣) .

« في الجبل العالي اغرسه فينشىء افناناً ويثمر ثمراً ويصير ارزاً جليلا فيأوي تحته كل طائر . كل ذي جناح يأوي في ظل اغصانه» (حزقيال ف ١٧ عد ٢٢) .

« صوت الرب يحطم الأرز يحطم الرب أرز لبنان » (المزامير ف ٢٨ عد ٥) .

« تروي اشجار الرب أرز لبنان التي غرسها » (المزامير ف ١٠٣ عد ١٦) .

« وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع » (اشعيا ف ٢ عد ١٣) .

« واني دمّرت من وجوههم الاموريّين الذين مثل قامات الأرز قاماتهم وصلابتهم كالبلوط ودمّرت ثمارهم من فوق عروقهم من تحت » (عاموص ف ٢ عد ٩) .

« بسرو من سنير بنوا لك كل طباقك وأخذوا أرز لبنان ليصنعوا سواري عليك » (حزقيال ف ٢٧ عد ٥) .

« قد قرّعت الرب على لسان عبيدك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال وأواخر لبنان قاطعاً أرزه وخيار سروه وبالغاً الى الاقصى والى غابة كرمله » . (اشعيا ف ٣٧ عد ٢٤)

وكانت مفخرة الملوك في بناء القصور والهياكل ان يكون البنـــاء والزينة والزخارف من خشب الأرز ذي الصلابة المتينة والرائحة الزكية .

واشتهر بصناعة الارز الفنانون من لبنان ، فطلب داود من ملك صور ان يرسل له الارز والصناع ليبنوا له بيتاً :

« ووجّه حيرام ملك صور رسلاً الى داود واخشاب أرز وبنّائين

ونجارين ليبنوا له بيتاً » . (اخبار الايام الاول ف ١٤ عد ١)

وخشي داود ان يكون اخطأ امام الله في ابتنائه بيتاً من أرز قبل ان يبني مثله لتابوت العهد فقال :

« ولمّا سكن داود في بيته قال داود لناتان النبي ها أنا مقيم في بيت من أرز وتابوت عهد الرب تحت الشقق » (ف ١٧ عد ١)

ولم يتسنّ لداود ان يبني بيت الرب فقام ابنه سليمان ببنائه هيكلاً عظيماً فروى سفر الملوك الثالث بناء ذلك البيت ، قال :

« أرسل سليمان الى حيرام يقول : قد علمت ان داود أبي لم يقدر ان يبني بيتاً لاسم الرب الهه بسبب الحروب التي احاطت به . والآن فقد اراحني الرب الهي من كل الجهات . وها أنذا قد نويت ان ابني بيتاً لاسم الرب الهي كما كلم الرب داود ابي : ان ابنك الذي اقيمه مكانك على عرشك هو يبني بيتاً لاسمي .

والآن فمر بان يقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أؤديها اليك بحسب جميع ما ترسم لأنك تعلم أن ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين .

وأرسل حيرام الى سليمان وقال قد فهمت ما أرسلت به اليّ وأنا أتم مرضاتك في خشب الأرز وخشب السرو .

فكان حيرام يبعث الى سليمان بخشب الأرز وخشب السرو على حسب ما أراد .

فبنى البيت وأكمله وسقفه بجذوع وألواح من الأرز .

وبنى الطباق على جوانب البيت كله سمك كل منها خمس أذرع وفرش طباق البيت بخشب أرز .

وبنى على جدران البيت من داخل ألواح أرز وصفّح داخله من أرض البيت الى جوائز السقف بالخشب وفرش أرض البيت بألواح سرو.

وبنى في مؤخرة البيت على مسافة عشرين ذراعاً ألواح أرز من الارض الى الجوائز بناها في داخله محرابا قدس الاقداس .

وكان على البيت من داخل أرز منقوش على شكل قثاء وزهور متفتحة

كان الجميع أرزاً فلم يكن يرى حجر .

فبنى بيت غابة لبنان مئة ذراع طولاً وخمسين ذراعاً عرضاً وثلاثين ذراعاً سمكاً بناه على أربعة صفوف من عمد الأرز وكان على العمد جوائز من الأرز .

وسقفه بالأرز من فوق على الغرفات الخمس والاربعين التي على العمد كل صف خمس عشرة غرفة .

وصنع رواق العرش حيث كان يقضي وهو رواق القضاء وصفّحه بالأرز من الارض الى السقف .

فنحتها بنّاؤو سليمان وبنّاؤو حيرام والجبليون وهيّأوا الاخشاب والحجارة .

وكان طول المحراب عشرين ذراعاً وعرضه عشرين ذراعاً وسمكه عشرين ذراعاً وغشّاه بذهب خالص . وصنع مذبحاً من الأرز تجاه المحراب وغشّاه بذهب .

وبنى الدار الداخلية ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة وصفا من جوائز الارز .

ومن فوق حجارة ثمينة على قياس الحجارة المنحوتة وأرز .

وللدار الكبيرة على محيطها ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة وصف من جوائز الأرز مثل ما لدار بيت الرب الداخلية ولرواق البيت» .

صعوبة تاريخ لبنان

ليس من السهل وضع تاريخ لبنان القديم ، لانه يرجع الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ويتصل بتاريخ الدول التي قامت في تلك الازمنة .

لم يصل الينا عن تلك العهود تاريخ وضعه لبناني من الاقدمين. وفي ما دوّنه مؤرخو اليونان والرومان التباس وغموض ، بل تحامل بصدد لبنان .

في هذا التمهيد نظرة عامة على الوضع في الشرق ثم محاولة لازالة الالتباس وجلاء الغموض ورفع التحامل .

الوضع في الشرق

الزمان : منذ البدء حتى فتح الفرس .

النطاق : من جبال طوروس شمالا الى ايران مروراً بلبنان وسوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين الى ايران .

المشرق المنبسط من جبال طوروس الى وادي النيل يشمل سوريا ولبنان وينعكف شرقاً الى بلاد ما بين النهرين فايران . هذا المشرق كان منذ بدء التاريخ ، لسبعة آلاف سنة خلت ، محط رحال ومطمح انظار .

الأنهر المتدفقة فيه — واغزرها بردى دمشق ، نيل مصر ، دجلة والفرات — افسح طميها على الضفتين المجال للسهول الخصبة فلجأ اليها الانسان الاول واتيح العيش لمجموعات من قبائل وشعوب .

كان المشرق في ذلك النطاق مركزاً استراتيجياً وصلة تربط بين آسيا وافريقيا واوروبا ، فما استقوى شعب ولا قامت دولة في العالم القديم الا وكانت السيطرة على المشرق غاية للفاتحين .

وكان اهم ما يصبو اليه الفاتح ان جاء من بين النهرين ان يصل الى شاطىء البحر المتوسط .

في البدء كانت القوة اساس الحكم . فاذا قويت شوكة احدهم في بلدته سيطر عليها وأسس فيها ملكاً يتوارثه ابناؤه . هكذا قامت جنوبي ما بين النهرين المدنية المملكة (سومر) ودارت في فلكها مدن اور واوروك ولاجاش .

وقامت في الشمال المدينة المملكة (اكاد) تتبعها مدن كبش واجاده وميرى .

وجاء سرجون ، وهو من سومر ، حواليَ ٢٧٥٠ فاخضع المدينتين واسس امبراطورية امتدت حتى الخليج الى البحر المتوسط .

وما جرى في بلاد ما بين النهرين جرى مثله في وادي النيل . وكان الناس فيه يعيشون جماعات منتشرة على ضفتي النهر ، فجاء ماناس ووحّد الضفتين تحت سلطانه . واتخذ لنفسه لقب فرعون فتناقله من بعده من وليّ الأمر في مصر ، واسس العائلة المالكة في الامبراطورية الاولى حوالي سنة ٣٣٥٠ ، وتوالت بعدها الامبراطورية القديمة ، فالامبراطورية الوسطى فالامبراطورية الجديدة فالامبراطورية السفلى حتى الاسكندر الكبير سنة ٣٣٣ .

لا نقصد في هذه النظرة العابرة على تلك المنطقة ان نتخبط بحوادثها الجسام طوال آلاف السنين بل نكتفي بالاشارة الى اهم ما جرى فيها .

في منتصف الالف الثالث هبطت قبيلة (الغوتي) من جبال الشرق واستولت على اشور ودمّرتها ، الى ان قام رجل من مدينة اوروك واثار الشعب عليها فحالفه النصر . ولم يدم ملك الغوتي اكثر من خمسين سنة .

ثم جاء « الاموريون » من الغرب فاحتلوا البلاد واقاموا « بابل » عاصمة لهم (٢٢٣٧) وبعد ان انتصروا على قبائل (الايلاميين) الذين نزلوا عليهم من الشرق زحف الاموريون واحتلوا مصر وسوريا ولبنان .

وظلت بلاد ما بين النهرين مسرحاً للحروب زمناً طويلا الى ان قام رجل من اشور تصدى للاموريين وفتح بابل ثم واصل الفتح حتى آسيا الصغرى .

ولما ظهر حمورابي (وهو من الاموريين) اصلى الاشوريين حرباً

ضروساً وانتصر عليهم . وكان له شأن عظيم في تنظيم الملك وسن الشرائع (٢٠٠٠) .

على ان اشور لم تنم على الضيم فاتيح لثائر منها ، سميزاداد ، ان يجدد مجدها ويقتدي بالفاتحين قبله حتى مدّ رواق سلطانه الى كابادوس وسوريا (١٩٥٠) .

في تلك الاثناء هاجر ابرهيم من مدينة اور التابعة لسومر ولجأ بقبيلته العبرانيين الى بلاد كنعان (سوريا) (٢٠٠٠) (١) .

وظهر في شمالي سوريا شعب هندو اوروبي استولى على بلاد طوروس واسس ملكا . وجعل عاصمته هاتو (الاسكندرونة) وزحف الى ما بين النهرين واستولى على بابل ووقفت صيدا في وجهه فدمّرها . اولئك الحثيون الذين كان لهم شأن كبير في المشرق (١٩٠٠) .

وفي عهد الامبراطورية المصرية الوسطى زحف من سوريا قوم من مختلف الجنسيات فاحتلوا برية سيناء وفتحوا مصر وجعلوا عاصمتهم مدينة افاريس . وقد اطلق عليهم اسم (الملوك الرعاة) ١٧٠٠—١٥٧٠.

وفي ايامهم كانت قصة يوسف الذي استوزره الفرعون وسهّل وجوده تدفق العبرانيين على وادي النيل فظلوا فيه الى ان تمكن المصريون سنة ١٥٧٠ من اجلاء الملوك الرعاة عن بلادهم فلحق بهم العبرانيون بقيادة موسى وكان تيههم في برية سيناء اربعين سنة . ولما بلغوا سوريا تصدى لهم الفلسطينيون وحاربوهم واستولوا على تابوت العهد الذي كان يحمله العبرانيون .

بعد ان غزا الملوك الرعاة مصر ، وقد قدموا اليها من سوريا عبر برية

(١) طريق الفاتحين :
جنوباً — الى سيناء فمصر
شرقاً — جبال طوروس — قيليقيا الى البوسفور
شرقاً — الى دمشق — ما بين النهرين — الخليج — العجم — الهند
شمالا — جبال طوروس — قيليقيا الى البوسفور
غرباً — البحر

سيناء، اصبح همّ الفراعنة الاقصى ان يحولوا دون تجدد مثل ذلك الفتح فخططوا ليكون الغزو من مصر الى سوريا على الطريق عينها .

هكذا ملأت الحروب بين دول المشرق صفحات التاريخ خلال الف سنة . فزحف تحوطموس الاول على بلاد كنعان (سوريا) واحتلها . وكان اول فرعون بلغت جيوشه الفرات (١٥٥٧–١٥٠٨) .

حوالي سنة ١٤٨٠ كان الميتانيون – وهم شعب آري جاء من الشرق– قد احتل شمالي سوريا وانشأ امبراطورية امتدت حتى جبل الكرمل .

وفي موقعة مجدّو ، انتصر تحوطموس الثالث على (الميتانيين) وحلفائهم فوقّع الفريقان معاهدة بينهما (١٤٢٤–١٤٠٥) وتوثيقاً للروابط بين الشعبين تزوج تحوطموس الرابع اميرة ميتانية . وبلغت الامبراطورية الفرعونية ذروتها بين سنة ١٤٦٠ و١٣٨٠ . ثم اخذت بالهبوط فتمكن (اشور بليت) للمرة الاولى من ايصال ملكه حتى الفرات (١٣٨٠ – ١٣٤١) .

وفي آسيا الصغرى استعاد الحثيون قوتهم في اواخر عهد امنيونفيس الثالث فاسترجعوا بلاد كنعان ومدوا سيطرتهم على آسيا الغربية ووقع الميتانيون تحت حكمهم (١٣٦٥) .

بين الاشوريين والحثيين وقف المصريون موقف الدفاع ، فثار عليهم الاموريون والاراميون ووقعت المعركة الكبرى بينهم في مجدّو فانتصر المصريون وزحف الفرعون ستي الاول الى الشمال فالتقى الحثيين للمرة الاولى وجرت بينهم مواقع كان النصر فيها للفرعون وعقب الحرب معاهدة مع الحثيين ضد اشور سنة ١٢٧٨ .

شعوب البحر

ولم تنته الحروب بين دول المشرق البرية حتى طلعت من البحر شعوب آرية جاءت من البلقان ومن شمالي البحر الاسود سنة ١٢٢٧ فانزل اسطولهم جيشاً غربي مصر ، ودامت الحرب سجالاً بينهم وبين الفراعنة حتى اتيح لرعمسيس الثالث ان يفوز بالنهاية على شعوب البحر

في موقعة على حدود ليبيا فاغرق اسطولهم شرقي الهرلت في بلوز ١١٩٢. وكانت شعوب البحر قد انتصروا – خلال حروبهم – على الحثيين الذين انقطع ذكرهم حوالي سنة ١١٨٠ .

وبدأ انحطاط في مصر تحت خلفاء رعمسيس الثالث (١١٢٢ – ١٠٨٥) فعادت بلاد ما بين النهرين الى الظهور والسيطرة على يد تفلا نقلاص ارولي وخلفائه (١١١٥–١٠٩٣) .

وفي فلسطين اسس العبرانيون ملكاً تعاقب عليه كل من :

شاوول ١٠٢٥ – ١٩٠

داود ١٠١٠ – ٩٥٥

سليمان ٩٥٥ – ٩٣٥

ربوعان ٩٣٥

الى ان سطع نجم الامبراطورية البابلية الجديدة وعلى عرشها نبوخذنصر الاول الذي انتصر على المصريين في موقعة قرقميش (٦٠٥) واحتلّ اورشليم .

الجغرافيا والتاريخ

للبنان في موقعه ومناخه وتركيبه الطبيعي ميزة خاصة . فكأنه خلق لكي يكون قلعة حصينة على المتوسط . لقد هيأته العوامل الجيولوجية الفريدة لان يكون مركز التقاء الشعوب المظلومة المتعطشة الى الحرية بعيداً عن مرمى سهام البطش والاستبداد . فكم من الفرق والشيع المسيحية والاسلامية المضطهدة وجدت فيه مقرها الآمن . وكم من ناسك نصراني او ولي مسلم ، على حد قول المقدسي ، وجد في مغاوره وكهوفه ملاذا . وهذا ما يفسر تمازج الشعوب فيه وانصهارها ، على الزمن ، في بوتقة الولاء للارض الرحوم .

ان تسمية المنطقة التي يتوسطها لبنان عهد الانسان العاقل ليست تورية بل واقعا . فالانسان منذ ان وعى ذاته عاش في هذا الاقليم الخصب ومارس فيه تجاربه الاولى في استثمار خيرات الطبيعة ، بناء وزراعة وصناعة ومقايضة . فالادوات الحجرية التي ترقى الى جميع عصور ما قبل التاريخ والتي تظهر بوفرة في المتاحف وفي الحفريات المستمرة وخصوصاً بين ارواد جنوباً ورأس شمرا شمالا اي على طول الساحل اللبناني القديم شواهد حيّة على ماضي هذا البلد العريق .

وقد اكتشف مؤخراً قرب نهر ادونيس آلاف الادوات التي ترجع الى حوالي مئة الف سنة ما قبل التاريخ المكتوب منها قطعتان عجيبتان هما ضرسان احداهما للانسان النيتدرتال أي قبل ٧٠٠٠٠ سنة ، والآخر الى نوع من وحيد القرن انقرض من لبنان منذ ذلك التاريخ ، وثمة ٨٠٠٠٠ قطعة منها فؤوس وادوات لتنظيف وحلج جلود الحيوان .

لقد تطور الانسان العاقل في هذه المنطقة من الشرق تطوراً يكاد يكون ثورياً في انتقاله من العصر الحجري الاول الى المتوسط فالحديث

وفي قفزه من مرحلة العيش على الصيد الى مرحلة الزراعة وتربية المواشي. وقد يكون لعامل المناخ شأنه الفاعل في هذا المجال.

لقد انتقل الانسان في تطوره في منتصف الالف الرابع ق.م. من مرحلة التنظيم العائلي او القبلي الى مرحلة التنظيم السياسي في المدن والممالك.

وترقى أولى الحضارات في التاريخ الى عصر الكتابة (حوالي ٣٣٠٠) وكان مركزاها الاولان مصر وما بين النهرين، بل ثمة عناصر حضارية سومرية سبقت اكتشاف الكتابة كان مقرها تل عبيد قرب اور في جنوبي «ما بين النهرين» وهي ترقى الى ما قبل الطوفان (٣٦٠٠) حتى (٣٤٠٠) وقد تميزت بالادوات العظمية والحجرية واكواخ الغزار المطيّن والسيراميك الملون المتقدم الصنع. وقد نقل الساميون عناصر الحضارة السومرية الى مصر. والارجح ان نقل هذه الحضارة لم يتم عن طريق الغزو بل عن طريق التجارة بواسطة مدينة جبيل. وبدأت الكتابة في تدوين اسماء الملوك.

لقد توحدت مصر في قطاعيها الشمالي والجنوبي درءاً لخطر المد الاسيوي، وكذلك تركزت شعوب ما بين النهرين بعد اقتتال عنيف فيما بينها في بعض الحواضر واهمها سومر واكاد. وعرف هذان البلدان مجداً كبيراً حتى كادا يكونان المجتمعين البشريين المنظمين الوحيدين حتى فجر الالف الثالث ق.م. حتى برزت فينيقيا كمركز حضاري ثالث حسب التسلسل التاريخي ثم فلسطين .... وكانت تتميز حضارة هذه المجتمعات في بدء انطلاقها بالاستثمار الزراعي الذي كان يشد الانسان الى الارض فتجاوز مرحلة البداوة والاكتفاء بالصيد الى مرحلة التوطن والاستقرار فالمقايضة والتجارة ثم البناء. وكان من نتيجة ذلك انتقال الانسان من طور العيش في المغاور الى الخيام ثم الاكواخ المبنية من الطين ثم في البيوت المبنية من الحجر. وقد لعب مجتمع مصر وما بين النهرين (مهد الحضارتين البابلية والاشورية) دوراً كبيراً في هذا التطور ومهدا السبيل امام انطلاقة لبنان وفلسطين ثم سوريا. وكانت جبيل اول مدينة فينيقية واري اول مدينة فلسطينية وقد اكتشفت فيهما اثار بيوت حجرية واعمدة مصقولة ترجع الى حوالي الالف السابع ق.م.

المدن الفينيقية

تاريخ فينيقيا ليس في الواقع الا حصيلة تاريخ مدنها الرئيسية لان لبنان القديم ما كان دولة موحدة بالمعنى الحديث بل مجموعة ممالك متحدة تتعاون حيناً وتتصارع حيناً آخر. وكانت المملكة تقوم على المدينة وضواحيها.

وفي الفصول الآتية ملخص عن تاريخ هذه المدن ابتداء باقدمها جبيل.

عصر جبيل

جبيل او جبال، كما ورد في الكتاب المقدس، او كبنه كما سمّاها المصريون او بيبلوس كما دعاها الاغريق، تعتبر اعرق المدن اللبنانية تاريخاً. ذكرها معظم الانبياء وخصها سفر الملوك الاول بتنويه فريد. ولعلها بعد اريحا اقدم مدينة في العالم. ويعتقد علماء الآثار ان تاريخ البنايات الحجرية الضخمة التي اكتشفت في جبيل يرجع الى ٤٥٠٠سنة قبل المسيح. كانت جبيل صلة الوصل بين فينيقيا ومصر. وكانت التجارة من اهم اسباب هذا الاتصال. هذه المدينة التي اعطت اسمها لأول كتاب «بيبل» وخلقت فيها الابجدية، نشأت قرية صغيرة متواضعة ثم مرت باطوار عدة، كما يشهد تراكم الطبقات الترابية الاثنتي عشرة من خلال الحفريات، حتى اصبحت واحدة من ابرز مدن لبنان القديم.

تدل الأواني التي عُثر عليها في جبيل على ان هذه المدينة تميزت بصناعة معدنية خاصة انتشرت فيما بعد في حوض البحر المتوسط كله. ومن ابرز نتاج هذه الصناعة الاسلحة النحاسية والادوات الفضية للزينة.

ويبدو من الاكتشافات الحديثة ، ولا سيما من الهيكل الذي احتوى قرابين وتقدمات من الفراعنة ، ان علاقة جبيل الرابعة بمصر ترقى الى اسرة الملوك المصريين الثانية أي الى الالف الثالث قبل المسيح ، وربما قبل هذا التاريخ (١) . وقد ورد في آثار الاسرتين الخامسة والسادسة ذكر البواخر .

وانطلاقاً من جبيل بسطت مصر سيادتها على الشاطىء اللبناني حوالي الالف الثاني قبل المسيح ثم على فلسطين وسوريا . ونعمت هذه الشواطىء باستقلالها الذاتي تحت رعاية الفراعنة الى ان تبدلت الاحوال في اواخر عهد هؤلاء فحاولوا بسط نفوذهم بالبطش فكانت ثورات التمرد الشعبية المستمرة حتى تحقق الاستقلال التام (١١٥٠ ق.م.) .

بين مصر وجبيل

اكتشف مونتي في جبيل القديمة مجموعة ادوات واشياء ثمينة ترجع الى حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وفي تلك المجموعة آنية وتماثيل بعضها مرسل من مصر تقدمة الى بعلة جبيل والبعض الآخر مصنوع في جبيل كتماثيل للبقرة والدب والغزال (٢) .

وكانت التجارة نامية بين البلدين فترسل جبيل الى مصر اخشاب الأرز والسرو والصموغ والزيوت والخمور وتستورد الذهب والحجارة الكريمة والنحاس والبردي للكتابة .

وكانت الصموغ تستعمل في التحنيط . واخشاب الأرز لتزيين الهياكل والمنازل .

واكتشف سنة ١٩٥٤ زورق للفرعون خوفو خليفة الفرعون سنفرو ، وكان الزورق مدفوناً قرب هرم الجيزة ومصنوعاً من خشب الأرز ومحتفظاً

(١) في انقاض جبيل هيكل يعاصر اقدم الهياكل المصرية .
(٢) جورج كنتنو ، الحضارة الفينيقية ص ١٢٠ و ١٢١ – وليون هومو ص ١٤٩ .

حتى اليوم برائحته الطيبة (١) .

وكانت بعلة جبيل موضوع عبادة عند المصريين يرسلون اليها الهدايا والنذور حتى انهم بنوا لها هيكلاً في جبيل (٢) .

وظلت العلاقات على اطيبها على عهد العائلة الثانية عشرة في الالف الثاني ق.م. وكان الفراعنة يتبادلون الهدايا مع ملوك جبيل ويلقبونهم بلقب الامراء الشرفاء (٣) .

وفي حملة على بلاد ما بين النهرين طلب تحوطموس الثالث من جبيل فبنت له اسطولاً نقلته الى الفرات مركبات تجرها الثيران (٤) .

ومر رعمسيس الثاني في حملته على الحثيين في جبيل وقدم هدية استمالة الى ملكها .

ولم يكن المصريون يعرفون بناء السفن فسألوا جبيل ان تبني لهم اسطولاً . فبنته جبيل واطلقت مصر على الاسطول اسم جبليت ، نسبة الى جبيل .

وكان في جبيل احواض لصنع السفن .

وكانت غابات الأرز تغطي القمم فوق جبيل على مسافات شاسعة فيقطع الجبيليون الاشجار وينقلونها الى احواض المدينة ويبنون الاساطيل.

كان ملاحو جبيل اول من طاف على البحر في الشواطىء، وقد احتلت جبيل قبرص وبنت فيها على الجهة الغربية هيكلاً للاله باخوس .

(١) حتي – لبنان في التاريخ – ص ٧٩ .
(٢) جورج كونتنو ص ٣٦ .
(٣) جورج كونتنو ص ٣٦ .
(٤) فيليب حتي – لبنان في التاريخ ، ص ٩٦ .

الحضارة في ما بين النهرين ووادي النيل وجبيل

دلت الحفريات في مصر على شبه اكيد بين آثارها القديمة وبين آثار سومر .

وقد تساءل علماء الآثار والتاريخ عن الصلة بين هذه الآثار وتلك فهل كان ذلك التشابه صدفة ام وقع في تلك العهود غزو من آسيا على مصر.

ظن بعضهم انه لا يمكن التعليل بالصدفة ، وانه لا بدّ ان يكون وقع في ازمنة لم يجهلها التاريخ غزو تدفق من آسيا على وادي النيل ونقل تلك الحضارة من سومر الى مصر .

وعالج موره هذا الموضوع فأثبت انه لا دليل يجيز التسليم بفكرة الغزو ، بل يرى ان العلاقات التجارية كانت كافية لتفسير الشبه بين الحضارتين .

وقد جاءت الحفريات الاخيرة في جبيل تؤيد نظرية موره باعتبار ان العلاقات التي كانت بين جبيل ووادي النيل منذ فجر التاريخ تثبت ان جبيل هي التي نقلت حضارة سومر الى مصر (١) .

ولم تقتصر تلك العلاقات على ما تقدم بل تجاوزتها الى الشؤون الدينية ، فأخذت مصر عن جبيل معتقداتها وتبنت آلهتها (٢) .

وانشأ الصوريون في منفيس هيكلاً وبنى المصريون في جبيل هيكلا.

وكانت جبيل مدينة مقدسة يحج اليها اللبنانيون من كل صوب ، بل كانت بوتقة تنصهر فيها الاساطير والشعائر الدينية المصرية والآسيوية كما يبدو من اسطورة ادونيس .

---

(١) كونتنو ، ص ٣٨ و ٤٣ .
(٢) كونتنو ، ص ٣٦ .

عصر صور

صيدا هي التي بنت صور حوالي ٢٧٥٠ ق.م. حسبما يقـول هيرودوتس . فأقامتها مدينتين : مدينة في البر وجزيرة في البحر يربط بينهما رصيف انشأه احيرام في القرن العاشر ق.م. حين طمر الفوهات بين الجزر ووسع نطاق المدينة . ولا تزال اسس الرصيف في البحر ثابتة حتّى اليوم ، وقد بلغت صور من العزّ ما عبّر عنه النبي حزقيال اذ مثّلها وقد زاحمت الاله في جبروتها وتخيّل ان الاله اراد تنكيسها ، عبرة للبشر فقال :

« وكانت اليّ كلمة الرب قائلاً : يا ابن البشر قل لرئيس صور هكذا قال السيد الرب ان قلبك قد طمع فقلت اني اله . وعلى عرش اله جلست في قلب البحار . وانت بشر لا اله . ولكن جعلت قلبك كقلب اله . فلذلك ، هكذا قال السيد الرب ، بما انك جعلت قلبك كقلب اله لذلك ها انا ذا اجلت عليك الغرباء فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون بهاءك وينزلونك في الهوة . فتموت موت القتلى في قلب البحار . افتقول اني اله امام الذي يذبحك وانت بشر لا اله في يد قاتلك » .

ثارت صور على الحكم الاشوري في القرن الثامن قبل المسيح ورغم الاسطول الضخم الذي تمكن الاشوريون من حشده لحصارها فانها لم تستسلم ، بل قاومت خمس سنوات حتّى مات الملك الاشوري شلمناصر وفرض الملك الصوري ايلوتايلي معاهدة تحفظ سيادة المدينة غير منقوصة .

زحف نبوخذنصر الثاني ، ملك الكلدان ، على سوريا فاكتسحها مدناً وسهولاً حتّى بلغ لبنان فوقفت اسوار صور المنيعة بوجهه لا تؤخذ .

فضرب عليها حصاراً دام ثلاثة عشر عاماً اظهر اثناءها الصوريون من البسالة والاقدام والتضحية ما لا يخطر ببال . وبعد سلسلة طويلة من الاهوال والتضحيات ، وبعد ان نفذت الذخائر والمؤن اضطرت المدينة العظيمة « الوقحة بمناعتها » (١) الى التسليم (٥٧٧–٥٦٤ق.م.) (٢).

وفي تلك الفاجعة يقول النبي حزقيال :

« بما ان صور قالت على اورشليم نعما قد انكسرت مصاريع الشعوب وتحولت اليّ لانا امتلىء اما هي فقد خربت . لذلك هكذا قال السيد الرب هاأنذا عليك يا صور فاصعد عليك امماً كثيرة كيما يصعد البحر امواجه فيدمرون اسوار صور ويهدمون بروجها وامحي غبارها عنها واجعلها صخراً عارياً فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحر لاني انا تكلمت ، يقول السيد الرب ، وتكون نهباً للامم . وبناتها اللاتي في الصحراء يقتلن بالسيف فيعلمون اني انا الرب لانه هكذا قال السيد الرب هأنذا اجلب على صور نبوخذنصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف ويجعل عليك مترسة ويركم عليك تلا ويرفع عليك المجنب ويلقي على اسوارك صدمات منجنيقه ويهدم بروجك بادوات حربه . ولكثرة خيله يغطيك غبارها ومن صوت الفرسان والعجلات والمراكب ترتعش اسوارك اذ يدخل ابوابك دخول مدينة قد ثغرت . وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وانصاب عزتك تهبط الى الارض ويسلبون ثروتك وينهبون تجارتك وينقضون اسوارك ويهدمون بيوتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه . وابطل زجل اغانيك ، وصوت كناراتك لا يسمع من بعد . واجعلك صخراً عالياً فتكونين مبسط شباك ولا تبنين من بعد لاني انا الرب تكلمت يقول السيد الرب » .

(١) هكذا كانت تسمى

(٢) مات من أهلها ٨٠٠٠ وبيع ٣٠٠٠٠ منهم عبيداً .

« هكذا قال السيد الرب لصور اليس من صوت سقوطك اذا أنّت الجرحى ووقع القتل في وسطك ترتعش الجزائر وينزل جميع رؤساء البحر عن عروشهم ويحملون ارديتهم وثياب وشيهم ويلبسون الرعدة ويجلسون على الارض ويرتعدون كل لحظة ويدهشون عليك . ويشيدون عليك بالرثاء ويقولون لك كيف هلكت ايتها المعمورة من البحار المدينة الموصوفة التي كانت ذات قوة في البحر هي وسكانها الذين القوا رعبهم على جميع ساكنيها . والآن فالجزائر ترتعد يوم سقوطك وتفزع جزائر البحر من نفيك » .

وبلغت صور ، واصلها السامي « تزور » ، ذروة مجدها بين القرنين العاشر والسابع ق.م. فكانت على حق ملكة البحار تبسط سيطرتها على امبراطورية شاسعة الاطراف تمتد من شرقي البحر المتوسط ، جنوبي جزيرة رودس ، الى البحر الايوني الى المتوسط الغربي حتى اعمدة هرقول . وقد بلغ اهلها المغرب والجزر البريطانية . واستعان الفرعون نخو الثاني باسطولها كما استعان به الفرس على اليونان .

وانطلقت من شواطىء صور جالية تقودها اليسا الى الساحل التونسي سنة ٨١٤ فبنت مدينة قرطاجة التي تحدت فيما بعد الامبراطورية الرومانية وهي في اوجها . وظلت قرطاجة قروناً طويلة تعتبر نفسها تابعة لصور فكانت كل سنة ترسل بعثة اليها حاملة الى هيكل ملقرت تقدمة توازي عشر مدخولها .

زار المؤرخ اليوناني الشهير ، هيرودوتس المعروف بأبي التاريخ ، مدينة صور في منتصف القرن السادس ق.م. وزار هيكل ملقرت ، فوجد فيه عمودين احدهما من ذهب صاف والآخر من زمرد يلمع في الظلام فينير اكداس الهدايا والتقدمات .

عندما فتح الاسكندر المقدوني سوريا ووصل الى ابواب صور وقفت المدينة بوجهه واوفدت اليه بعض مندوبيها ليقدموا له تاجاً من ذهب ويسألوه عن حقيقة نيته تجاه صور . اجاب الاسكندر انه لا يقصد الا زيارة هيكل ملقرت ، صنو الاله هرقل الذي منه يتحدر . فرفض

مجلس اعيان المدينة استقباله داخل اسوارهم . ولم يكن الاسكندر في الواقع يرمي الى زيارة معبد فحسب ، بل كان يروم السيطرة على المدينة البحرية الجبارة التي تمكنه من بسط نفوذه على البحر الابيض المتوسط كله ومن حماية ظهره من ردة اعدائه الفرس . ولما عجز الاسكندر عن دخول المدينة امر بردم البحر لانشاء طريق عريضة اليهـا لكن الصوريين ارسلوا غواصيهم ليعرقلوا اعمال البناء وانشأوا مراكب صغيرة محملة بالزفت والكبريت لقذفها على العمال وادواتهم .

ذات صباح اقلعت السفن من صيدون نحو صور والاسكندر كبير الأمل بتحقيق حلمه خلال ايام . لقد قاد بنفسه جناح اليمين وكلف ملك سلامين القبرصية بقيادة جناح اليسار . وكان الجيش المقدوني قد ازداد عدداً بعد انضمام اربعة آلاف مقاتل من جزر البيلوبينيز . ما كان الصوريون يتوقعون هذا الحشد البشري الرهيب ولا عدد السفن الهائل المتجه نحو مدينتهم بعزم . لكنهم لم يتخاذلوا بل ابعدوا النساء والاطفال الى قرطاجة ابنة صور وجمعوا سفنهم لكي تسد مدخل المرفأ بعد ان ضربت السفن القبرصية حوله الحصار . اما الاسكندر وقواده فتمركزوا على الشاطىء ازاء الجزيرة يرقبون المعركة الفاصلة بكل اهتمام وكان الجسر الذي اقاموه قد وصل الى الجزيرة وبلغ ارتفاع الجدار الواقي الذي رفعه المحاصرون مئتي قدم .

واستبسل الصوريون في الدفاع عن ارضهم حتى ان الاسكندر كاد ييأس وراودته فكرة الرجوع عن الحصار . لكنه ادرك ان فشله يعني موته لان انتصار صور معناه الاشراف على المتوسط وابعاده عنه . فرمى بثقله في المعركة النهائية وكان الجوع قد بدأ يفعل فعله في صفوف المحاربين الصوريين . وكانت الخطة الجديدة التي عمد اليها محاصرة الجزيرة من جميع نواحيها . فقسم الاسطول الى اربع فرق تولت فرقتان منها مهاجمة المرفأ وقامت الثالثة بالدوران حول الجزيرة . اما الرابعة فكانت بقيادة الاسكندر نفسه . وكانت مهمتها فتح ثغرة واسعة في السور قرب القصر الملكي . وانهارت خطوط الدفاع بعد تكرار الهجوم

واستطاع الاسكندر فتح الثغرة في السور . وانطلق منها مع رجاله الى القصر الملكي . وكانت اساطيل قبرص والمدن الحليفة تلاقي فرقـة الاسكندر وتصب نيرانها على الثغرة . فانحصرت مقاومة الصوريين في بناء هيكل ملقارت ، وقد لجأ اليه عز الملك واعيان المدينة ومندوبو قرطاجة .

وحقق الاسكندر نصره . لكن هذا النصر كلفه زهرة جيشه واهم عتاده . وحققت صور ، في استسلامها ، معجزة الصمود الذي اضحى مثلاً في التاريخ القديم .

وكما نفضت صور عنها غبار الهزيمة ، بعد غزوة الاشوريين ، فاستطاع حيرام الثاني ان يدمر بعشر سفن اسطول شلمناصر البالـغ ستين سفينة . وكما استطاعت ، بواسطة حلفها مع مصر ، ان تتخلص من نير اسرحدون فمنعته من دخول هيكلها ، استقوت كذلك على النكسة واستعادت في العهد الروماني شأنها وفي عهد الصليبيين مجدها الاثيل .

من اشهر ملوك صور حيرام الاول ، صديق سليمان (٩٦٩–٩٢٦) بنى اسوارها الحصينة وجعل منها امنع ميناء في شرقي المتوسط . وايتوبعل الاول (٨٨٧–٨٥٦) الذي امتد ملكه الى بيروت .

ومن اشهر علمائها مارينوس الصوري الذي اكتشف خطوط العرض والطول وخط مواقع المسافات التجارية على الخريطة وضبطها ضبطاً علمياً رياضياً في القرن الميلادي الاول . ومكسيموس معلـم الامبراطور ماركوس اورليوس . ويؤكد المؤرخ سترابون ان الصوريين هم اساتذة الاغريق في علم الفلك والهندسة والحساب والملاحة .

النقد

كانت قرطاجة اول من اصدر عملة وكانت نقوداً جلدية تحمل خاتم الدولة ، ثم كان صك النقود ، فحسنته صور وضبطت وزنـه فصار نموذجاً يُتتبع وشاع في المعاملات بين الشعوب . واستمر في

فارس الدفع ، بالنقد الصوري ، حتى القرن الثاني الميلادي . وكانت النقود الصورية تحمل عنوان « ام قرطاجة » .

وكانت قرطاجة كذلك تؤدي العبادة لبعل صور ملقرت . اما تجارة صور فقامت على تبادل المواد الاولية ، واهمها العنبر والقصدير والمعادن والرخام والعاج ، مقابل مصنوعات مصر وما بين النهرين ، ولا سيما الانسجة الصوفية والحجارة المنحوتة والمجوهرات والاواني المزخرفة .

واهم ما اشتهرت به صناعتها الزجاجيات والمجوهرات والارجوان.

وانتشرت جاليات تجارية صورية في سواحل المتوسط وانشأت لها رابطات قوية للدفاع عن حقوقها (١).

(١) ثمة وثيقة تاريخية وجهتها الرابطة الصورية في بوزول سنة ١٧٤ (مرفأ قرب نابولي) الى مجلس اعيان صور تطلب تدخله لحماية حقوقها .

عصر صيدا او صيدون

بنيت صيدا حوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م. وكانت في الاصل مدينتين احداهما على الشاطىء والاخرى على تل يشرف على البحر . وكان لها ميناء داخلي وميناء خارجي . وكانت مساحتها تزيد قليلاً عن مساحتها اليوم .

بلغت صيدون أوجها في السيطرة على البحر في منتصف الالف الثاني (ق.م.) ، فاقامت لها قواعد في جزيرتي رودس واكريت وجسراً لبحر ايجه . وكانت هذه المدينة مركزاً صناعياً عالمياً يضرب المثل بجودة مصنوعاته ولا سيما بحذق الصيدونيات في تطريز القماش . وقد اشاد هوميروس بذلك الفن في ملحمتيه الالياذة والاوديسية . واشتهرت كذلك بتجارة النحاس والقصدير والزجاج الشفّاف المزخرف والارجوان كما اشتهرت بمزج المعادن وصب البرونز .

عرفت صيدا بحرصها الشديد على استقلالها . كانت تقف بوجه الفاتحين وتقاومهم حتى الاستشهاد . وقد توالى الغزاة عليها من الحثيين سنة ١٨٠٦ ق.م. الى شعوب البحر الى الفلسطينيين الى الاشوريين ، الى الفرس . وقد دمر الفلسطينيون اسطول صيدا واحرقوا المدينة حوالي ١١٧٠ق.م.

وكانت صور ، قد بدأت تلعب دورها ، فاستسلمت صيدا للاشوريين بعد مقاومة عنيدة . لكنها ثارت عليهم بعد حين فخربها اسرحدون سنة ٦٨١ وهدم سورها فاضطر ملكها عبد ملقرت الى الهرب . لكن الغازي الاشوري لحق به وقضى عليه واقام على المدينة حاكماً اشورياً ترويعاً لسكانها . واستطاع بعضهم النجاة من الدمار فاقاموا في المناطق المجاورة بانتظار الفرج والرجوع .

ثم احتل قورش الفارسي الكبير لبنان وجعل صيدا قاعدة لولايته ضمت قبرص (١) وسوريا ولبنان وجعل ملكها قائداً لاسطوله . ولما حاول الفرس ان يقيدوا حرية الصيدونيين ويثقلوهم بالضرائب ثار هؤلاء عليهم وارغموهم على اعادة النظر في تصرفاتهم .

في سنة ٤٩٨ ساعد الاسطول الفينيقي ، والصيدوني بنوع خاص ، الفرس على الاغريق . وكان لهم اليد الطولى في النصر . وقد نزلت حملة فينيقية في قبرص بعد ان ثارت وانحازت الى الاغريق . وبعد حرب بحرية دامت اربع سنوات انتصر الاسطول اللبناني على الاسطول الاغريقي .

في موقعة سلامين سنة ٤٨٠ قام الاسطول الفينيقي بدور بارز اذ افتتح المعركة وظل يحارب حتى النهاية . وتمكن ، رغم انهزام الاسطول الفارسي حليفه ، من عقد معاهدة صلح مع الاغريق ضمنت امتناعهم عن التعرض للبلاد الآسيوية .

وما كادت صيدا تستقر بعض الوقت حتى غزاها الاسكندر من جديد .

كانت صيدا ، الى هذا ، مركزاً دينياً . وكان بعلها الخاص اشمون ، اله الشفاء (٢) . وكانت كذلك مركزاً ثقافياً مرموقاً .

ذكر المؤرخ سترابو ، وكان معاصراً للمسيح ، ان الصيداويين فلاسفة في علمي الفلك والحساب . وقال ان المدن اللبنانية اعظم مواطن للمعرفة . ويضرب على ذلك مثلاً بوتس الصيداوي الذي درس معه فلسفة ارسطو وديودوتس الذي كان ، على حدّ قوله ، فيلسوفاً شهيراً . ثم ان زينون الصيداوي كان على رأس المدرسة الابيقورية في اثينا وكان شيشرون نفسه يحضر مجالس تعليمه .

جاء يسوع الى نواحي صيدا فاقبل اليه جمع ليسمعوا تعاليمه

---

(١) كانت قبرص من قبل تابعة لجبيل .
(٢) عثر على هيكله سنة ١٩٠٠ خارج المدينة جنوبي النهر الاولي .

وليشفوا من امراضهم . وهناك اتته امرأة تسأله ان يشفي ابنتها المجنونة ففعل على حسب ما تذكر الاناجيل . وقد بني على الموقع الذي جرت فيه هذه المعجزة كنيسة تذكارية ظلت قائمة حتى منتصف القرن الرابع عشر . وعلى بعد ميلين جنوبي صيدا ، كهف قديم ، ربما كان معهداً لعشتروت يقال ان العذراء مريم اقامت تنتظر فيه قدوم ابنها الى صيدا .

بيروت

يقول المؤرخون ان الاله الذي بنى جبيل بنى بيروت كذلك . وقد نقل عن سنكن‌تين ان الاله ايل او عليون ، اول ملوك جبيل ، تزوج الالهة بيروت وبنى مدينة اطلق عليها اسمها .

اختلفت الآراء بصدد اسمها . فقيل انه مشتق من شجر السرو الذي كان وافراً فيها وحولها . وقيل انه مشتق من لفظة « ابير » الفينيقية التي تعني الشجاع . وقيل بل هو جمع كلمة بئر « بئروت » (بالعبرانية) نظراً لكثرة الآبار فيها .

نشأت بيروت مرفأ يقل شأناً عن صور وصيدون وجبيل يوم كانت هذه المدن المرافىء في اوج شهرتها . الا انها ما لبثت ان احتلت مركزاً مرموقاً بلغ ذروته في العهد الروماني وبروز مدرسة الحقوق .

يروي كريب ، وهو احد عمال الفرعونيين على فينيقية ، ، اشياء كثيرة عن بيروت ومناخها واهمية فرضتها البحرية ولا سيما عن سفنها التي انتصرت على اسطول الاموريين، وينوه عامل آخر بازدهار التجارة في المدينة .

وقد تكون الثقافة ابرز ما عرفت به بيروت في جميع عهودها. حتى قبل ان تصبح «أم الشرائع» بفضل معهدها للحقوق. وتؤكد احدى الرسائل الموجهة من ملك بيروت الى ابنه حاكم اوغاريت ان هذا المركز الشهير بأثاره الادبية والدينية ، وان لم يكن داخلا في حدود لبنان القديم ، كان تابعاً لمدينة بيروت عينها .

طرابلس

نشأت طرابلس على شبه جزيرة فيها قسم بري وقسم بحري، وقد سكنتها في اول الامر جاليات ثلاث قدمت من صيدا وصور وارواد، وكانت المدينة تعرف في القرن الرابع باسم « اثر » كما تدل النقود القديمة في العهد الثاني قبل الميلاد. ثم اطلق عليها الاغريق فيما بعد اسم طرابلس الذي يعني المدن الثلاث باعتبار المجموعة التي تألفت منها.

وترجع بقايا الحيوانات التي اكتشفت عند مدخل طرابلس في البحصاص الى العصر الحجري المتأخر، وهذا يدل على ان طرابلس من اقدم المدن اللبنانية وان وجود الانسان فيها يرقى الى اكثر من ستة آلاف سنة. وقد كان لها شأنها بحيث ان المدن اللبنانية المستقلة، كانت تعقد مؤتمرها السنوي فيها وكان يحضر هذا المؤتمر ثلاثمئة مفوض يتدارسون فيه قضايا البلاد.

وفي سنة ٣٥١ ق.م. انعقد مؤتمر عـــام ابدى فيه المفوضون استعدادهم لاعلان الاستقلال التام عن السلطة الفارسية. وكان لهذا المؤتمر تأثيره الايجابي، اذ بدأت الثورة اللبنانية على ارتحششتا الفارسي في الحي الصيداوي في طرابلس ومنه انتشرت في جميع السواحل بمساعدة مصر. وقد بنيت طرابلس اول ما بنيت على شبه جزيرة وقد بدأت تلعب دوراً مرموقاً منذ القرن الرابع قبل المسيح. الا ان الآثار الباقية من ذلك العهد قليلة لان الغزوات التي توالت على المدينة قضت على آثارها. فالصروح التي لا تزال قائمة ترجع الى القرون الوسطى ولكن اذا كانت آثار المدينة القديمة قد توارت فالمنطقة المحيطة بها حافلة بالآثار العريقة في القدم ومنها المعابد الثلاثه في بزيزا والسفره وناووس.(١)

(١) جورج كونتنو

في العهد الاغريقي الروماني بدأت طرابلس في التقهقر ، لكنها استمرت تتمتع بحقوقها وامتيازاتها السابقة . وقد كان لها الحق بصك نقودها الخاصة بها . وكانت هذه النقود في المدن المستقلة تحمل على احد وجهيها رمزاً لبنانياً وعلى الوجه الآخر رمزاً اسطورياً اغريقياً . الرمز اللبناني دلالة على الاستقلال الذاتي والرمز الاغريقي دلالة على وجه من وجوه الاعتراف بالحكم المقدوني .

وكانت طرابلس مركزاً تجارياً صناعياً وزراعياً بارزاً .

عصر الديانات القديمة

سومر واكاد — كانت المدينتان في فجر التاريخ على بسطة من العيش وتنظيم في الحكم وممارسة الديانة . وكانتا تتناوبان ، حسب الظروف ، الاولوية .

سومر — كانت كل مدينة تعتمد الها : نيبور الهها (انليل). لاجاش الهها (تيلو) ابن انليل. أور لها الاله القمر (ننّا) — لارسا الهها اوتو الاله الشمس ابن الاله القمر . اوروكت — تعبد فانوس باسم انيّنا . ايريدو لها الهها انكي او ايّا . بابل الهها مردوك ابن انكي .

اكاد — غيرت اكاد اسماء آلهة سومر :

اله لارسا اوتو صار اسمه (شمس) .

فينوس اوروك صار اسمها عشتار (عشتروت)

حمورابي الآموري حافظ على آلهة سومر وأكاد ، على ان مردوك اله بابل اخذ الاولوية مع اعتباره ادنى من ابيه انكي . والاله الشمس املى على حمورابي القوانين .

الكسيت — لما احتل الكسيت بابل احتفظوا بآلهتها .

اشور — الاشوريون في نينول واشور العاصمتين يحتفظون بالآلهة ولكنهم كانوا يقدمون على تلك الآلهة الههم اشور .

العائلة المالكة في البابليين المحدثين — احتفظوا بالآلهة القديمة وميزوا منها الأله « نابو» ابن مردوك .

العجم — عندما فتح قوروش بابل (سنة ٥٣٩ ق.م.) احتفظ بالآلهة القديمة . التاج بالقرون على العرش يدل على اله .

الشعائر الدينية — تخيلوا الآلهة بشراً . فجعلوا لهم زوجة واولاداً وخداماً وخادمات . وجعلوا الصلة مستديمة بين الآلهة والانسان حتى

جعلوا لكل انسان اله والهته الحامية بشكل الملاك المرافق . واعتبروا ان الآلهة هم رجال متفوقون وان الآلهات هن نساء متفوقات .

الملوك الآلهة – وتخيلوا آلهة اولئك الذين بنوا المدن واسسوا الممالك ، امثال ايتانا الملك الذي صعد الى السماوات .

ولوجلباندا وجلجامش وهما من العائلة المالكة في اوروك بعد الطوفان حصلا بعد الوفاة على الاحتفالات الخاصة بالآلهة .

الـــه السماء – آن – انو – انون .

اعطي هذا الاله صفات عديدة : عشتار بنت انو .

اله الارض – انليل اله سومر .

اله المياه – انكي – ايا وهو الاله الثالث من الثالوث .

ايا خلق الانسان ، له امرأة نينكي .

اله جهنم – نرجال .

آلهة الكواكب

الاله القمر – سين – وهو الاله ننّا اله اور .

الاله الشمس – شمس وهو اله لارسا في سومر .

من خصائص الاله الشمس : اله العدل واله العرافة .

النجمة فينوس – ايننا او عشتار .

ولها عباداتها في سومر واكاد وبابل واشور وقد لحقت هذه العبادة الفاتحين في فتوحاتهم .

الكهنة – كان الكاهن مخصصاً بان يكون الواسطة بين الانسان والاله فيقوم بالشعائر الدينية. وفي البدء كان الملك هو الحبر الاعظم. ثم تنازل الملك الى الكهنة . وكان من حق الكاهن ان يعيش من المذبح . وكان في خدمة المذبح مرتلون وموسيقيون . وكان من النساء كاهنات .

الشعائر – قبل البدء بممارسة الشعائر كان على القائم بها ان يغسل يديه . ثم تقدم المائدة .

الهياكل – الهيكل قصر الاله . والى جانب القصر بناء سرّي . وفي

لاجاش سومر كان هذا البناء من خشب الارز الزكي الرائحة . ويعتقدون ان هذا البناء الخاص كان لمدافن الملوك ومنها برج بابل . وقيل فيه ان الكهنة كانوا يصعدون الى اعلاه ليراقبوا سير الكواكب والنجوم . وكان على جوانب الهيكل من الداخل تماثيل تمثل الآلهة والملوك .

المذبح – كان المذبح عبارة عن طاولة خاصة بالتقدمة .

الديانات القديمة في لبنان

كانت عبادة الرعاة للقمر اولى العبادات في هذا الشرق واقربها الى الحلم الشعري . فملك الليل في الصحراء يضفي على السكون خشوعاً ويبرز حارساً اميناً من الغدر في الظلام . لكن اولى العبادات المركزة بدأت بالشمس حين جعل الانسان يستثمر خيرات الطبيعة ويدرك علاقة الشمس بنمو الزرع . ثم جاءت الارض من حيث انها تكمل مهمة الشمس في اثارة الخصب . وقد جسد تموز اولا ثم ادونيس كلا من هاتين العبادتين .

يقول المؤرخ كونتينو في كتابه « الحضارة الفينيقية » ان العبادات لدى الامم العريقة كالمصريين والاشوريين والبابليين والفينيقيين كانت العمود الفقري للمجتمع . لذلك كانت الطقوس الدينية تستأثر باهتمام الناس . ولا غرو فمنذ استقر الانسان على الارض وبدأ يستثمرها مطمئناً الى غذائه راح يتطلع الى ابعد من الواقع ، الى مصادر الخصب ، الى الشمس والارض ، والماء (الى النيل ودجلة والفرات) اي الى الوجه الايجابي من القوة المسيطرة على الطبيعة . وكان من قبل لا ينظر الا الى الوجه السلبي ، الى الصاعقة التي تورث الدمار .

هذا التطلع الى ما وراء الواقع جعل الديانات اساساً في بناء المجتمع بقدر ما جعلها مصدر وحي فني .

وقد نشأت الفكرة الدينية الاسطورية لدى الكنعانيين منذ الالف الرابع (١) وهم بعد في طور بداوة . فما ان انتظم مجتمعهم في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م. حتى بدأت ديانتهم تتخذ لها طابعاً خاصاً .

(١) كانت منتشرة على شواطىء النيل والفرات .

كانت مياه النيل والفرات تؤمن الخصب لمصر وسومر . اما بلاد كنعان فكان الخصب فيها مرهوناً بالمطر . ومن هنا كان لعناصر الفلك من الشمس الى الريح الى الماء الى القمر واثرها على الفصول مركزها في ميتولوجية الشعب . وقد تنظمت هذه الميتولوجية بشكل تسلسلي . فكان لكل اله دوره ومقامه : ايل في قمة الهرم . هو اله الآلهة وملك الملوك ومصدر السلطة والرحمة والحكمة يعاونه مجلس اختصاصيين من الآلهة كمستشارين .

بعد ان تطور المجتمع تطورت النظرة الى الآلهة وانعكست الآية . صار الانسان يتأله بعد ان كان الاله يتأنس . فالابطال ، بناة المدن والممالك ، صاروا آلهة .

رأى اللبنانيون القدامى ان افضل طريقة لكسب عطف الآلهة هي العدالة الاجتماعية . فنظموا مجتمعهم على غرار المجتمع الميتولوجي السماوي بحيث ان المدن الفينيقية اضحت نماذج مصغرة للملكيات الدستورية في مفهومنا الحديث .

وفي هذه النظرة التفصيلية الى الديانة الفينيقية وطقوسها ما يلقي اضواء على تنظيم المجتمع .

الآلهة في فينيقيا

يرتكز هيكل الآلهة في فينيقيا على اساسين : مذكر ومؤنث، كان ثمة اله كبير والهة كبيرة وحولهما آلهة دونهما مقاماً وقوة وسلطاناً .

(ايل) — وهو آب الالهة (جمعه الويم)

(بعل) — معناه السيد ، (جمعه بعلين ، ومؤنثه بعلت)

(اليان) — وهو ابن بعل ، واخته آنات .

(مت) — اخ اليان ، ولكل منهما اختصاص : « اليان » يشرف على الينابيع وينبت الزرع .

(مت) يرعى الحصاد ويشرف على راحة الارض . « اليان ومت » يمثلان تعاقب الفصلين في السنة : فصل الحرث والزرع، وفصل الحصاد.

(شباش) او الشمس — الهة النور .

(اشمون) ، ادونيس ، عشتروت .

ملقرت — كلمة مركبة من (ملك وقرة) اي ملك القرية .

وكان لكل مدينة الهها الخاص . ولكل اله هيكله .

ملقرت صور ، اشمون صيدون ، بعلة بيروت ، ادونيس بعل جبيل وعشتروت بعلتها .

في كل هيكل رجال الدين — واسمهم (كهانين) وعلى رأسهم كاهن يحمل لقب رب ، اي رئيس .

وكان « الكهانين » يقومون بالرتب الدينية اخصها رتبة التضحية ورتبة النضح .

رتبة النضح تقدّم لانثى الآلهة ، فينضحون امامها الزيت والحليب والخمر .

رتبة الذبيحة تقدّم للذكور من الآلهة ، ولكل ذبيح مقام : الفدان ، فالعجل ، فالغزال ، فالكبش ، فالخروف ، فالجدي ، فالطيور ، فالحبوب .

وكان لكل ذبيحة اجر : فعن الثور عشرة فضة وقطعة من الثور . ويتدنى الاجر حتى يصل الى ثلاثة ارباع الفضة عن الطير .

وكانوا ينيرون في الهيكل (شعلة دائمة) يوقدها الكاهن محلوق الرأس .

وكانوا يقيمون الاعياد ويحيون الحفلات للآلهة . واشهر حفلاتهم تلك التي كانت تقام على ذكر ادونيس : كانت الحفلة تقام في افقا ، في فصل الصيف ، يأتون اليها من جبيل ومن سائر الانحاء اللبنانية فيسيرون ارتالا ارتالا بشكل زيّاح صاعد الى قمة الجبل ويقفون في محطات منتشرة على الطريق تمثل كل محطة منها مرحلة من مراحل الصيد التي قطعها ادونيس .

في تلك الاعياد كانوا يصنعون تماثيل صغيرة من أجر او شمع تمثل ادونيس ويصفّونها صفوفاً صفوفاً على مدخل الهيكل وعلى

سطوحهم ، فيجتمع حرلها النساء مولولات ويرقصن رقصاً على وقع اغنيات محزنة .

وكانوا يضعون في الصحون قبضة من التراب يرشون فيها قليلا من الحبوب التي تنبت خلال ايام وتذبل بعدها اشارة الى شباب ادونيس الذاوي وهو في ريعان الصبا .

وكان العيد يدوم ثلاثة ايام ، ففي اليوم الاول يعيّدون فرحين وتقدّم المآكل الشهية والفاكهة اللذيذة . وفي اليوم الثاني حزن في جنازة ادونيس. وفي اليوم الثالث ابتهاج بقيامته .

الاعتقاد بحياة بعد الموت

كانوا يعتقدون ان بعد الموت ينفتح للنفس حياة جديدة ، وتبقى على صلة بالجسد التي فارقته .

على هذا الاعتقاد كانوا يدفنون الميت ومعه اسلحته وآنية ، واطعمة ، وادوات للاستعمال . وكان هذا دافعاً لاتقان بناء المدافن .

وكانوا يسمون المدافن بيوت الاستراحة او بيوت الابدية ، وكانوا يحفرون لها في الارض عميقاً . فلا يصل اليها اللصوص .

وقد ورد في مدفن احيرام كتابة تقول :

« ايتو بعل ابن احيرام ملك جبيل بنى هذا الضريح لابيه احيرام بيتاً للابدية . كل ملك بين الملوك او حاكم بين الحكماء يزحف على جبيل يكشف هذا الضريح يكسر صولجانه ويقوض عرش ملكه ويخيّم السلام على جبيل . ومن تجرأ على ازالة هذه الكتابة يكون مقره الجحيم » .

الرابطة الدينية

كانت الرابطة الدينية تربط بين اللبنانيين (الفينيقيين في لبنان) والجاليات . وكما كانوا يحجون الى جبيل وافقا ، هكذا كانوا يحجون الى صور لتقديم الذبائح الى الاله ملقرت .

وكان الملك يمثّل الاله . وكان واسطة بين الاله وبين الرعية . من آلهتهم « ايل » و « دوموزى »

وكان الالتجاء الى الاله بواسطة الضحايا والتقدمات والصلوات .

وكانت تعرف ارادة الاله بمظاهرها في الاحلام او بوحيها الى العرّافة . وكان للهيكل ادارة خاصة يقوم بها كهنة الهيكل .

الحكم في المدن الفينيقية

كان القاضي الاول في المدن الفينيقية يعتبر ملكاً ، ويحكم بحق الهي فيضمن استقرار الملك وابقاءه ارثاً لبنيه من بعده . ولكن حكمه لم يكن مطلقاً . عوامل كثيرة كانت تحد من سلطته . اهمها وجود ارستقراطية التجار واصحاب المال ، وفئة الملاحين الكبار وقباطنة المراكب الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها واحترامها فضلا عن وجود مجلس الشيوخ . وقد عرفت جبيل مثل هذا المجلس منذ اقدم العهود (١) . وكان لملك اوغاريت ٧٠ مشيراً من الاشراف. واثناء الحكم الفارسي كان مجلس الشيوخ في صيدا يتألف من ١٠٠ رجل(٢) وكان لصور مجلس مماثل.

وكان على كل مدينة ملك من عائلة تنتسب الى الآلهة والى جنب الملك مجلس شيوخ مؤلف من اشراف المدينة واثريائها . وكان لكبير الكهنة مقام عال فيه . وكانت سلطته تعادل سلطة الملك . وكان عدد اعضاء المجلس في المدن الكبيرة مائة .

تداولت المرتبة الاولى بين المدن — حسب الازمنة — صور وصيدون وجبيل .

كل مدينة كانت على استقلال داخلي . الا انها كانت اذا دهم عدو احداها أتحدت وتحالفت في الدفاع . الا اذا تعذّر الامر عليها في احداث خارقة .

(١) راجع سفر حزقيال : ٩ « شيوخ جبيل » .
(٢) Diodorus Siculus History BK. XVI ch. 45, sec. I.

مجلس الاتحاد الوطني

أنشأت صو وصيدا وجبيل وبيروت وطرابلس « مجلس اتحاد وطني » كان يجتمع في طرابلس كلما دعت الحاجة الى اجتماعه . انشىء قبله اتحاد ضم ارواد وصور وصيدون بقيادة هذه المدينة لمواجهة الفاتحين.

الادب الفينيقي

اذا كان الفينيقيون قد اشتهروا في انواع كثيرة من الفن ولاسيما الفن الزخرفي والبناء وفي حقول علمية كثيرة ، فان شهرتهم لم تكن اقل في حقل الآداب ، لا سيما وانهم اكتشفوا الابجدية . الا ان الآثار الفنية والعلمية بقيت لها شواهد حيّة بينما الآثار الادبية كادت تندرس لولا اكتشافات رأس شمرا – اوغاريت – في هذا القرن .

لقد برهنت هذه الاكتشافات على ان للفينيقيين شعراء وكتاباً من الطراز الاول لاسيما في اللون الملحمي او الغناء الاسطوري تمجيداً لآلهتهم وابطالهم وان اليونان والرومان قد اخذوا عنهم اشياء كثيرة في آدابهم وملاحمهم. وقد بين النقاد المعاصرون ان هوميروس امير شعراء اليونان الاقدمين صاحب الالياذة والاوديسيه اي الملحمتين اللتين يتغنى فيهما بمآثر آلهة الهلادة وابطالها قد تتلمذ على الشعر الملحمي الفينيقي ونسج على منواله .

ومن ابرز ما اظهرته حفريات اوغاريت آثار الشاعر تابيون والمؤرخ سنكانياتون (عبر فيلون الجبيلي) في الالف الثاني قبل الميلاد وملحمة البعل وعليان القائمة على الصراع بين اله الصيف واله الشتاء وملحمة صراع كرت ملك صيدون ، وفي النثر بحوثاً علمية منها ما يتناول امراض الخيول وطرق معالجتها . وفيما يلي فقرات من قصيدة كرت ملك الصيدونيين :

قوض اركان الحصن الذي هو منزلك ... ان ذريته ستنقرض ...
عندئذ يدخل غرفته
وهو يبكي مردداً رسالتي ال
ويذرف الدموع

فتتساقط تلك الدموع مثقلة كالاجيال
حتى الثرى
وينام ذارفاً دموعه
ان اضطراب الهجعة يقلقه
فيصعد الى السطح
وفي الحلم ينزل عليه ال خبرا سارا
ـ قال ـ « انا هو ابو البشرية »
خذ عصفور التضحية
اسكب الخمر في كأس من فضة
والعسل في كأس من ذهب
اصعد الى قمة البرج
ارفع يدك الى السماء
اسجد لبعل وقدم له ضحيتك
وابن داجون وقدم له احسن صيدك
وتيره يطلع القمر البريد
لاجل نيخار حبيبته
مثل الجراد تملأون السهول.

واسهم اللبنانيون اسهاماً مرموقاً في الفلسفة اليونانية في العهد الواقع بين فتح الاسكندر وفتح الرومان فأسس زينون المدرسة الفلسفية الرواقية وقسم الفلسفة الى فروع ثلاثة متكاملة هي المنطق وعلم الطبيعة والماورائيات ومن اشهر اثاره : المبادىء الجمهورية .

وسار على تقليده بيوتس الصيدوني الى ان نشأ زينون آخر في صيدا كان له اثره الفعال في تطوير المذهب الابيقوري . وفي سنة ٢١٠ ق.م. تولى ديودورس الصوري زمام المدرسة المشائية في اثينا نفسها.

واشتهر في حقل الادب الهزلي انتباتر الصيدوني وفي حقل التاريخ فيلون الجبيلي .

اما في حقل العلوم فقد نبغ عدد وافر من ابرزهم موخوس الصيدوني

الذي اكتشف قبل ديمقريط مفهوم الذرة .

وكان لهم يد كبرى في تطوير علوم علم الفلك والهندسة والحساب وفن الملاحة وفي تلقينها لليونان .

اسرة قدموس المالكة في طيبه

الجدّ الاعلى اشنّار ملك صور .
اشنّار ولد قدموس وعربا .
قدموس ولد بوليدور .
بوليدور ولد لبداكوس .
لبداكوس ولد لايوس .
لايوس اعتلى عرش طيبه واقترن بجوكاست بنت منيسيس .
اخو جوكاست كريون .
لايوس وجوكاست رزقا ولداً دعياه اوديب .
واوديب وجوكاست رزقا ولداً دعياه بولينيس وابنة دعياها انتيغون .

الاسطورة

روت الاسطورة ان الآلهة حذّروا لايوس ملك طيبه من ان ينجب بنين يخلفونه على العرش . وهددوه اذا جاءه ولد ان هذا الولد يقتل اباه ويتزوج امه .

وبالرغم من هذا التحذير انجب لايوس وامرأته جوكاست ولداً.

ولمّا صحا لايوس وتذكر تهديد الآلهة راعه ان يبقى ابنه حياً فيتحقق تهديد الآلهة فجاء به وثقب كعبيه ليتسنّى حمله كالطريدة وسلّمه الى احد عبيده ليلقيه في مضيق جبل سيترون على حدود بيوثيا والاتيك .

على ان العبد تملّكته الرأفة فبدلا من ان يرمي الولد في سفح الجبل اعطاه راعياً من كورنتيا فحمله الراعي الى مليكها بوليب الذي لم يكن رزق ولداً . فأخذه الملك واعتنى به كما يعتني الاب بابنه محتفظاً له

باسم اوديب او « ذي الرجلين المثقوبتين » .

وبعد ان شبّ اوديب اتصل به صدى شائعة انه ليس ابن الملك فقصد الى دلفوس ليسأل الاله ابولونيوس ان يطلعه على الحقيقة .

وفي الوقت عينه كان لايوس قد سمع بان ابنه اوديب بقي حياً فذهب هو ايضاً الى دلفوس ليسأل عن مصير ابنه .

وشاءت الصدف ان يلتقي على مفرق في الطريق لايوس واوديب وتشاجرا على الممر وفي اثناء المشاجرة طعن اوديب لايوس فقتله وهو لا يعرف من قتل .

وهجر اوديب كورنتيا الى طيبه حين كان الوحش المدعو (سفنكس) يسدّ الطريق على القادمين الى طيبه ويطرح عليهم لغزاً ويفترس كل من لا يحلّه، وهكذا قتل الكثيرين من ابناء طيبه الى ان جاء اوديب فاستوقفه الوحش وطرح اللغز فحلّه اوديب وقتل الوحش ونجت طيبه. واستقبلت المدينة اوديب استقبال الفاتحين ونصّبته ملكاً عليها . واقترن اوديب الملك بجوكاست ارملة الملك السابق لايوس وهو لا يعرفها . فأنجبا ولدين هما ايتيوكل وبولينيس وبنتين ايسمان وانتيغون .

في تلك الاثناء نزلت المصائب بمدينة طيبه حتى ضجّ الشعب. واستصرخ الملك اوديب لينجيه هذه المرة كما نجاه من الوحش . فارسل اوديب كريون اخ امرأته الى دلفوس يستفتي الاله . فرجع كريون بالجواب ان على المدينة ان تثأر من قاتل ملكها السابق لايوس .

فأخذ الملك اوديب ومعاونوه يحققون ويفتشون حتى انتهى بهم الامر الى ان عرف اوديب ان الرجل الذي قتله على الطريق وهو لا يعرفه كان الملك لايوس. وعرف ان لايوس هو ابوه وان جوكاست هي امه.

فصعق اوديب، انه قتل اباه واقترن بوالدته وريعت جوكاست انها تزوجت ابنها فشنقت نفسها وفقأ اوديب عينيه وترك الملك وراح يطوف البلاد فقيراً مستعطياً .

على هذه الاسطورة بنى صوفوكل مسرحيته « اوديب الملك » ونظم اوروبيد مسرحيته « الفينيقيات » .

قدموس وفتح اوروبا

حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م. خرجت من صور الى البحر جالية بقيادة قدموس فاحتل فريق منها جزيرة قبرص وفريق جزيرة رودوس ونزل فريق ثالث في جزيرة كريت واستوطنها وأسس فيها ملكاً كان على رأسه الملك مينوس .

وواصل الباقون طوافهم حتى نزلوا على خليج كورنتيا في منطقة بيوسيا، وهناك استقر بهم المقام فبنوا المدينة العاصمة « طيبة » ذات الابواب السبعة وشيدوا فيها قلعة دعوها (قدما) على اسم قائدهم قدموس .

وكانت تسكن في تلك المنطقة جماعات بدائية من الاغريق . فأسس قدموس مملكة بيوسيا وكان اول ملك عليها . ثم توارث الملك بعده عائلة مالكة : ابناؤه واحفاده ومنهم (اوديب الملك) .

في تلك البلاد فتح الصوريون الطرقات وشادوا المنازل والقصور والهياكل وبنوا المدن وفتحوا المدارس وعلموا الاهالي الزراعة والصناعة ودربوهم في صناعة السفن .

وامتد الملك شمالا فاحتل الصوريون البلاد حتى ايليريا (مقدونيا والبانيا) . ومرت مئات السنين فنال خلالها الاغريق على يد الصوريين قسطاً وافراً من العلم والحضارة ونبغ منهم كتّاب وشعراء — خصوصاً في « اثينا » ومقاطعة « الاتيك » وقد امتازوا بسعة الخيال فجعلوا للاحداث التاريخية اساطير نظموا فيها القصائد والملاحم (١)

(١) يقول الشاعر اشخيلوس (٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م.) ابو فن المأساة اليونانية ان قدموس وشعبه وجهوا الاغريق شطر الثقافة .

وكان ما تناقلته السنة الليالي عن قدوم قدموس ورفاقه وفتح البلاد وتعميرها موضوع اسطورة تداولها الاغريق اجيالا .

اسطورة عربا وقدموس

روت الاسطورة انه في قديم الزمان كان ملك في فينيقيا اسمه اجنور (اشنار) وله ابنة رائعة الجمال اسمها (عربا) وان الفتاة راحت ورفيقات لها تتنزه على شاطىء البحر ، فاذا بكبير الآلهة (زفس) تقع عينه على الاميرة الحسناء فيحبها ويمسخ نفسه ثوراً ويقترب منها وفي لحظة خاطفة يحملها على ظهره ويهرول بها الى البحر .

وما كادت الرفيقات يشعرن بما جرى حتى كان الثور — وعربا على ظهره — قد بلغ عرض البحر وغاب عن الانظار . فرجعت الرفيقات يخبرن الملك بما حدث .

والاسطورة تقسم الرواية ستة فصول :

الفصل الاول يمثل الاله (زفس) حاملاً على ظهره عربا يقطع بها البحر .

الفصل الثاني — ينزل (زفس) في جزيرة كريت ، وهناك يظهر بشكل انسان ويستهوي عربا ويعقد زواجه عليها ويقيم على شرفها مهرجاناً ، ثم يرزق منها ثلاثة اولاد بكرهم (مينوس) الذي اصبح ملكاً على جزيرة كريت .

في الفصل الثالث : عندما علم الملك (اشنار) بخطف ابنته هاج وحزن فأمر ابنه قدموس بأن يجهز الرجال والاعوان ويذهب بهم للتفتيش عن اخته .

يبحر قدموس ورجاله في اثر عربا .

مروا في الجزر — على طريقهم — فلم يجدوها .

واصلوا السير حتى بلغوا اليابسة في (بيوسيا) الواقعة على كتف خليج كورنتيا . ويئس قدموس من العثور على اخته فاقام ورجاله في تلك المنطقة واستوطنوها وبنوا فيها مدينة (طيبة) وقلعة اطلقوا عليها اسم

قدما ، المشتقة من قدموس .

وفي الفصل الرابع : تروي الاسطورة ان تنيناً هاجم قدموس فقتله ونشر اسنانه على الارض فأنبتت الاسنان رجالاً مسلحين عينهم قدموس نبلاء في مجلس طيبه .

وفي الفصل الخامس يدخل قدموس في عبادة الاله (اريس) ويتزوج من ابنته وتأتيه من الآلهة هدايا فاخرة .

وتخليداً لذكرى اخته اطلق على القارة كلها اسم عربا (ومنها اوروبا) .

في الفصل السادس — يوغل رجال قدموس في احتلال تلك البلاد حتى اقصى الشمال في ايليريا على اسم ابنه ايليروس .

قدموس

في اساطير الاغريق التي اتصلت بالقرن الخامس قبل الميلاد ان قدموس جاء الى بلادهم من شواطىء فينيقيا وبنى على مضيق كورنتيا مدينة طيبه وأسس فيها ملكاً توارثه ابناؤه جيلا بعد جيل من بوليدور الى لبداكوس الى لايوس .

وان الملك لايوس اقترن بابنة ماناساس المدعوة جوكاست .

وان الاله فوابوس حظر على الملك لايوس ان ينشىء نسلاً له من امرأته جوكاست ، واذا خالف الحظر ورزق ولداً فهذا الولد يقتل اباه ويقترن بأمه . وان الملك لايوس في ساعة سكرى استسلم لهواه فاصبحت امرأته جوكاست حبلى ورزقت ولداً .

وان الملك لايوس خشي غضب الاله وتنفيذ وعوده فثقب كعبي ابنه وعلّقه بخيط كما يعلق الطائر وكلف عبداً له ان يرمي الولد في ضاحية المدينة . وان العبد رقّ قلبه على الولد وبدلا من ان يرميه فريسة للحيوانات اعطاه الى راع من رعاة ملك كورنتيا والراعي حمل الولد الى ملك كورنتيا فتبناه الملك وسماه « اوديب » ومعنى الكلمة في لغتهم مثقوب الكعبين .

وان اوديب ربي في حجر ملك كورنتيا وهو يعتبره اباه الى ان سمع يوماً في همس رفاق انه ليس ابن الملك فسار الى العرافة دلفوس يسألها ان تصدقه الخبر . وان في الوقت عينه كان الملك لايوس في طيبه قد سمع بان ابنه حيّ يرزق فذهب هو ايضاً الى دلفوس .

فالتقى اوديب بالملك لايوس على الطريق ولا يعرف احدهما الآخر فتزاحما على الممر وتشاجرا وقتل اوديب لايوس وهو يجهل انه ابوه . وان مصائب نزلت بمدينة طيبه وان اوديب اتيح له ان يخلص المدينة ، فنادت به ملكاً عليها وتزوج بارملة لايوس جوكاست وهو لا يعرف انها امه ورزق منها ولدين سماهما تيوكل وبولينيس ، وابنتين سماهما اسمين وانتيجون .

وان نتيجة البحث عن قاتل الملك لايوس ثبت لاوديب انه هو القاتل فعرف انه قتل اباه وتزوج امه ، ففقأ عينيه ومضى في البلاد هائماً على وجهه ورافقته ابنته انتيجون . وانتحرت جوكاست . تلك خلاصة الاسطورة .

وعليها بنى شعراؤهم مسرحيات وضع احداها الشاعر اوروبيد بعنوان « الفينيقيات » في القرن الخامس ق.م.

اخذنا هذه الرواية لما فيها من اثبات لحوادث تناقلها الاغريق اجيالا وقروناً فالقت الاضواء على تاريخ لبنان القديم في بلاد الاغريق.

وحصيلة تلك الحوادث ، ان قدموس ابن اشنار ملك صور جاء ورفاقه الى بلاد « بيوسيا » فاسسوا مدينة « طيبة » عاصمة لها ، وقام قدموس ملكاً عليها ، وبنى لها قلعة حصينة دعاها باسمه « قدما » (١)

وان قدموس اسس عائلة مالكة توالت على الحكم في طيبه اجيالا حتى اتصل الحكم باوديب الملك الذي اصبح موضوع مسرحيات كثيرة بدأها الاغريق ولم تنته حتى يومنا هذا .

---

(١) وامتد الاحتلال الى البانيا على بحر الادرياتيك وجرى تأسيس العائلة المالكة فيها .

مسرحيات سوفوكل واوروبيد

مسرحية سوفوكل – تشرح المسرحية كيف توصل اوديب الى اكتشاف الحقيقة وكيف انه بعد ان فقأ عينيه وترك الملك فرض على نفسه عقوبة ان يطوف في البلاد تائهاً شحاذاً يستعطي .

مسرحية اوروبيد (وعنوانها الفينيقيات) – تشرح المسرحية الصلة المستديمة بين القدموسيين والوطن الام صور ، وكيف ان صور ارسلت الى احفادها في بلاد الاغريق زهرة فتياتها لمزار الالهة فوابوس (ابولون) .

في الرواية مشهد يمثل جوقة مؤلفة من خمس عشرة فتاة بلباسهن الشرقي ، وتقول الجوقة : « تركت مياه صور وغادرت الجزيرة الفينيقية في تقدمة الى الاله فوابوس (شعر ٢٠٠ – ٢٠٤) ان ابناء وطني قد اختاروني كأجمل هدية الى لوكسيساس فجئت الى بلاد القدموسيين الى اسوار مدينة لايوس حيث شعبها ينتسب الى ابناء اشنار المشهورين ... ونحن نشارك هذه البلاد في احزانها وهي ارض فينيقية فان دماً واحداً يجمع بيننا ، فاشنار هو الجد الجامع لاهل طيبه وللفينيقيين وهو حفيد ايبانوس ابن الاله زوش والالهة ايو » (اشعار ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٤٠) . وفي الشعر ٢٧٩ يسأل بولينيس الجوقة قائلا : « ايتها الغريبات من انتّن ؟ ومن اي وطن جئتن الى منزل اغريقي » .

فتجيب رئيسة الجوقة : « ان فينيقيا هي الوطن الذي غذاني . واولاد اشنار ارسلوني الى هنا تقدمة الى الاله فوابوس ... وانت من انت ؟ » .

بولينيس : « انا ابي اوديب ابن لايوس . وامي هي جوكاست بنت منسيس والشعب في طيبه يسميني بولينيس » .

عندئذ تركع الجوقة امام بولينيس وتقول الرئيسة : « يا قريب ابناء اشنار اسيادي الذين ارسلوني الى هنا اركع امامك ايها السيد كما تقضي به عادة بلادي » .

جوكاست تدخل الى المسرح وتقول : « عندما سمعت اللهجة الفينيقية ايتها الفتيات حملتني اليكّن رجلاي الضعيفتان» (اشعار ٦٤٠– ٦٩٠) .

تذكر المسرحية في الشعر ٨٢٥ وما يليه : « ان الاله ايو ولد ملوك القدموسيين . وبعد ان توالى على المدينة ايام مجد تعد بالالوف صعدت الى ذروة التيجان الحربية » .

وفي الشعر ١٣٧٥ ذكر للابواق الصورية التي اخترعها الاتروسك بعد حرب طرواده . وفي الحاشية تحت الشعر (١٤٩٠) ان انتيجون بنت اوديب فكّت زر قميصها على الكتف وتركتها تهدل على خصرها فأبرزت صدرها عارياً دليل تفجعها (١) بعد ان طرد خالها كريون اباها اوديب فوافقت اباها (شعر ١٧٦٠) .

وبعد ان تعرف جوكاست حقيقة مقتل زوجها لايوس واقترانها بولدها اوديب تخاطب الشمس التي انزلت بهم الفواجع بدخول قدموس تلك البلاد فتقول : « وانت التي بين النجوم تخططين الطريق في السماء ، انت المعتلية مركبة من ذهب ايتها الشمس التي تجعلين خيولك الراكضة تطوف بالشعلة حول العالم ، اي شعاع تعاسة ارسلته على (طيبة) يوم دخل قدموس هذه الارض بعد ان غادر ساحل فينيقيا البحري» . (اشعار ٤٠٦ و ٤١١) .

---

(١) عادة ما تزال عند بعض النساء اللبنانيات في مناسبة فاجعة .

الهجرة الفينيقية الاولى : اترووريا ومدنها

اترووريا هي توسكانا الحالية ، في ايطاليا الوسطى ، امتدت في الماضي على طول شواطىء البحر الصوري . وانتشرت في سهول نهر « البو » حتّى بلغت شمالا سفوح جبال الالب . وكانت جزيرة البا والجهة الشرقية من جزيرة كورسيكا في نطاق الدولة الاترورية .

وامتد الاتروسك في المتوسط الى ما وراء اعمدة هرقول ، بعد ان احتلوا كورسيكا وسردينيا وجزر الباليار وانشأوا جاليات في سردينيا .

وقد زالت اليوم ، بفضل الآثار المكتشفة ، الشكوك التي قامت حول امتداد ملك الاتروسك الى مقاطعة كامبانيا ، في جنوبي ايطاليا ، بعد سيطرتهم على مقاطعة اللاسيوم سنة ٦٥٠ .

وقد بلغت اترووريا اوجها في القرن السابع والسادس ق.م. في عهد حكم ابنائها على رومة (١) . وكانت مؤلفة من مجموعات متحدة في ما بينها ، اهمها : كايرى المعروفة اليوم باسم سرفترى ، وهي تقع على اربعين كيلومتراً من رومة . وقد اشتهرت كمركز للصياغة . وقامت فيها مدافن على مساحة ٣٥٠ هكتاراً . وكانت حرمة الاتروسك لامواتهم تحملهم على نحت مدافنهم في الصخر في حين كانوا يبنون هياكلهم وبيوتهم بالخشب والقرميد . ومن اجمل الاضرحة التي شيدت فيها ضريح لا يزال معروضاً في متحف جوليا في رومة .

— تركوينيا ، عاصمة الصوريين وموطن تركونيو القديم خامس ملوك رومة (تولى الحكم وهو في الاربعين من سنة ٦١٦ الى ٥٧٩ ق.م.) وهي تقع قرب مرفأ شيفيتافيكيا .

---

(١) اسرة تركونيو : تركونيو القديم ، وسرفيو تولبو وتركونيو الرائع .

– فييس ، على ٢٠ كلم من رومة تمتد الى نهر التيبر وتشمل قمة الفاتيكان . وقد اشتهرت بجناتها وقصورها واقنيتها . وقد نشأت روما في ظلها .

– مرزابتو المعروفة ببومببي الاتروسك .

البحر الصوري

اسم الاتروسك اطلقه الرومان على الشعب المقيم في المناطق المذكورة، اما الاغريق فكانوا يسمونه «الصوري»، واطلق اسم الصوري كذلك على البحر المجاور لبلاد الاتروسك ومستعمراتها بعد ان طرد الصوريون «السرد» من شواطىء البحر الذي كان الى ذلك العهد يُعرف باسمهم .

ويعتقد بعض العلماء ان تاريخ الاتروسك يرقى الى الالف الثاني ق.م. واتسع ملكهم على الايام حتى شمل توسكانا فاصبح مركز امجاد العلوم الدينية والعسكرية وازدهار الصناعة والتجارة . ومن سلالة الاتروسك في توسكانا نبغ اعلام كثر منهم دانته وبترارك وليوناردو وميكالنجلو وغاليليو وجيوتو . وقد انتقل ارث حضارة الاتروسك الى عصر النهضة الايطالية في توسكانا .

الحكم

كان الحكم في اتروريا على غرار الحكم في فينيقيا أي حكماً اتحادياً. لقد قام على رأس كل ١٢ مدينة من مدنها ملك ينتخبه النبلاء وكان ابرز هذه التجمعات تجمع توسكانا وعاصمتها تركونيبيا .

وكان في اتروريا مجلس يضم مندوبين عن التجمعات وينظر ويقرر في الشؤون التي تهم الدولة باسرها وكان هذا المجلس ينتخب الحبر الاعظم .

والديانة كذلك كانت تشبه الى حد بعيد الديانة في فينيقيا عبادة وممارسة . وكان الرؤساء الدينيون يشتركون في الحياة السياسية اشتراكاً فعّالاً فكان الكاهن صاحب السلطة المدنية الاعلى .

رومة

وقد أخذ الرومان الكثير من شعائر الاتروسك الدينية(١): تبنّوا آلهتهم وثالوثهم فغيّروا الاسماء وتبنّوا عيد قطاف العنب واسطورة الجن والاعتقاد بالجحيم والروزنامة القمرية . حتى ان تمثال الذئبة ، رمز رومة ، هو من صنع الاتروسك في القرن السادس ق.م. ، واسم رومة نفسه من اصل اتروسكي .

ولقن الاتروسك الرومان فن الحرب واساليب التكتل واستعمال المركبات وتسليح المشاة بالرماح كما لقنوهم طرق الحياة المرفهة في الاكل والشراب واللباس وبناء المساكن والهياكل والمباريات والاحتفالات .

ولما قويت رومة ثارت على الاتروسك وحاربتهم . ويعود سبب ازدهار رومة الاول الى اختفاء مدينة فييس .

الفنون والصناعات والعلوم

كان الاتروسك ماهرين في الصناعة . وقد أخذوا الحديد من جزيرة ألبا وصنعوا النحاس من مزيج الحديد ومعادن اخرى كالتوتيا والقصدير . واحتلوا جزر كاستيريد في الجنوب الغربي من بريطانيا . وصكوا العملة من النحاس وكذلك العيارات والموازين .

وكانوا ماهرين في الهندسة وتفوقوا في بناء الجسور وتشييد الهياكل العظيمة والاشغال المائية . وكذلك في شؤون الزراعة والموسيقى ، ولا سيما المزمار ، وفي التصوير .

وكانوا على علم واسع بالطب وتحضير الادوية . وكان للادب عندهم شأن كبير وقد تفننوا في الرتب الدينية .

---

(١) شعائر الكبيروس التي كانت شائعة في جزيرة لمنوس جيء بها الى روما . ومعروف ان جالية صورية كانت تقيم في الجزيرة نقلت هذه الشعائر الى رومة .

الاتروسك احفاد قدموس في ايطاليا

ظن هيرودوتس ان الاتروسك جاؤوا من ليديا . لكن ظنه هذا لا يستند الى اساس ، اذ الآثار المكتشفة حتى اليوم لا تدل على ان هجرة ما حصلت من ليديا . بينما تشير الدلائل ، كما اكد ارسطو وشيشرون، الى ان الاتروسك والقرطاجيين دولة واحدة وأصل واحد . انهم احفاد قدموس في ايطاليا .

الادلة

اولاً — دمارات يهجر مدينة كورنتيا الاغريقية ويأتي الى مدينة تركوينيا في اتروريا (توسكانا ايطاليا) .

لوكومان ابن دمارات وامرأته تناكيل يهجران تركوينيا ويأتيان الى رومة ولوكومان يتخذ اسم تركوينيوس .

تركوينيوس يُنتخب ملكاً على رومة . وقد انشأ فيها ميدان سباق الخيل والمصارعة . وكان يأتي بالمصارعين من اتروريا . وقد انتصر على قبائل السابين واللاتين . وهو الذي بنى اسوار رومة وبنى هيكلا لجوبيتر. وسلالة تركوينيوس هي العائلة المالكة .

ثانياً — ثارت رومة على تركوينيوس العظيم الذي لجأ الى الاتروسك في مدينة ستي .

ثالثاً — انتصر له بورسيتا ملك كلوزيوم ضد رومة واعاده الى الملك .

رابعاً — كان الرومان يسمونهم « اتروسك » . اما الاغريق فكانوا يسمونهم « صوريين » .

خامساً — كان البحر الصوري المنبسط بين ايطاليا وجزائر سردينيا وكورسيكا يدعى بحر السرد ، وهم قوم تجّار كانوا يحتلون جزراً في ذلك البحر وقد عرف باسمهم . ثم حاربهم الاتروسك وهزموهم واطلقوا على ذلك البحر اسمهم فصار يدعى البحر الصوري ولا يزال الى اليوم .

سادساً — اظهرت الحفريات ان حروف الهجاء التي استعملها الاتروسك هي حروف الهجاء الفينيقية .

سابعاً — عندما زحف هنيبعل على ايطاليا واحتلها ثارت في مدن الاتروسك العاطفة الوطنية فاستقتلوا بحرارة واضطر الرومان الى تحصين مواقعهم هناك خشية انضمام الشعب الى هنيبعل .

ثامناً — عندما احتل هنيبعل بلاد ايطاليا سنة ٢١٨ ق.م. وكانت رومة اصبحت دولة قوية انحاز الاتروسك الصوريون الى هنيبعل حتى انهم صكوا النقود على رسم الفيلة التي جاء بها هنيبعل .

تاسعاً — كان الاتروسك دولة مرهوبة الجانب قال عنها تيت ليف ان صدى هيبتها كان يملأ البر والبحر على مدى سواحل ايطاليا الى جبال الالب الى مضيق صقلية . فلم يكن ، والحالة هذه ، من يجروء على احتلال توسكانا والفينيقيون انذاك يحتلون بلاد الاغريق .

عاشراً — في الحروب بين رومة وقرطاجة كان الاتروسك حلفاء القرطاجيين .

حادي عشر — كانت المدن الاتروسكية تتحد في اطار اتحادي « كونفدراسيون » كما كانت الحال في المدن الفينيقية . وكانت الديانة فيها ديانة فينيقية .

ثاني عشر — الصناعة والتفنن في الحجارة الكريمة وفي المرايات المصقولة والمزهريات وقطع السلاح والآنية الفضية كما هي في فينيقيا وكذلك فن البناء .

ثالث عشر — اشتهر الاتروسك انهم ملاّحون ماهرون كما كان ملاّحو فينيقيا .

قرطاجة

سيطرت المدن الفينيقية جبيل وصيدا وصور على شرقي البحــر المتوسط وجزره ، وما لبث الصوريون ان رموا بانظارهم الى القسم الغربي من المتوسط فاحتلوا بقعة فيه قرب تونس وبنوا فيها مدينة قرطاجة ولها اسطورة جميلة :

مات ملك صور وترك الملك لولديه بيغماليون واليسار وكانت اليسار زوجة رئيس الكهنة وهو ذو ثروة عظيمة .

فطمع اخوها بيغماليون بالثروة من جهة وبالاستئثار بالملك من جهة ثانية فقتل صهره رئيس الكهنة وصمم على الحاق زوجته اليسار به.

وقفت اليسار على ما تخبئه لها نية اخيها فجمعت ما امكنها من ثروة زوجها واستخلصت من مواطنيها الصوريين انصاراً . وفي ليل مدلهم السواد اقلعت خفية بالثروة والانصار من شاطىء صور الى عرض البحر باتجاه الغرب . فوصلت الى شاطىء تونس وكان على تلك البلاد ملك جبّار فزارته اليسار وطلبت منه بقعة صغيرة تنزل فيها مع رجالها . وكانت اليسار على جانب عظيم من الجمال فلم ير الملك بداً من اجابتها الى طلبها ، ولكنه اشترط ان لا تزيد البقعة عن مفرش جلد فدان . فرضيت اليسار ثم اسرّت الى انصارها ان يقطّعوا جلد الثور خيوطاً رفيعة مدتها طولاً وعرضاً حتى كان لها بقعة ذات مساحة كبيرة . فغضّ الملك الطرف عن هذه الحيلة واشترط عليها ان تقبل به زوجاً فوعدته بعد ان تُعنى ببناء المقام لانصارها .

هكذا بنيت قرطاجة .

وكانت اليسار قد اقسمت لزوجها انها لا ترضى غيره بعلاً وتنفيذاً لقسمها وتخلصاً من وعدها للملك بالزواج اقدمت على الانتحار . تلك

هي اسطورة اليسار .

ومهما يكن من امر تلك الاسطورة فالواقع ان صور بنت قرطاجة وذلك حوالي سنة ٨٠٠ ق.م. واثباتاً للرابطة التي كانت تربط قرطاجة بصور حرصت قرطاجة على تمكين تلك الصلة فكانت تُعنى كل سنة في عيد ملكارت اله صور فترسل اليها بعثة خاصة تحمل الهدايا الثمينة الى الوطن الام وتنقل الى الآباء عواطف البنين .

قرطاجه واليونان والرومان

كما سيطر ابناء جبيل وصور وصيدا على القسم الشرقي من البحر المتوسط ، هكذا سيطرت قرطاجة على القسم الغربي ، فبنت اسطولاً حربياً الى جانب اسطولها التجاري ، وانشأت جيشاً ضخماً ، عليه قوّاد بواسل ، فمدت سيطرتها على سواحل ايطاليا والجزر الى ان وقف اليونان في وجه القرطاجيين يدافعون عن جزيرة سرقوسه (سيراكوز)

وكان الحكم في قرطاجة (١) جمهورياً على غرار فينيقيا الوطن الام . وكان على رأس الجمهورية مجلس شيوخ من الاثرياء يتولى اثنان منهم الحكم .

في تلك الاثناء كانت رومة ، التي بُنيت بعد قرطاجة بنحو من نصف قرن (٧٥٤ ق.م.) قد اصبحت دولة قوية ، وتوصلت الى نشر لوائها على ايطاليا (٢٧٠ ق.م.) .

وما اتجهت بانظارها الى التوسع حتى رأت قرطاجة واقفة قبالتها على الشاطىء الغربي تسيطر على البحر باسطولها الضخم ، وتدل على البر بجيش مرهوب الجوانب .

وما كانت تلك القطعة من البحر المتوسط وسواحله لتتسع لدولتين كبيرتين تطمح كل منهما الى الفتح والاستعمار فغنمت رومة فرصة قتال بين اليونان والقرطاجيين في « سرقوسة » فدخلت الى جانب اليونان

(١) معناها قرية حديثة .

في حرب ضد قرطاجة سنة ٢٦٤ ق.م. فكان ذلك الاعتداء فاتحة الحروب المعروفة بالحروب الفينيقية (البونية) بين رومة وقرطاجة ، طيلة نحو من مئة سنة ، تخللتها فترات سلم ضئيلة (٢٦٤–١٤٦ ق.م.)

الحرب الاولى ابتدأت في صقلية وكان على رأس القوات القرطاجية القائد الشهير هميلكار برقة والد هنيبعل وقد دامت ثلاثاً وعشرين سنة كان النصر فيها سجالاً بين الفريقين حتى كانت الغلبة في النهاية لرومة ، فاضطر هميلكار الى اخلاء الجزيرة للرومانيين والرجوع الى قرطاجة (١)

هملكار

بعد ان اضطر هملكار الى اخلاء جزيرة صقلّية للرومان ، لم يتم على الضيم فجهّز حملة على اسبانيا لتستعيض قرطاجة فيها عما فقدته في صقلية ، وليكون الجيش القرطاجي في اسبانيا على اهبة الاستعداد لمهاجمة روما عند سنوح الفرصة .

وقبل قيامه على رأس الحملة ، ذهب هملكار الى الهيكل ليقدم ذبيحة الى الاله ويسأله النصر ، وقد اصطحب ابنه هنيبعل وهو في التاسعة من عمره . فلما وقف هملكار يضرع الى الآلهة في طلب النصر ، هزّ هذا المشهد هنيبعل فارتمى على عنق ابيه يتوسل اليه ان يصطحبه الى ساحة الحرب في اسبانيا .

فحمل هملكار ابنه بين ذراعيه ورفعه الى تمثال الاله ، وفي ذلك الموقف الرهيب اقسم الصبي هنيبعل ان يحتفظ في قلبه ببغض روما ما دام حيّاً وان يثأر لابيه ووطنه .

(١) الحروب البونية (الفينيقية)
الاولى : ٢٦٤ — ٢٤١ — انتصر الرومان في البحر وانكسروا في افريقيا . استعادوا قوتهم في صقلية حيث تمركزوا . قرطاجة احتلت اسبانيا .
الثانية : ٢١٩ — ٢٠٢ — هنيبعل
الثالثة : ١٤٧ — ١٤٦ — سقوط قرطاجة .

هنيبعل

لم يكن هنيبعل بلغ الخامسة والعشرين حين عينته قرطاجة قائداً على جيش عهدت اليه بالسير به لمحاربة روما في عقر دارها .

مشى هنيبعل على رأس الجيش تحدو به الآمال الكبار ، وتغلي في صدره مراجل البر باليمين ومطامح الاخذ بالثأر .

اتجه هنيبعل الى جنوبي فرنسا وقطع نهر الرون في اواخر آب سنة ٢١٨ ، ثم قطع جبال الالب خلال خمسة عشر يوماً ومعه الفيلة ، فبلغ الارض الايطالية في اواخر ايلول من السنة ذاتها على رأس جيش لا يقل عن ٢٦٠٠٠ مقاتل فيه ٢١ فيلاً .

التقى هنيبعل بطلائع الجيوش الرومانية فكان بينه وبينها مناوشة اسفرت عن تراجع الجيش الروماني . وواصل هنيبعل زحفه حتى بلغ نهر « البو » فقطعه وقطع الرومان من جهتهم نهر « ترابي » وخاضوا الموقعة وظهرهم الى النهر المذكور . وكان ذلك في كانون الثاني سنة ٢١٦ في يوم ثلجي عاصف .

انتصاره على الرومان

وضع هنيبعل خطة دلت على نبوغ قلما شهدته ساحات الحروب قبله : جعل قوة جيشه في الجناحين وترك في القلب قوة هزيلة . فما اصطلت نيران المعركة حتى تمكن الرومان من اختراق قلب الجيش القرطاجي بسهولة زينت لهم الحلم بالغلبة ، على ما تعودوا . وبينما هم يمدون اليد للقبض على النصر اذا بجناحي الجيش القرطاجي يتحركان وفي مقدمتهما الفيلة فيطبقان على الكتائب الرومانية اطباق فكي الكماشة ، فيستولي الذهول على الكتائب الجبارة ، ولا يلبث الذهول ان يتحول الى ذعر في صفوف الرومان وهم شراذم تتهالك في الهزيمة امام جيوش القرطاجيين .

راع روما ذلك الانكسار تصاب به للمرة الاولى فيالقها المظفرة ،

فجهز الرومان جيشاً جديداً سلمت قيادته الى « فلامينيوس » ، فالتقى الجيشان ووقع الاصطدام بينهما في ٢٢ حزيران سنة ٢١٦ قرب بحيرة « ترازيمين » ، فما انتهت المعركة الا والجيش الروماني اكداس جرحى وقتلى ، بينهم القائد « فلامينيوس » وعليها تشرق ألوية قرطاجة الظافرة .

وادهش الرومان ان القائد المنتصر اطلق سراح الاسرى الرومان ، وما استبقاهم رهائن ولا طلب عنهم دية ، كما جرت به عادات ذلك الزمان ، بل اعلن انه ما جاء ليذل الرومان بل جاء يحمل الحرية والاستقلال الى الشعوب الايطالية .

هال روما ان يسطو عليها في عقر دارها جيش قرطاجة ، فوطدت العزم على التضحية بما هان وعز في سبيل النصر ، وهبّ خطباؤها يستفزون الشعب ويثيرونه صائحين : « هنيبعل على الابواب» فذهبت صرختهم مثلا في الخطر الداهم .

اندفع الشعب في ذلك التيار الصاخب وتهافت الى حمل السلاح فكان لروما في برهة قصيرة جيش جديد ثالث يزيد على الثمانين الف مقاتل . فالتقى الجيشان قرب مدينة « كان » على ساحل البحر وهنالك دارت رحى موقعة ثالثة كانت على الرومان شراً من الاولين . فمزق هنيبعل جيوشهم تمزيقاً ، مستعملاً في هذه الموقعة الخطة ذاتها التي اولته النصر في الموقعة الاولى . فقتل من الرومان ٤٥٠٠٠ وأسر ٢٠٠٠ وانهزم الباقون (٢١١—٢١٦) .

حملة رومانية على قرطاجة

كان في روما عدا القواد والجنود — حكماء مجربون وسياسيون محنكون رأوا ان ما اتاه هنيبعل من المعجزات يدل على انه قائد لا يغلب. فاتجهوا في مقاومته الى ناحية اخرى : تركت روما هنيبعل وجيشه في اراضيها طيلة اربع عشرة سنة . وتساءل المؤرخون والخبراء العسكريون عن الاسباب التي حالت دون مواصلة هنيبعل الزحف والقضاء على روما بدلاً من ان يترك لها الوقت الكافي للاستعداد ، حتى تمكنت من

تجهيز جيش ارسلته الى افريقيا لمهاجمة قرطاجة في ارضها كما فعلت قرطاجة اذ ارسلت جيشاً الى ايطاليا يهاجم روما على ابوابها . وعينت روما القائد « سيبيون » على رأس تلك الحملة . عبر « سيبيون » بجيشه الى الضفة المقابلة واخذ قرطاجة على غرة ، وما لبث ان لاحت هنالك ظواهر الغلبة للجيش الروماني فاضطربت مجالس قرطاجة وبادرت الى استدعاء هنيبعل من ايطاليا . فلبى الدعوة عائداً الى وطنه .

انكسار هنيبعل

تعود هنيبعل ان يرى النصر معقوداً بألويته على جيوش روما وقوادها فلم يحفل بجيش خصمه ، ولا حسب له حساباً ، فنازله في موقعة « زاما » مغامراً ، فخانه الحظ هذه المرة وكانت الغلبة للقائد الروماني (٢٠٢) .

طلب المعونة من الوطن الام

خرج هنيبعل من الموقعة مضعضعاً كما خرجت منها قرطاجة مغلوبة على سلطانها . ودامت الحالة بضع سنين ، رأى هنيبعل فيها ان لا سبيل الى نهوض قرطاجة الا اذا جاءتها مساعدة من الخارج . فاتجه الى الوطن الاصلي يسأل الخؤولة والأعمام في لبنان عوناً على روما . فتبين له ان الدهر قد تغيّر عليهم كما تغيّر على احفادهم في قرطاجة. وانهم يعجزون عن تأدية أية مساعدة ومعونة . فولى هنيبعل وجهه شطر اليونان فقصد الى انطيوخوس ملك ايونيا (قرب ازمير) فلم يظفر منه بوعد، وذهب الى الملك بروزياس في ملكه القائم على البحر الاسود فلم يلق عنده نجاحاً .

انتحار هنيبعل

تجاه ذلك الواقع المفجع رأى هنيبعل انه لم يبق امامه الا التضحية القصوى وقد اعدّ لها سماً كان يحمله دائماً فشرب السم ومات منتحرا (٢٤٧–١٨٢ ق.م.) وهكذا قضى هنيبعل الكبير .

القائد الاكبر

يعتقد الخبراء العسكريون انه اذا لم يكن هنيبعل اكبر قائد انجبه العالم فهو في مقدمة اكبر قواده امثال يوليوس قيصروالاسكندر وفردريك الكبير ونابليون الاول .

على ان قرطاجة ما لبثت ان ضمدت جراحها وراحت تحاول ان تنهض من مصرعها . فلفتت افاقتها نظر الرومان فقام مفكروهم واصحاب الرأي فيهم يذكرون ويحذرون حتى بلغ بخطيبهم المشهور كاتون عضو مجلس الشيوخ ان جعل لكل خطبة كان يلقيها هذه اللازمة : « لا بدّ من سحق قرطاجة » .

عداء روما لقرطاجة

وما زالت تلك العداوة تتزايد حتى قررت روما معالجة القرطاجيين بالحرب قبل ان يتسنى لهم استعادة القوة . فجهزت حملة ارسلتها ضد قرطاجة . وبعد ان دارت الحرب سجالاً بين الفريقين مال النصر الى الألوية الرومانية ، ورأى القرطاجيون انه لم يعد لهم امل يرجى بالظفر . وقد خيرهم الرومان بين الاستسلام والفناء فأبى على قرطاجة الجبروت ان تهون بعد سؤدد ، واستنكر ابناء صور احفاد فينيقيا ان يُذلوا لفاتح فاختاروا لقرطاجة مصير امها صور .

وقد ضاهى تحمس النساء شمم الرجال وحاربوا حتى آخر رجل وآخر امرأة . فما فتح الرومان مدينة بل استلموها رمما وانقاضا .

هكذا اندثرت قرطاجة. هكذا طويت صفحة الجبابرة (١٤٦ق.م.).

في الوقت ذاته كانت اركان فينيقيا في الشرق تتداعى مملكة اثر مملكة .

الفرس والاسكندر

الفرس

شعب هندواوروبي زحف على بابل بقيادة قورش واحتلها فزالت مملكة الكلدان البابليين الحديثين وحلّ الفرس محلهم في المشرق (٥٥٧–٥٢٩) وخلف قمبيز اباه قوروش (٥٢٩–٥٢٢) وسأل اللبنانيين فبنوا له اسطولا . وزحف على مصر فاحتلها . وفكّر بالاستيلاء على قرطاجة وطلب عون الاسطول اللبناني عليها فأبى اللبنانيون مساعدته على احفادهم القرطاجيين فرجع عن فكرته . وقام بعدهما داريوس الاول فوسّع رحاب الملك ومدّ رواق الامبراطورية من الشرق الى الغرب (١) .

احسن الفرس الصلة بالمدن اللبنانية فكان ملكهم يجلس ملك صيدون عن يمينه وملك صور عن شماله .

وفي الحروب التي اشتهرت بالحروب المادية ساعدت الاساطيل اللبنانية الفرس في محاربة الاغريق .

وطرأ تغيير على سياسة الفرس عهد ارتحشت الثالث في حسن المعاملة

---

(١) ملوك فارس
قورش (٥٥٧ – ٥٢٩)
ابنه قمبيز (٥٢٩ – ٥٢٢)
داريوس الاول (٥٢١ – ٤٨٥)
احشورش الاول (٤٨٥ – ٤٦٤)
ارتحشتا الاول (٤٦٤ – ٤٢٤)
ارتحشتا الثاني (٤٢٤ – ٣٥٨)
ارتحشتا الثالث (٣٥٨ – ٣٣٥)
داريوس الثالث (٣٣٥ – ٣٣٠)

مع لبنان فثارت مدنه وانتهت الثورة الى مقاومة صيدا مقاومة بطولية فتحصن اهلها في بيوتهم . ولما خانهم الحظ في الصمود حرقوا المدينة باهلها لكي لا يستسلمون . ودامت الاضطرابات حتى قدوم الاسكندر .

الاسكندر

خرج الاسكندر من مقدونيا وقطع البحر الى آسيا وواصل الزحف حتى بلغ مضيق ايسوس ، شمالي الاسكندرونة حيث التقى جيوش داريوس ونشبت معركة هائلة انتصر فيها الاسكندر (٣٣٣) وواصل الزحف على الشواطىء لا يجد فيها مقاومة حتى بلغ صور فوقفت في وجهه فألقى عليها حصاراً استبسل فيه الصوريون طوال ثمانية اشهر تمكن الاسكندر في نهايتها من فتح المدينة فقتل وشرد وسبى من اهلها ثلاثين الفاً .

وواصل الاسكندر الزحف فاحتل مصر واوغل في الزحف حتى الهند فاستولى عليها ورجع الى بابل ليجعلها عاصمة امبراطوريته الشرقية . وما كاد يعتز بتلك الانتصارات حتى وافته المنية في بابل (٣٢٣) واقتسم قواده الامبراطورية فاصاب انليفونوس اوروبا ، وبطليموس افريقيا ، وسلوقوس آسيا ، وبنى عاصمة له مدينة انطاكية (٣١٢).

ودام ملك السلوقيين حتى الفتح الروماني الذي استمر حوالي قرنين ونصف، أي حتى الفتح العربي .

الحضارة اليونانية في لبنان

بدأ تطعيم فينيقيا بالحضارة اليونانية بوصول الاسكندر وتجنيد السكان من مختلف الجنسيات ، ولا سيما الفينيقيين .

وتابع هذه الحركة السلوقيون ، على غرار الاسكندر ، فاصبحت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في لبنان . وقد نبغ فيها لبنانيون كثر امثال انتيباتر الصيدوني ، في الشعر ، وفيلون الجبيلي ، في التاريخ ،

وزينون ، في الفلسفة . وقد اسهم اللبنانيون بقدر كبير في تطوير الفكر اليوناني . فمؤسس المدرسة الرواقية ، زينون ، لبناني الأصل ، لكنه ولد في قبرص . وقد برع في شرح نظريات افلاطون حول السلم والمثالية . ونحا نحوه بيوتس الصيدوني ، وقاد المدرسة المشائية ديودورس الصوري والمدرسة الابيقورية زينون الثاني فكان اللبنانيون قادة اكثر المذاهب الفلسفية التي اشتهر بها الاغريق .

وفي حقل العلوم برز مارينوس الصوري مؤسس علم الجغرافية الرياضية . اما الذين لمعوا في قرطاجة ، ابنة صور ، فعددهم يكاد لا يحصى منهم تيرنس الشاعر الهزلي والقديس اغسطينوس اشهر آباء الكنيسة .

لبنان واليونان

شاء فيكتور بيرار في كتابه « الفينيقيون والاوديسة» ان يتتبع آثار تيلماك وآثار ابيه عوليس في تطوافهما بين جزيرة وجزيرة وبين بلد وبلد ، على ما ورد في الاوديسة ، فركب البحر وزار تلك الجزر والمدن واهتدى الى الاماكن التي وردت في الاوديسة ، فتبين ان هوميروس أخذ كل معلوماته عن الفينيقيين .

قدموس معلم الاغريق

يبدأ تاريخ اثينه حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م. الحضارة حملها للاتين قدموس الفينيقي (ودانورس المصري) حوالي سنة ١٥٢٠ وسنة ١٥٠٠ ق.م. (مقدمة الاوديسة) . وكانت فينيقيا قد علمت جزيرة كريت .

الجغرافية

كان الاغريق يسمون البحر الداخلي قسم البحر المتوسط الى حدود جزائرهم . ويسمون البحر الخارجي القسم الذي يتجاوز جزائرهم الى الغرب .

ما تمكن هوميروس من دقة الوصف للبلدان الواقعة في اطار البحر الداخلي او اطار البحر الخارجي الا لأنه استمد علمه ومعرفته من الفينيقيين. فالفينيقيون الذين فتحوا ليبيا وايبريا (اسبانيا والبرتغال)كانوا معلميه.

وذكر سترابون ان الصوريين بلغوا البحار الغربية وقطعوا اعمدة هرقول (جبل طارق) واسسوا المدن ابعد منها ، وذلك بعد حرب طرواده، وقد احتلوا وعمّروا احسن ما في تلك المناطق من شواطىء . ومنهم اقتبس هوميروس معارفه عن الغرب .

ان اسفار عوليس تجري على شواطىء البحر ومضايقه لجهة ايطاليا واسبانيا . وقد اعطى هوميروس عن تلك المناطق ادقّ الاوصاف . وقد صرّح بان جزيرة (ايتاك) التي نزل فيها عوليس ، كانت آخر ارض يعرفها الآخيون ويأتي بعدها بحر الغرب المتوسط الممتلىء بالكواسر والوحوش والمسوخ وآلهات تتأكلها الغيرة الى آخر ما هنالك من غرائب لم تقع عليها عين الشاعر ولا عيون مواطنيه ، فتكون الاسفار الفينيقية هي التي اخبرته عن تلك المناطق بدقة .

الاساطير

كان عند الكلدان في اقدم العهود روايتان تناقلتهما الشعوب طوال الاعصر هما رواية جلجامش ورواية اسفار عشتار الى بلاد الاموات .

وكانت فينيقيا هي الواسطة بين هوميروس وبين الاساطير .

فالنشيد الرابع من الاوديسه اقتبس من حكايات مصرية. ولا شك ان فينيقيا كانت هي الواسطة ايضاً بين مصر وهوميروس في نقل تلك الحكايات .

وهركول الرومان مأخوذ عن هركليس اليونان المأخوذ بدوره عن ملقرت صور .

وفي اسفار هراكلس في البحر الغربي التي تناقلتها اساطير الاغريق ومنهم الى الرومان ورد اسم هركول . لكن الاقدمين كانوا يعرفون ان هذا البطل هو ملقرت صور وهو الذي كان قبل عوليس قد طاف تلك الانحاء وبنى المراكب في المضيق الذي ينفتح على المحيط الاطلسي واطلق على المضيق اسم اعمدة هركول .

يعرف الاغريق ان حروف الهجاء جاءت من فينيقيا وان اباءهم الاقدمين اخذوها عن قدموس . هذه الحقيقة التي رددتها الاعصر القديمة اثبتتها الحفريات الحديثة . ودلت على ان الكتابة بحروف الهجاء متقدمة في القرن الرابع عشر بل في الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر ق.م. وهذه التواريخ هي التي كان يذكرها الاقدمون عن وقت وصول

قدموس الى بلاد اليونان .

وبعد هذه المعلومات يرد التساؤل هل ان منطقة ايوليا عهد هوميروس كانت تعرف القراءة والكتابة بعد اربعة قرون من انتشار الحروف الهجائية في مدن فينيقيا بل بعد ستة او سبعة قرون من التجربات الاولى في هذه الكتابة الجديدة . اصبح هذا التساؤل كالتساؤل هل بعد مضي قرنين على غوتنبرغ (مكتشف الطباعة) تمكن كورنيل وراسين من طبع مسرحياتهم ؟

قال ارسطو انه لم يبق لنا شيء من الشعراء الذين سبقوا هوميروس ولكن لا شك انه سبقه الكثيرون منهم ، اذ الفن الرفيع لا يخلق فجأة بل لا بدّ ان تتقدمه محاولات عديدة .

ان الخطأ الذي وقع فيه من تقدمنا كان اعتقادهم ان فجر الانسانية المفكرة الخلاّقة يبتدىء مع هوميروس ومع التوراة كأنهما فلتة نبوغ مفاجىء . لكن الحفريات الحديثة اثبتت ان قبل هوميروس وقبل التوراة تعاقبت اجيال طويلة ظهر فيها شعراء وفنّانون ابدعوا روائع تسلسلت خلال الاعصر حتى وصلت الى العبرانيين والى الاغريق . فكانت بلاد الكلدان ومصر وفينيقيا وبابل وطيبة وصيدا المعين الفياض الذي اغترف منه العبرانيون والاغريق كما اغترف الغرب من اورشليم واثينا وروما .

والخلاصة، انه لا يوجد نبوغ مفاجىء وان تلك الروائع عند الاغريق والرومان وفي مقدمتها الالياذة والاوديسه نسجت على منوال من سبقها من شعراء وفنانين وقد نقل الفينيقيون تلك الروائع الى مدن ايونيا الاغريقية .

يقول جبريال شارم في رحلته الى سوريا :

« ان الفضل في ايجاد تلك الثورة الادبية التي غيّرت وجه العالم فاقامت على اطلال ذلك التمدن الحقير الذي كان مبنياً في الشرق على قواعد الانانية ومبادىء الاوتوقراطية والروح العسكرية تمدناً آخر اجل واسمى فاتحاً باب الرقي على مصراعيه للتجارة العامة وللمبادىء الحرة انما مرجعه الى فينيقيا . فهي صاحبة الفضل بايجاد هذا التمدن

الرحب الذي منه تكوّن الغرب الحالي» .

ذلك هو الفضل الاكبر الذي لفينيقيا على العالم، وقد جهل العالم فضلها ردحاً من الدهر وهو يجعل لتلك الامة الكريمة المقام الاول بين الشعوب التي كان لها تأثير قاطع في تكييف الهيئة الاجتماعية .

ان ذلك الشعب الذي ظل فضله مجهولاً دهراً طويلا ثم ظهر اخيراً للعلم الحديث فملأ تاريخه ، على فقره ، الفراغ الغريب بين الشرق القديم والغرب الحديث . ان هو الا تلك الامة الصغيرة الفينيقية التي يرجع اليها الفضل ومنتهى الشرف في انها كانت همزة الوصل بين ذينك العالمين .

وقد ملك الفينيقيون كل السبل التي كانت بين الهند وبلاد الكلدان والعرب وبلاد القوقاز وبين الغرب .

ولما نزلوا في بلاد اليونان وجدوا السكان اقرب الى العصابات المتوحشة منهم الى الشعوب المتمدنة فعلموهم اللغات والصناعة والكتابة والزراعة وفن الحساب، وقد تعرّف اليونان الى كثير من الاختراعات التي نشأت في الشرق ثم هذبها وحسنها ذكاء الفينيقيين بل نبوغهم في وضع الاختراع قيد الاستعمال . وقد اخذ اليونان عن الفينيقيين كل الكلمات الدالة على تلك الاختراعات والحاجيات .

وخلاصة القول، ان اليونان مدينون بحضارتهم للفينيقيين وان ما لتلك الحضارة والعلوم من فضل على البشرية يرجع اصله الى فينيقيا لان اليونان ما كانوا الا تلاميذ لهم، وقد لا يكون اضاء مصباح اليونانية لولا شعلة تلك الانوار والتعاليم (١) .

وقد كتب ارنست كورسيوس في تاريخه عن اليونان فصلاً شائقاً عن تفوق الفينيقيين وعن اخذ اليونان عنهم جاء فيه :

«لا ينكر على اليونان انهم توصلوا الى اخذ الحضارة عن شعب

(١) جبريال شارم ، رحلة الى سوريا : ص ٦٩ وما يليها .

ارقى منهم (يريد الفينيقيين) وانهم تمكنوا بذكائهم ان يسرقوا منه سر تفوقه» (١) .

(١) ارنست كورسيوس ، «تاريخ اليونان» ج ١ ص ٤٩

فينيقيا تسهم في حضارة الانسان

اللبناني والبحر

منذ الازل لاحظ الانسان ان الخشب يطفو على سطح الماء ولا يغرق فيه، فكان على ضفة نهر او بحر هادىء يداعب المياه الساكنة، على ظهر خشبة ، او على ضرع عائم . اما على شاطىء البحار ، فكان الانسان يقف واجفاً ينظر برهة الى الامواج المتلاطمة ولا يجروء على اقتحامها. وظلت تلك حالته الى ان وقف اللبناني على احد شواطئه واخذ خشباً من ارزه ، وبنى زورقاً دق فيه سارية ، ونشر شراعاً ، وركّز مجذافاً ، وانطلق في عرض البحر لا يعبأ باخطاره (١) . وما لبث ان اصبح الزورق مركباً ، والمركب سفينة ، والسفن اساطيل .

ولم يستأثر اللبناني باختراعه فبنى اساطيل للدول .

وعلّم الشعوب فن بناء السفن ، فبنى اليونان اساطيلهم ، وبنى الرومان اساطيلهم وراحوا بعدها يحاربون بها اساطيل لبنان واساطيل جالياته في اوروبا وافريقيا .

تلك الآفاق الواسعة التي فتحها الملاّح اللبناني في شقّه الطرق البحرية غيّرت وجه العالم القديم ، فاصبحت السفينة صلة بين الشعوب في التعامل بالتجارة ، والتفاعـــل في الحضارة ، فكان فتـــح البحار ، على يد اللبنانيين ، اساساً في رقي الانسانية .

الاسطول اللبناني

أنشأ اللبناني اسطولاً تجارياً ، وبنى اسطولاً حربياً .

---

(١) قبل الفينيقيين عرف المصريون والاكريتيون الملاحة في المتوسط وقد صنعت مراكبهم من اوراق البردى الكبيرة فكانت تعجز عن الخوض في المحيط، لذلك كان اللجوء الى اخشاب لبنان ، ولا سيما الارز ، لبناء السفن القادرة على مجابهة الامواج .

السفينة التجارية هي مركب كبير مرفوع الطرفين وعلى مقدمته رسم يمثل رأس حصان أو رأس غزال . طولها يتراوح بين ١٥ و٢٠ متراً . على المركب صف او صفان للمجذفين . في وسطه صارية عالية ينتشر منها الشراع . وكان شكل المركب شكل هلال . مؤخرته مرفوعة كعنق الاوز . مقدمته تتسع لملاّح مراقب وفيها صارية صغيرة تحمل شراعاً مربعاً للمساعدة في تدويره دفة المركب (١) .

السفينة الحربية : المؤخرة فيها معقوفة والمقدمة بشكل مهماز فيها صفان للمجذفين .

كانت السفينة الحربية تتألف من ثلاث طبقات والسفينة الكبرى تصل الى ستة طوابق . طولها مئة ذراع . يقوم عليها نحو من ثلاثين ملاّحاً . وكانت حمولتها تبلغ حوالي خمسين طناً .

في ذلك العهد كان الاسطول اللبناني سيّد البحار . وقد اطلق مسبرو على اللبنانيين الاقدمين لقب « انكليز العالم القديم » وعلى قادة الاسطول لقب « امراء البحر » .

احتلال الجزر والشواطىء

في المحاولات الاولى التي قام بها اللبناني لاقتحام البحر لم يكن يبتعد كثيراً عن شواطئه ، فأنشأ مرفأ في جبيل ومرفأ في بيروت ومرفأ في صيدا ومرفأ في صور .

وبعد ان اطمأن البحّارة اللبنانيون الى سيطرتهم على البحر ، توغلوا فيه الى الجزر وشواطىء اليابسة فاحتلوا ارواد وقبرس واكريت ومالطة ورودوس وموانىء مصر وليبيا .

وضاقت ارض لبنان بسكانه وبطموحهم ، وشاقتهم الآفاق البعيدة ،

(١) يعتقد كونتينو ان مثال السفينة التجارية الفينيقية منقوش على ناووس (اكتشف في صيدا سنة ١٩١٤ وينطبق وصفه على رسم منقوش في احد قبور طيبه (١٥٠٠ ق.م.) يمثل سفينة ترشيش التي كانت تستعمل في رحلات بعيدة . وقد وجدت رسوم لهذه السفينة على عملة مصكوكة في عهد هليوغابال اكتشفت في جبيل .

فاقدموا على الهجرة .

هجرة اولى خرجت من لبنان باتجاه الجزر والبلاد الافريقية واللاتينية ، فبنت مملكة « الاتروسك » . وهجرة ثانية اتجهت الى المغرب الافريقي فبنت امبراطورية قرطاجة .

القوافل اللبنانية

لم يكتف اللبناني بالسيطرة على البحر جسراً بين آسيا وافريقيا واوروبا ، بل استفزه التطواف الى ارتياد اليابسة في قوافل تقطع البرور وتطوي الصحاري :

قافلة على مجرى الليطاني الى البقاع ومنه الى دمشق .

طريق شمالي سوريا الى مضيق كيليكيا وآسيا الصغرى .

قافلة الى البلاد العربية حتى البحر الاحمر .

قافلة الى ما بين النهرين حتى الخليج .

قافلة من العراق شرقاً الى بلاد فارس ومنها الى الهند . مروراً بافغانستان وباكستان ، الى الصين حتى المحيط الهادىء .

بالاضافة الى المواصلات البحرية بين لبنان ومصر ، كانت طريق برية تصل بين البلدين في صحراء سيناء .

كانت السفن اللبنانية تجوب البحر المتوسط فتؤمن المواصلات بين فينيقية ومستعمراتها التي ما لبثت ان امتدت من الدلتا في مصر حتى شواطىء كيليكية وبلاد الاغريق وبعض بلدان محيطة بالمتوسط ، وما اسم « المتوسط » الا دلالة على توسطه مناطق النفوذ الفينيقي . فقد كان هذا البحر على حق « بحيرة فينيقية » .

قوافل لبنان عبّدت طرق البر في الاقطار المشرقية ، كما فتحت اساطيله طرق البحر ، فقرّبت الابعاد واحكمت الصلات ، فلم تقتصر الروابط على التعامل التجاري في تبادل السلع والبضائع ، بل تجاوزته الى التفاعل بين الشعوب على اختلاف حضاراتها ، فارسى ذلك التفاعل العالم القديم على اسس جديدة في تطوير الانسانية ورقيها .

وقد ساعد الفينيقيين في وثبتهم هذه ان مصر واكريت كانتا في حالة انحطاط وكان الحثيون في تقهقر مستمر . فاثبت الفينيقيون وجودهم كقوة بحرية في وجه اشور التي كانت ترنو الى المتوسط وتطمع فيه .

طواف البحارة الفينيقيين

خرجوا من البحر الاحمر الى المحيط الهندي وداروا حول افريقيا ورجعوا الى مصر من جبل طارق بعد ثلاث سنوات .

وذكر هيرودوتس ان الفينيقيين زعموا انهم عندما داروا حول افريقيا وجدوا ان الشمس تشرق عن يمينهم بدلاً من ان تشرق عن يسارهم كما كانت قبلاً .

والمعروف اليوم ان هذا التغيير في مشرق الشمس في تلك النطقة هو الحقيقة .

وكانت القوافل اللبنانية تحمل تجارتها الى ما بين النهرين وما بعدها حتى الهند .

امير البحر حنـون

ولعل من اهم مغامرات الانسان في البحر تلك الرحلة المدهشة التي قام بها حنون ورفاقه في القرن السادس قبل المسيح ، فاقدموا على الطواف في سفنهم حول القارة الافريقية (١) .

انطلق حنون ورجاله من احدى موانىء البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح في اقصى جنوبي القارة .

ومن رأس الرجاء الصالح اتجه غرباً ، نحو المحيط ، لا يبتعد عن الشط حتى بلغ مضيق جبل طارق بين اسبانيا ومراكش .

وهناك دخل المضيق الى البحر المتوسط ، وسار في محاذاة الشواطىء من الجزائر الى قرطاجة وليبيا ، وعاد الى نقطة الانطلاق في ميناء

(١) ٦٠ مركباً في كل منها ٥٠٠ شخص .

البحر الاحمر .

استغرقت تلك الرحلة اكثر من ثلاث سنوات .

ولم تكن المؤن التي يحملها ذلك الاسطول لتكفي رجاله على مدى الاشهر والسنين . فكان البحارة ينزلون الى البحر فيحتلون ما شاؤوا من الارض فيزرعون وينتظرون ايام الحصاد فيحصدون ويحملون من زرعهم ما يكفيهم الى موسم ثان .

واذا راقت لهم ميناء بنوا فيها قرية او مستودعاً واقاموا عليه اميناً .

وقد عني حنون بتدوين موقع الاماكن التي طافوها فكانت خرائط قيّمة للسواحل الافريقية .

لا يزال المؤرخون يذكرون باعجاب تلك الرحلة يقحم فيها امير البحر اللبناني مخاطر ذلك المحيط المجهول (١) .

(١) وجد هميلكون هذه المغامرة ، فخرج من قرطاجه واجتاز جبل طارق واتجه شمالا الى ايرلند وانكلترا وفتح سوق تصدير القصدير.

التجارة

المركب الذي اقلع من شواطىء لبنان – عهد فينيقيا – والقى مراسيه في جزر المتوسط وشطئانه ، حمل خيرات العالم الى القارات الثلاث ، وأنشأ فيها مستودعات التجارة ونشر اسباب الحضارة :

الى مصر – حمل اللبناني اخشاب الارز والسرو والسنديان ، يستعملها المصريون في اثاث البيوت ، وتزيين الهياكل ، وتحنيط الموتى.

وأنشأ اللبنانيون في مدينة منفيس مستودعات ، وعمّروا حياً اطلق عليه اسم « الحي الصوري » ، وفيه اقاموا هيكلاً لآلهتهم .

ومن مصر اخذوا النحاس والذهب والحجارة الكريمة والاواني المنوعة .

من جزيرة قبرص اخذوا المعادن والزيتون والكرمة والحبوب .

من اسبانيا – حيث بنوا مدينة قادس على مصبّ الوادي الكبير في المحيط الاطلسي – اخذوا الذهب والفضة والرصاص والتنك .

من الحبشة – العاج والابنوس والذهب والحجارة الكريمة وريش النعام والطواويس والقردة .

من البلاد العربية – البهار والمسك والبخور والذهب والحجارة الكريمة .

من جزيرة ميلوس – الكبريت وحجر الشبّ .

من جبال ارمينيا والقفقاس – المعادن والحجارة الكريمة .

وقطعوا اعمدة هرقول (جبل طارق) الى الجزر البريطانية حيث وجدوا القصدير .

ومن منقولهم الى البلاد الاغريقية والايطالية والاسبانية الورد والتين والرمّان والخوخ واللوز والزيتون .

وعلّموا الشعوب طريقة استخراج الزيت من الزيتون ولا تزال كلمتا (الزيتون والزيت) تُستعملان حتى الآن كما هما في اللغتين الاسبانية والبرتغالية .

ومن تلك الانحاء نقلت المراكب اللبنانية الدفلة والسوسن والنعنع والنرجس .

وكانت اهم الصادرات من لبنان اخشاب الارز والسرو والسنديان والقماش الارجواني والآنيات المنوعة من الزجاج الشفّاف .

ممارسة عريقة

اشتهر الفينيقيون بالتجارة منذ اقدم التاريخ ، حسبما يدل احد نصوص رأس شمرا ، وما كان انشاؤهم المدن الساحلية الا واسطة لتسهيل عملياتهم التجارية لا واسطة للاستعمار السياسي . لذلك لم تلعب فينيقيا دوراً حربياً خطيراً . كانت رسالتها رسالة سلم وكان اللبنانيون يحملون الى الشعوب التي يتصلون بها العلم والحضارة مع اصناف التجارة.

كانت تجارتهم في البدء تقوم على المقايضة . مقابل القماش الارجواني الجميل كان الفينيقيون يستقدمون ما يحتاجون اليه من مواد غذائية .

ثم تطورت التجارة الى تبادل السلع بالذهب . ويروي هيرودوتس عن القرطاجيين كيف كان يحصل هذا التبادل فيقول : « كانوا ينزلون بضائعهم ويعرضونها بالترتيب على طول الساحل ثم يعودون الى سفنهم ويرسلون دخاناً لاشعار الاهلين بقدومهم . فيقترب هؤلاء ويضعون قرب البضائع الذهب الذي يعرضون بالمقابل ثم ينسحبون . فكان القرطاجيون ينزلون من مراكبهم ويفحصون كمية الذهب فان رأوها كافية حملوها ومضوا والا عادوا الى مراكبهم وانتظروا فيعاود الاهلون الكرّة ويضيفون كمية جديدة من الذهب حتى يرضى بها القرطاجيون ويتخلون عن بضائعهم لقاءها . ولم يكن احد من الطرفين ليسيء الى الآخر . فلا الاهالي يمسون البضاعة قبل الاتفاق على الصفقة ولا القرطاجيون يمسون الذهب .

ومرت التجارة الفينيقية بعهدين متكاملين . كانت تجري اولاً عن طريق البر . بين خليج العقبة ولبنان عبر مسافات بعيدة معرضة للاخطار ، ثم عن طريق البحر بعد اكتشاف الملاحة واحتلال المدن الساحلية والقضاء على سيطرة الاسطول الايجي في الالف الاول قبل المسيح .

كانت اقصر الطرق البرية بين لبنان واشور تمر بالصحراء عبر دمشق وواحة تدمر لكنها كانت طريقاً عسيرة بسبب قلة الماء .

كان الفينيقيون يصدّرون الاواني الزجاجية إما فارغة للزينة وإما مليئة بالعطور التي برعوا باستخراجها ويصدّرون كذلك الانسجة المطرزة من صنع الصيدونيات .

ويروي هوميروس في الياذته ان اخيل عيّن جائزة للسباق على الوجه التالي :

« اناء فضي يحتوي ستة مقادير هو اجمل ما في الارض من نوعه لان الصيدونيين الحاذقين زينوه بشكل رائع والفينيقيين الذين نقلوه على الامواج الداكنة توقفوا في مرفأ لمنوس وقدموه هدية الى تيواس » .

ويروي هوميروس كذلك ان هيكوب نزل الى غرفته المعطرة حيث البراقع المنوعة هي من صنع نساء صيدون وقد استقدمها بارس نفسه من فينيقيا .

الا ان البرفير او الارجوان كان افضل ما كان ينتجه الفينيقيون ويحتكرون صناعته في صور وصيدا وهو صباغ طبيعي .

النقد

ان اتساع تجارة الفينيقي وتنوع الشعوب التي كان يتعامل معها واختلاف العادات في مختلف الامصار كل هذا حمله على توجيه عناية خاصة الى النقد . فصك منه فئات منوعة بلغت منها دقة الصنع وضبط الوزن ما جعل نقد « صور» العملة التي يرجع اليها الجميع وتعتمدها

كل البلدان حتى كان التعاقد في فارس يجري مشروطاً فيه الدفع « بالنقد الصوري الصحيح » .

الصناعة

تميز الفينيقيون بالقدرة الفائقة على التكيف وسرعة الاقتباس فاخذوا عن الحثيين والفلسطينيين سر صناعة الحديد فاستعملوه في بناء السفن والآليات والادوات فاسهموا في احلال هذا المعدن محل البرونز وفي الانتقال التاريخي ، بالتالي ، من عصر الحجر والبرونز الى عصر الحديد . وقد وُجد في حفريات رأس شمرا معول برونزي كان يستعمله المزارعون الفينيقيون ثم منجل حديدي كانوا يستعملونه في الحصاد محل المنجل الحجري في الالف الاول قبل المسيح .

وكانت هذه الصناعات تنقل بالوراثة وتنحصر بعائلات واحياء معينة. وكان اصحاب الصنعة الواحدة يتعاونون في ما بينهم ويشكلون رابطة مهنية على غرار النقابات في العصور الحديثة .

الصناعة الفنية

البيت الذي شاده الملك سليمان للرب في اورشليم ، فبات موضوع اعجاب الشعوب في ما اخرجته صناعة السبك والتطويق في النحاس والفضة والذهب ، من تماثيل ونقوش وزخارف وتلبيس ما كان ليصبح تلك التحفة المدهشة فناً واتقاناً ، لو لم تتعهده حذاقة اللبنانيين الخلاّقة ، على ما شهدت به التوراة ، في سفر اخبار الايام الثاني حيث يقول : « وارسل سليمان الى حيرام ملك صور قائلاً : كما فعلت مع داود ابي تفعل معي فاني أبني بيتاً لاسم الرب الهي ...

«فالآن أرسل لي رجلاً حاذقاً بعمل الفضة والنحاس والحديد والارجوان والقرمز والسمنجوني ، ماهراً في النقش مع الحذّاق الذين عندي ... ».

فارسل حيرام ملك صور الى سليمان يقول : « قد فهمت ما

ارسلت به اليّ وانا اتم كل مرضاتك في خشب الارز وخشب السرو . وعبيدي ينزلون ذلك في لبنان الى البحر فاجعله اطوافاً في البحر الى الموضع الذي تسميه واطرحه هناك فتأخذه . فكان حيرام يبعث اليه بخشب الارز وخشب السرو على حسب ما اراد (١) .

«وارسل حيرام الفنّان اللبناني الخبير بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والارجوان والسمنجوني والبزّ والقرمز وصناعة كل نقش واختراع كل شيء يلقى اليه ... » .

وذهب حيرام الى اورشليم وقام باعمال تعجز الفنّ ، على ما افاض الكتاب في تدوينه ، قال : « وصنع تاجين من نحاس مسبوك ليضعهما على ارؤس العمودين سمك التاج الواحد خمس أذرع وسمك التاج الآخر خمس أذرع . وكان للتاجين اللذين على ارؤس العمودين حبائك كصنعة الشباك وضفائر كصنعة السلاسل سبع للتاج الواحد وسبع للتاج الآخر . وصنع رمّانات فجعل صفّين منها على محيط الحبيكة الواحدة لتغطية التاج الذي على رأس العمود وهكذا صنع للتاج الآخر . وكان التاجان اللذان على ارؤس العمودين في الرواق على شكل السوسن كل واحد أربع أذرع . وكان تاجا العمودين بارزين من فوق البطن الذي وراء الحبيكة . وكانت الرمّانات مئتين للصفين المحيطين بالتاج الواحد . ونصب العمودين في رواق الهيكل نصب العمود الايمن ووسمه باسم ياكين ونصب العمود الايسر ووسمه باسم بوعز . وجعل شكل السوسن على أرؤس العمودين . وتمّت صنعة العمودين . وصنع البحر مسبوكاً مستديراً قطره من شفة الى شفة عشر أذرع وسمكه خمس أذرع ومحيطه خيط ثلاثون ذراعا . وكان تحت شفته من كل جهة قثاء يحيط به لكل ذراع عشر على صفّين ومحيطين بالبحر كله والقثاء مسبوك معه في سبكه. وكان قائماً على اثني عشر ثوراً ثلاثة منها أوجهها نحو الشمال وثلاثة نحو الغرب وثلاثة نحو الجنوب وثلاثة نحو الشرق والبحر عليها

---

(١) سفر الملوك الثالث ف ٥ عد ٨ – ١٠ .

وجميع مآخيرها الى الداخل. وكان ثخنه شبراً وشفته كأس على مثال زهر السوسن وكان يسع ألفي بثّ . وصنع القواعد العشر من نحاس طول القاعدة الواحدة أربع أذرع وسمكها ثلاث أذرع . وهذه صنعة القواعد كانت لها أتراس وكانت الاتراس في وسط أطر . وعلى الاتراس التي في وسط الأطر أسود وثيران وكروبوس وعلى الأطر من فوق الأسود والثيران ومن تحتها قلائد زهر متدلية . وكانت لكل قاعدة أربع بكرات من نحاس بمحاور من نحاس ولزواياها الأربع أكتاف مسبوكة تحت المغتسل الواحدة بازاء الاخرى. وفمها من داخل الاكليل الى فوق ذراع وفمها مستدير على شكل مقعد اناء من ذراع ونصف ذراع وعلى فمها ايضاً كانت نقوش غير أن اتراسها كانت مربعة لا مدوّرة . وكانت البكرات الاربع تحت الاتراس وخطا طيف البكرات في القاعدة وسمك البكرة الواحدة ذراع ونصف ذراع . وصنعة البكرات كصنعة بكرات العجلة خطا طيفها وأطرها وأصابعها وقبويها جميع ذلك مسبوك . وكانت أربع أكتاف في الزوايا الاربع من كل قاعدة وأكتاف القاعدة منها . وفي أعلى القاعدة تقبّب مستدير على سمك نصف ذراع وأيد وأتراس منها . ونقش على ظاهر ايديها وعلى أتراسها كروبين وأسودا ونخيلا كما وسّع كل منها وقلائد زهور من حولها . كذلك صنع القواعد العشر لجمعيها سبك واحد وقياس واحد وصوغ واحد . ثم صنع عشرة مغتسلات من نحاس كل منها يسع أربعين بثّاً كل مغتسل أربع أذرع وكان على كل قاعدة من القواعد العشر مغتسل . وجعل القواعد خمسا على الجانب الايمن من البيت وخمسا على الجانب الايسر وجعل البحر في الجانب الايمن من البيت الى الشرق من جهة الجنوب . وصنع حيرام القدور والمجارف والجامات . وفرغ حيرام من جميع العمل الذي عمله للملك سليمان لاجل بيت الرب . العمودين وظرفي التاجين اللذين على أرؤس العمودين والحبيكتين المغطيتين لظرفي التاجين . والرمّانات الاربع مئة التي للحبيكتين صفّين من الرمّان لكل حبيكة لتغطية التاجين اللذين على العمودين . والقواعد العشر والمغتسلات العشرة التي على

القواعد . والبحر والثيران الاثني عشر التي تحت البحر والقدور والمجارف والجامات وجميع الادوات التي صنعها حيرام للملك سليمان لأجل بيت الرب من نحاس مجلو» (١) .

لم يقم الفنّانون اللبنانيون بصنع تلك التحف التي افاض «السفر» بتفصيل دقائقها الرائعة الا وقد كانت الصناعة بلغت عندهم شأوا اذاع صيتهم في البلاد القريبة والبعيدة فكانت صناعتهم في المعادن الثمينة لا تقلّ عن صناعتهم في القماش الارجواني ، وفي النقش على انواعه .

الزجاج الشفاف

المصنوعات الزجاجية الشفّافـة على اختلاف الاشكال ، تملأ المتاحف ، والالواح الزجاجية على اختلاف الالوان تزيّن نوافـذ الكنائس ، يرجع فنّ اختراعها الى اللبناني — عهد فينيقيا —

كان الاقدمون — على الاخص في مصر — قد توصلوا الى اختراع الزجاج صفيقاً ويصنعون منه الواحاً وصناديق وتوابيت قد يكون على جانب من المتانة ، ولكن كان يصعب على الفنّ ان يتناول ذلك الزجاج الصفيق ويخرج منه تحفاً ، الى ان جاء الصنّاع اللبنانيون واستفادوا من نقاوة الرمل المفروش على شواطئهم ، فاخذوا يتقنون ويحسّنون حتى خرج من معاملهم زجاج شفّاف لم يكن للناس عهد به من قبل .

وعندما صنعوا الزجاج الشفّاف اخذوا يتفنّنون بتلوينه بمختلف الالوان ، من السماوي الازرق ، الى القرمزي الاحمر ، الى الزهر والاصفر .

واصبح الزجاج طيّعاً بين ايديهم فاخرجوا منه ما شاء لهم الفنّ من آنية مزخرفة ، وأكواب وزهريات واباريق ، واطباق وكؤوس ومرايات ، والواح حتى بلغت صناعته اوجاً حمل الشعوب على الاقتداء

(١) سفر الملوك الثالث ف ٧ عد ١٦ — ٤٥

بها ، فكانت التحف التي اخرجها الاغريق والرومان والبيزنطيون ، وتبعهم فيها الاوروبيون في العهد الحديث .

كما اغمط كتاب الاقدمين من الاغريق وروماـن فضل اللبناني — عهد فينيقيا — في كثير من اكتشافاته واختراعاته ، هكذا مرّوا بالزجاج الشفّاف ذاكرين اختراعه باشارة يكتنفها الشك والغموض ، الى ان جاءت الحفريات وما وجد فيها من اثار تعيد الحق الى ذويه وتنشر ما انطوى من مآثر اللبنانيين الفينيقيين .

في اوائل الالف الثاني قبل المسيح بلغت صناعة الخزف أوج كمالها فاستخدم اللبناني الدولاب في قولبة الاباريق والاواني فحسّن في اشكالها وهندستها وتنسيقها فجاوز الخزّافون اللبنانيون ما وصلت اليه الصناعات المجاورة ، مصرية كانت ام كريتية ام قبرصية ، التي كانوا قد استوحوا طرزها . وقد زاد هذا الفن تطوراً بعد ان صقلت المصنوعات الخزفية بالقصدير . وكان النحت يتطور بخطى متوازية .

واشتهروا بفن الزخرفة ومن ابرز ما صنعوه في هذا الحقل ، قصر آحاب في السامرة وقد زينوه بنقوش رائعة من العاج حتى ان القصر كان يُعرف ببيت العاج . وكانت سيدة هذا القصر اميرة من صور وكانت غرف القصر مغلفة بخشب من الارز المطعّم برسوم والواح من العاج .

وزيّن الفينيقيون بالعاج كذلك القصر الذي وجد في حفريات مجدّو (تل المتسلم) وتاريخه يعود الى القرن الثاني عشر قبل المسيح .

اما في حقل التعدين فقد بلغ اللبنانيون شأواً بعيداً فاستخدموا النحاس والبرونز والحديد وحتى الفولاذ كما اظهرت حفريات رأس شمرا .

ولما لم يكن في أرضهم معادن ثمينة كالفضة والذهب فقد مضوا على ظهور السفن يستقدمونها من الشواطىء عن طريق المقايضة ، حتى اقاصي المتوسط .

الثورة التي حققتها المطبعة على الحجر في تدوين الكلمة دون الثورة التي اشعلتها « حروف الهجاء » على الكتابة الهيروغليفية او المسمارية .

كان العالم القديم اذا شاء التعبير بالكتابة عن شيء يصوّره تصويرا ، ان اراد ذكر البيت صوّر بيتاً . وان قصد جملا صوّر الجمل ، وان شاء ان يشير الى خمسين ناقة صوّر خمسين ناقة .

تلك كانت الكتابة الهيروغليفية او التصويرية المتبعة في مصر . وكانت شعوب « ما بين النهرين » تعتمد طريقة لا تقل صعوباتها عن الاولى فتلجأ الى الكتابة المسمارية (١) .

اللبناني والنجمة الفينيقية (اللبنانية)

لم يكن اختراع الزورق والمجذاف كافياً لاستخدام البحر طريقاً الى شواطئه وجزره القريبة والبعيدة ، على اختلاف المواقع ، بل كان

---

(١) الكتابة المسمارية التي استعملها الاشوريون والماديون والفرس هي عبارة عن خطوط يدل كل شكل منها على اسم .

عقبة في سبيل الفكر صدمت الفكر واسوار كثيفة حالت دون انطلاقه الى ان جـاء اللبناني — عهد فينيقيا — فلم توقفه العقبة ، ولا صده السور . اعتمد الصوت الذي يسمعه في النطة فجعل كل نطق رسماً خاصاً هو الحرف الذي لا يدل بحد ذاته الى شيء . قال « اب » فوضع اللفظة الاولى حرفاً بشكل « آ » وللفظة الثانية حرفاً بشكل « ب » ومن تركيب الاحرف وجدت الكلمة ومن الكلمات تألفت الجملة التي تفيد معنى معينا . وهكذا كانت « الاحرف الهجائية » وعددها ٢٢ ثورة عارمة اجتاحت الهيروغليفية والمسمارية ، وذللت العقبات ، فانطلق الفكر من عقاله واتسع المجال للتعبير والافصاح والانتاج .

اقدم نص لهذه الحروف اكتشفته الاثار منقوشاً على ناووس احيرام ملك جبيل المتوفي في القرن الثالث عشر قبل المسيح . وقد عثر على بعض الكتابات على الخناجر والاواني الحجرية في جبيل ترجع الى قبل ذلك العهد .

وعن الحروف الهجائية اللبنانية الفينيقية اخذ العالم القديم والحديث حروف هجائه فقد نقلها بحارة لبنان وتجاره الى حيث نزلوا . وعن هذه الا حرف اخذ اليونان ثم الرومـان ابجديتهم محتفظين بمعظم اسمائها الا صلية .

بالحرف ازدهر العلم والشعر والفلسفة ، فكانت « حروفنا الهجائية » السلم الذي ارتقت على درجاته حضارة العالم .

لا بدّ للنوتي من معرفة وجهة السير حتى لا يضلّ الطريق .

في النهار كانت الشمس تدل على الجهات الاربع ، فيسهل على النوتي اذا وقف ووجهه الى مشرق الشمس ان يعرف ان الغرب وراءه وان الشمال الى شماله والجنوب الى يمينه .

اما اذا ارخى الليل سدوله ضلّ وجهة سيره فالابرة المغناطيسية في البوصلة لم تكن عُرفت في ذلك الزمان .

ومنذ ان اطل الانسان الاول على الحياة ، وانفتحت عيناه على النور ، كان يرى في كبد السماء نجوماً تتلألأ في الليل ولا يفهم من سيرتها شيئاً .

الى ان جاء الملاّح اللبناني وراح في لياليه الصافية يحدّق في الفلك ويرقب نجومه حتى اكتشف نجمة تهديه الى الطريق .

ذلك انه تبين في السماء ظاهرتين : كوكبة كبرى في شكل شاحنة تضيء جوانبها الاربعة نجوم اربع ويعلق في الشاحنة ذيل مستطيل ذو نجوم ثلاث .

كوكبة صغرى في وضع معاكس للاولى ، وهي مثلها شاحنة تصوّرها نجوم اربع ، وقد تدلّى على حافتها ذيل تمدّه نجوم ثلاث .

وتبين للنوتي في مراقباته المستمرة في طرف ذيل الكوكبة الصغرى نجمة تتجه دائماً الى الشمال لا تحيد عنه ، ولا يتغيّر مركزها بتغيّر الفلك .

عندما تأكد للبحّارة اللبنانيين ان تلك النجمة تدل في الليل على جهة الشمال ، كما يدل طلوع الشمس في النهار على جهة الشرق ، اصبح من السهل عليهم تحديد الجهات الاربع في الليل : النجمة تدله على الجهة الشمالية ، فيعرف ان الجنوب الى يمينه ، والشرق في وجهه ، والغرب وراءه .

تلك هي « نجمة القطب » التي اطلق عليها كتبة اليونان الاقدمون اسم « النجمة الفينيقية » نسبة الى مكتشفها الفينيقي اللبناني .

وهما الكوكبتان اللتان اسمماها العرب الدب الاكبر والدب الاصغر.

هكذا تسنى للاسطول اللبناني القديم ان يحكم السير في البحر المتوسط

على شواطئه الاسيوية والافريقية والاوروبية ، وان يطوف في ثغوره وجزره من مضيق الهلسبون (الدردنيل) الى مضيق اعمدة هركول (جبل طارق) ويعبر المضيق الى الاوقيانوس ، ومنه الى العالم الجديد قبل كولومبس بآلاف السنين .

ويقول سترابون : « ان الفينيقيين اتخذوا بنات نعش الكبرى هادياً في اسفارهم البحرية وعلموا الاغريق هذه الطريقة ، كما تعلمها عوليس من كاليبسو على ما ورد في الكتب الاوروبية ، وهكذا كان عوليس يهتدي بهذه المجموعة من النجوم التي لا تأخذ حماماً في مياه المحيط » .

أساطير لبنانيّة

اسطورة ادونيس وعشتروت

كان لبنان مسرحاً للآلهة قبل ان يكون موطناً للبشر (١) . وكان مسرحاً للآلهة تلهو في ربوعه وتنعم بجماله ، وقد خلّد نهر ابراهيم اسطورة عشتروت وادونيس اله الحب والهة الجمال . وقد بلغ تعشّق الجمال في صميم اللبنانيين القدامى حداً جعلهم ، منذ تنظيم مجتمعهم ، يربطون بين الجمال وفكرة الحياة بعد الموت .

نهر ابراهيم وواديه ، هضابه وضواحيه ، شواطىء جبيل واعاليها ، ارض زها فيها جمال « عشتروت » وبقعة اشعلها حب « ادونيس » .

هو الحرم الذي قدّسه « الجبيليون » وحجّ اليه اللبنانيون ، ذكرى لذينك الحب والجمال الالهيين .

ادونيس فتى الهوى والصبا ، فلق الصبح على جبينه ، اشعاع الهوى في عينه ، املد العود ، ناعم البشرة ، بسّام الثغر ، يتهادى على عرش جماله ، تغرّد له الاطيار ، في مجيئه ورواحه ، بين مغارة افقا والغينة ، على قمم النهر المقدّس ، يتنقل « ادونيس » في تلك الاحراج الغضّة ، وبين تلك الاشجار الظليلة يقنص الوحوش ويتصيد الطيور ، مثيراً لهب التدله في احشاء الناظرين اليه من الآلهة الحسان .

ومن أحقّ بحب ذلك الفتى الجميل من « عشتروت» آلهة الجمال .

رأته « عشتروت» يتنقل وحيداً في تلك الارض الموحشة ، يحمل النبل والقوس بغية الصيد والقنص ، جريئاً مقداما ، غراً لعوبا ، لا لا يأبه بالكواسر ، ولا يخشى الاسود والنمرة وقد امتلأت بها بطون الغاب.

---

(١) في جوار نهر ابراهيم ، او نهر ادونيس ، اكتشفت ادوات تعد بالآلاف ترجع الى ثمانين الف سنة .

اعترضته « عشتروت» في طريقه وسدّت عليه المسالك ، فاذا هو امام روعة من الحسن وسحر من الجمال ، ونار من العيون . فهوى واستهوى ، وزغردت عصافير افقا تغني اناشيد الحب والهيام .

وما ان صدّقت « عشتروت» حقيقة ظفرها بحب من علقت ، حتى زاد خوفها عليه في تلك المخاطر ، يركب فيها الهول بين وحوش كاسرة عمياء لا تهيم بحسنه ولا تسجد لجماله . فاستحلفته متوسلة باكية ان يكفّ عن المغامرة للصيد والقنص في تلك الغابات الرعيبة فابتسم « ادونيس » مدلاً بقوة في ساعده وشجاعة في نفسه .

رأت رفيقات « عشتروت » وسمعت . فهاجت الغيرة في صدورهن . فاقسمت الآلهات لتنتقمن من « عشتروت» في حبيبها « ادونيس » . واثارت ابلغهن حقداً ، واوسعهن كيداً على « ادونيس » وحشاً ضارياً كمن للاله الفتى في احد منعطفات ذلك الوعر من ارض « الغينة » . وما أن مرّ « ادونيس » ترنّحه احلام الحب والسعادة حتى هجم عليه الخنزير خدعة ، فعضّه بنابه والقاه على الحضيض يتخبّط بدمه .

اهتزت سحائب السماء ، وتقلقلت صخرات الارض ، فاختلجت احشاء « عشتروت» واذا هي امام ذلك المشهد الرائع ، والابتسامة لم تفارق ثغر « ادونيس » وهو يلهث بالنفس الاخير . فأكبّت عليه تعانقه وتبكيه صارخة : « ادونيس . ادونيس » .

فارق « ادونيس » الحياة . فمسحت « عشتروت» بدمه زهرة في قربه فجرى دمه في تلافيف الزهرة فكانت شقائق النعمان ، واسميت « عشتروت» « الزهرة » .

وما زالت الزهرة « عشتروت» تبكي وتنتحب طوال الايام والليالي حتى ضاقت التربة بتلك الدموع السخية تجري انهرا ، فتفجرت الينابيع من جوف مغارة افقا الملتحفة باسرارها العلوية . والمياه في مخرجها

(١) تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار – للاب هنري لامنس – ج ١ ص ٤٣

الصاخب ، وفي تكسرها على الصخور من منحدر الى منحدر ، تجدّد عويل « عشتروت» وتفجعها الداوي على الاله الحبيب .

عمرت جبيل بالسكان من بني البشر وروعة تلك المأساة تملأ جوّ تلك الانحاء .

فصعد الجبيليون الى افقا فرأوا الدموع تتدفق نهرا ، ورأوا شقائق النعمان تتفجر دما ، فآمنوا واقاموا الاعياد لذكرى تلك الفاجعة بالاله « ادونيس » اعياداً يحتفل بها سكان جبيل وضواحيها . ويقصدها الناس افواجاً وزرافات من مختلف الانحاء . ثلاثة ايام تخلّد ذكرى « ادونيس » ، فيوم لموته ، ويوم لدفنه ، ويوم لقيامته .

وقد جاء في « تسريح الابصار» وصف لتلك الاعياد ، ورد فيه : «وكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها « جنازة ادونيس ». ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن الى نهر ابراهيم المخصص لذكرى « ادونيس » فيجلسن على ضفتيه باكيات معولات يرثين موت الاله . وكان بعضهن يصبغن ذيولهن ويسدلن شعورهن ، ويسرن في شوارع جبيل معبّرات شعثا يلطمن وجوههن ويولولن على تموز ويغنين الاغاني الشجية المبكية » (١) .

أخذ الاغريق والرومان عن لبنان آلهته ، فاسمى الاغريق « عشتروت » (افوديت) واسماها الرومان (فانوس) ، وأوحت الاسطورة للفنّ معجزات لوحاته ، تزيّن متاحف مدريد وفلورنس وفييّنا وباريس .

اسطورة الارجوان

وكان للارجوان اسطورته :

روي ان ملكاً من ملوك صور خرج الى النزهة على شاطىء المدينة برفقة زوجته وعندها كلب صغير ظريف لا يفارقها .

وما وصلوا الى البحر حتى راح الكلب يلعب ويقفز بين الصخور ويتسلى بالتقاط الاصداف فيأكل ما يستسيغ من حيوانات البحر الصغيرة .
وعندما رجع الى صاحبته رأت ان فمه مصبوغ على شفتيه بصباغ قرمزي جميل فراحت وزوجها الملك الى المكان الذي كان يلعب الكلب فيه يفتشان عن ذلك السائل الاحمر الذي صبغ فم الكلب . فما وجدا الا ما الفاه في تلك الشواطىء من براعم واسماك واصداف .
وانتشر الخبر في المدينة فتراكض الناس لمشاهدة الكلب في الاحمر الزاهي على شفتيه .
وانطلق الصيادون يفتشون وينقبون حتى اهتدوا الى ذلك الحيوان ذي السائل الاحمر .

ومهما يكن امر تلك الاسطورة فالواقع هو ان الصيّاد اللبناني عثر على حيوان بحري لا فقار له وهو المسمى « موريكس » يسيل من عروقه سائل احمر عالجه الصيّاد وما انفك يجرب المزيج والتركيب حتى اخرج من ذلك السائل صباغاً ارجوانياً ثابتاً صبغ به القماش فاصبح القماش الارجواني افخر وشاح يرتديه الملوك والعظماء واجمل ستائر يزينون بها قاعات القصور وجدران الهياكل .

اسطورة نهر الكلب

في مضيق الجبلين الفاصلين بين المتن وكسروان ، يتدفق من مغارة جعيتا ويشق طريقه في الوعر الى مصبه في البحر بين ضبيه وصربا ، نهر صغير بحجمه ، كبير بتاريخه ، أطلق عليه اسم (نهر الكلب) ، ودعاه الاقدمون نهر الذئب (ليكوس) .
لنهر الكلب اسطورة اوحى بها الدور الذي لعبه ذلك المضيق في مجرى تاريخ لبنان .
روت الاسطورة ان ذئباً كان يربض على مصب النهر حارساً يقظاً. فاذا اقترب عدوّ أحسّ به الذئب، وأخذ يعوي عواء يملأ الجو

صياحاً ، فيسمع اللبنانيون صوته فيهبّون للدفاع عن المضيق ، يتنادون من قمة الى قمة ، ومن مقلب جبل الى مقلب جبل ، ومن واد الى سهل ، فيتوافدون زرافات زرافات ، فترتص صفوفهم كثيفة على معابر النهر وشرفات الضفتين ، يناصبون العدو القتال فيعجزه اقتحام المضيق.
واذا آتى الحظ فاتحاً ولم يستطع صدّه اللبنانيون فعبر المضيق ، يقف الفاتح على الصخور القائمة على كتف المضيق ، فيرفع نصباً وينحت نقوشاً يخلّد فيها ذكرى فتوحاته .

بدأها رعمسيس الثاني (حول ١٣٠٠ ق.م.) فنقش في الصخرة تمثال الملك وهو يذبح اسيراً يقدّمه الى الاله .
وتعاقب بعده الظافرون من بابليين واشوريين ويونان ورومان وعرب واتراك الى ان جاءت حملة نابوليون الثالث سنة ١٨٦١ فنقشت ذكراها على صخرة الفرعون .
ونقش الانجليز بدورهم صخرة في الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ كما فعل الجنرال غورو سنة ١٩٢٠ . وفي الحرب العالمية الثانية نقش الانجليز صخرة سنة ١٩٤٢ .

ولكل اسطورة في الميتولوجية مغزى ورمز . اسطورة نهر الكلب ترمز الى الروح التي احيت لبنان واللبنانيين منذ القدم ، روح التضحية في سبيل الاستقلال .
حتى اذا جلت الجيوش الاجنبية عن البلاد ، ونشرت راية الاستقلال ، طوت صفحات الفتح بلاطة نُقش عليها تاريخ الجلاء في ٣١-١٢-١٩٤٦ .

سلسلة احداث تروي حلقات تاريخ تنتهي الى خاتمة تضحيات

وآلام يسطع في ظلماتها الاستقلال التام نوراً لن ينطفىء عن مشارف لبنان .

ارقام النقش في نهر الكلب

رقم ١ – البابليون (٦٠٦ – ٥٦٢)
رقم ٢ – العرب (١٣٨٢ – ١٣٩٢)
رقم ٣ – الرومان (٢١١ – ٢١٧)
رقم ٤ – الفرنسيون (١٩٢٠)
رقم ٥ – المصريون (١٨٦٠)
رقم ٦ – الاشوريون
رقم ٧ – الاشوريون
رقم ٨ – الاشوريون
رقم ٩ – الانكليز (١٩١٨)
رقم ١٠ – الانكليز (١٩١٨)
رقم ١١ – اليونان
رقم ١٢ – اليونان
رقم ١٣ – الاشوريون
رقم ١٤ – المصريون
رقم ١٥ – الاشوريون
رقم ١٦ – المصريون
رقم ١٧ – الاشوريون
رقم ١٨ – الانكليز (١٩٤١)
رقم ١٩ – الانكليز (١٩٤٢)
رقم ٢٠ – لبنان (١٩٤٦)

النقش في نهر الكلب

المصريـون : (١٣٠٠ ق.م. ، رعمسيس الثاني) الصخرتـان

رقم ١٤–١٦ تمثلان الملك يذبح سجيناً كضحية الى الاله . اما الصخرة الخامسة ففوقها اثر نقشته حملة نابليون الثالث (سنة ١٨٦٠) .

البابليون : صخرة رقم ١ – نبوخذ نصر الثاني (٦٠٦–٥٦٢) مخرب مملكة يهوذا ، النقش سنة ٥٨٧ وفيه رواية موقعة وهذا هو النص :

ثقة مني بقوة الالهين نابو ومردوخ نظمت حملة عسكرية ضد لبنان وقد جلبت المسرّة والبهجة الى تلك البلاد بطردي كل عدو والقضاء عليه في طول البلاد وعرضها . وقد اجتزت ودياناً عميقة ، وفتحت لجيشي مسالك في الصخر ، وحيث اعترضني الصخر كنت افتته . وهكذا انشأت طريقاً مستقيماً ممهداً لنقل خشب الارز . وقد وفرّت لاهل لبنان الطمأنينة والسلام وازلت عنهم كل ما من شأنه ان يعكّر عليهم صفو الحياة . ولكي يعتبر كل طامح في ارضهم فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم فاني قد اقمت نصباً عليه تمثالي شاهداً انني الملك على هذه المنطقة الذي لا زوال لملكه .

الاشوريون : صخرة رقم ٦–٧ عليهما صورة ملكين اشوريين.
صخرة رقم ٨ (محطمة) مقبرة اشورية
صخرة رقم ١٣– و١٥ صورة تشبه صخرة اسرحدون – ممحية
صخرة رقم ١٧ – تمثل الملك اسرحدون (ملك اشوري) نقش مسماري . رواية نصر .

اليونان : صخرة رقم ١١ – قسم ممحي
الباقي منها : صورة افوكلس سليل تاسيان
صخرة رقم ١٢ – نقش يوناني لا يُقرأ

الرومان : صخرة رقم ٣ – (الامبراطور كركلا ٢١١–٢١٧ ب.م.)

في عهدي الرّومان والبيزنطيّين

يصعب تفهم التاريخ في اسباب حوادثه ونتائجها اذا لم يقترن علمه بمعرفة الجغرافية من طبيعية واجتماعية واقتصادية وسياسية .

البقعة التي تمتد من روما وبلاد اليونان شمالا ، الى العربية السعودية واليمن والامارات المحمية على بحر عمان في الاوقيانوس الهندي جنوباً ومن بلاد العجم فالعراق فسوريا فلبنان شرقاً الى البحر المتوسط فوادي النيل الى قرطاجة غرباً ، تلك البقعة تضم في حدودها ما يدعى الشرق الاوسط .

القوم الذين كانوا نازلين من تلك البقعة في اقصى الجنوب ، على بحر عمان ، كانوا يحسبون قديماً ان العالم ينتهي على مكسر تلك الامواج. وكانت من جهة الشرق تغمر ارضهم مياه خليج العجم ، وتغمرها من جهة الغرب مياه البحر الاحمر . فلم يبق امامهم من اليابسة الا جهة الشمال يتجهون اليها .

هكذا هجر الجنوب القوم الذين عُرفوا في ما بعد بالفينيقيين . اما الذين كانوا يسكنون في جهات الشرق وفي جهات الشمال فكان يستهويهم المنفذ الى البحر المتوسط وقد عرفوا ان وراءه الى الغرب ينبسط وادي النيل الخصيب .

هكذا ملأت التاريخ القديم حركات تلك الشعوب تتدافع من الشرق والشمال في اتجاه الغرب . ويعمل الغرب على ردّ الهجمات التي تأتيه من الشرق والشمال . الاشوريون والكلدان من بين النهرين ، الفرس من ضفاف الخليج وبحر قزوين ، الحثيون واليونان والرومان من وراء جبال الامانوس ، والمصريون يحمـون حدودهم الشرقية فيدفعون الجيوش تلو الجيوش على الاشوريين والكلدان والحثيين .

وسوريا ولبنان ، بحكم المركز الجغرافي ، كانا مسرح الاقتتال والتطاحن. على ان مناعة الجبال ووعورة المسالك، وصعوبة العيش كانت

تساعد لبنان على الصمود للغزاة اياً كان سبيل الفاتحين .

هكذا وقف لبنان في وجه الفاتحين عبر الزمن . كان اذا استولى الغزاة ، بعد طول حصار ، على المدن اللبنانية والثغور البحرية يفزع ابطال لبنان واحراره الى القمم العالية فيعتصمون بانتظار دورة الدهر، حتى اذا تطرق وهن الى فاتح كروا من معاقل النسور واستعادوا السليب من ارض ومدن وثغور .

وعرف اهل الاراضي المجاورة ان لبنان في ذلك الشرق معقل الحرية فكان اذا شنع الفتح في ارض ودمر وهدم تلجأ منها البقية القادرة الى جبال لبنان في طلب الحماية والحياة .

ولما طلعت المسيحية في الشرق تستهدف القضاء على الوثنية ، واعتنق امبراطور القسطنطينية عقيدة الدين الجديد ، فضاقت المسالك بالفئة الوثنية العنيدة ، لم تجد البقية الباقية من الوثنيين حمى يقصد اليه للاحتفاظ بحريتها الدينية غير لبنان ملجأ كل ضعيف ، معقل كل ملهوف ، حصن كل حرية (١) .

هكذا كان يحتفل المسيحيون في بيروت بقيامة المسيح . ويعيد الوثنيون في جبل القيامة ادونيس في جو من الحرية التامة .

في مستهل القرن السابع للمسيح كان الشرق الاوسط من الوجهتين السياسية والدينية على الصورة الآتية :

الامبراطورية — ولا امبراطورية غيرها — امبراطورية القسطنطينية خليفة بيزنطية ، خليفة روما . كانت تضم الشرق الاوسط في حدود سلطانها الرحيب . وكانت الامبراطورية قد شاخت بعد ان عمرت اكثر من الف ومئة سنة ، منها بعد اقتسام الامبراطورية الرومانية ومنها منذ انشاء روما وانتابت الامبراطورية الى جنب الشيخوخة اسباب ضعف اخرى من الوجهة الدينية . فبعد ان حلّت المسيحية في الامبراطورية محل الوثنية اخذت الشيع والمذاهب تفرّق بين شعوب

(١) فيليب حتي (تاريخ لبنان) .

الامبراطورية ومناطقها . مع ان الدين المسيحي جاء جامعاً خلافاً لليهودية المنكمشة .

اما في الجهة الجنوبية من الشرق الاوسط — في البلاد العربية فكانت لا تزال السيطرة الدينية للاوثان .

لبنان في عهدي روما وبيزنطية

ظلت دولة الرومان تتسع حتى اصبحت على عهد اغسطس وتراجان امبراطورية لم يسبق لها مثيل في البسطة والقوة . بدأت روما بالسيطرة على ايطاليا من ادناها الى اقصاها . ومن ثم اخذت بالامتداد غازية فاتحة حتى خفق النسر الروماني في الغرب على غالة (فرنسا) واسبانيا والجزر البريطانية . وانتشرت راية روما في الشرق على يوغوسلافيا والبلقان واليونان . وفي افريقيا على مصر حتى الاوقيانوس الاطلسي . وفي آسيا على ارمينيا وسوريا والعراق والجزيرة ولبنان وفلسطين وما بين النهرين .

وقد نظم الرومان الادارة في ذلك الملك الشاسع تنظيماً لا يزال حتى اليوم الاساس الذي بنت وتبني عليه الدول والكنائس تقسيماتها الادارية . وفصلت شرائع روما — من جهة التمتع بالحقوق المدنيـة والسياسية — بين الرومان وغير الرومان وقسمت الحقوق الى حقوق عامة وحقوق خاصة . فادخلت في الاولى حق الانتخاب وحق التوظيف وحق استئناف الحكم بالاعدام الى الشعب . وكان من الحقوق الخاصة الزواج الشرعي بمفاعيله ، كالسلطة الوالدية ، والتوريث ، وحق اقامة الدعاوى ، وحق التعاقد الرسمي ، وحق لبس البردة ، وحق اعطاء الشخص عدة اسماء كقولهم يوليوس بولس ، واميليوس بابينيانوس . وكان الرومان حريصين على الاستئثار بتلك الحقوق فلا يمنحونها الاجانب الا نادراً ولاسباب استثنائية . وعن الرومان اخذ اكثر الشعوب انظمتهم وتقاليدهم وعاداتهم .

ظهور المسيح

كان الرومان قد عرفوا شأن فينيقيا ، وخبروا قدر الحفدة في

قرطاجة ، فلما وصلوا الى لبنان سنة ٦٤ ق.م. بعد انتصارهم على قرطاجة واليونان لم يدخلوه دخول الفاتحين ولا حكموا فيه حكم الظافرين ، بل خصّه كبار الامبراطورية منهم بميزات دلّت على ما كان له عند روما من منزلة وتقدير .

لم يكد يمر زمن طويل على وصول الرومان الى لبنان وفلسطين حتى ولد السيد المسيح . وفي الثلاثين من عمره خرج الناصري يُعلّم ويبشّر فجاب انحاء فلسطين ، وتجاوزها شمالا الى جنوبي لبنان فطاف ضياعه وبلغ صور وصيدا فدخلهما داعياً اهلهما الى ترك عبادة الاوثان والى الايمان باله واحد ، على ما ورد في الاناجيل (١) .

« ثم خرج يسوع من هناك وأتى الى تخوم صور وصيدا» (متى ١٥ و٢١)

« فانصرف يسوع مع تلاميذه الى البحر وتبعه جمع كثير من « الجليل واليهودية واورشليم وادوم وعبر الاردن وممن حول صور « وصيدا جمع كثير وقد سمعوا بما صنع فاتوا اليه». (مرقس ٣–٧و٨).

« ثم قام من هناك وذهب الى تخوم صور وصيدا ودخل بيتاً ولم « يرد ان يعلم احد فلم يقدر ان يستتر» . (مرقس ٧–٢٤).

واللبنانيون ، على اختلاف المذاهب والاديان ، حريصون على ذكر دخول المسيح الى لبنان وطوافه فيه معلماً مبشّرا .

وانتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً في لبنان . فلما دخل بولس الرسول مدينة صور سنة ٥٧ وجد فيها كنيسة ومجمعا . وتقلصت الوثنية رويداً رويداً من المدن اللبنانية ثم من القدس وكانت الجرود وبعلبك آخر معقل لها .

ما كان ليخطر للقائمين على الحكم في روما يومذاك ان اتباع الناصري سيخرجون بعد ثلاثمائة سنة من دياميس روما المظلمة الى عرش القياصرة .

أول من بدأ بتخصيص لبنان بعطف مأثور كان الامبراطور اغسطس

(١) مضت جماعات من صيدا وصور الى الجليل لتسمع تعاليمه .

قيصر. فقبل ان يرتقي هذا الامبراطور سدة العرش كان يُدعى ، على الطريقة الرومانية ، كايوس يوليوس قيصر اوكتافيوس . انه حفيد يوليوس قيصر الكبير . ولد سنة ٦٣ ق.م. وفي سنة ٣١ ق.م. انتصر على خصمه انطونيوس حليف كليوباترة المصرية في موقعة « اكسيوم » الشهيرة وقد حال ذلك الانتصار دون تجزئة الامبراطورية الرومانية . فهلّل مجلس الشيوخ في روما لذلك النصر ومنح الظافر الشاب لقب اغسطس (الكبير) ، وسلم اليه مقاليد الحكم ، واعطي اسمه احد شهور السنة فدعي الشهر الثامن منها « اغسطس » (آب) .

وقد سمي ذلك العهد « عصر اغسطس » لما تمّ فيه من جلائل الاعمال طيلة خمس واربعين سنة ، ولما لمع فيه من نوابغ امثال الشعراء هوراس وفرجيل واوفيد والمؤرخين تيتليف وسلوست وغيرهم (٣١ ق.م. ١٤م) .

هو ذلك الامبراطور العظيم الذي أراد ان يُعلن تقديره للبنان في ماضيه وحاضره ، فأمر بتجديد بناء مدينة بيروت ، واطلق عليها اسم ابنته « جوليا » مقروناً بامنية السعادة ، فدعى المدينة « بيروت يوليا السعيدة » (جوليا فيليكس) .

واسدى الى اهلها تلك المنحة الاستثنائية وهي منحة التمتع بالحقوق المدنية والسياسية المحفوظ استعمالها للرومان ، ثم منح تلك الحقوق ذاتها مدينة بعلبك (هليوبوليس) . وواصل خلفاء « اغسطس » الرعاية للبنـــان فمنحوا حقوق الرومان اهم مدنه كصور وصيدا . وزار الامبراطور ادريان لبنان فاستطاب السكنى في مدينة جبيل ، وشاقته الاحاديث عن عشتروت وادونيس ، وأثارت كوامن شعوره تلك الحفلات التي كانت تقام لهما في وادي نهر ابراهيم المقدس ، فانخرط الامبراطور ادريان في سلك عباد عشتروت وأقام على عبادتها في روما حيث عرفت عشتروت باسم « فنوس » .

وفي عهد ادريان نبغ علماء وكتّاب لبنانيون كان اوسعهم شهرة المؤرخ « فيلون الجبيلي » نسبة الى بلدته جبيل حيث ولد سنة ٧٠ للمسيح .

ولهذا المؤرخ مؤلفات عديدة اهمها « تاريخ فينيقيا » ، وطنه ، وتاريخ الامبراطور ادريان .

ومن الاباطرة الذين زاروا بيروت فسيسيانوس (٦٩ — ٧٩) وابنه تيتوس (٧٩ — ٨١) وكونستنس (٣٣٨ — ٣٣٩) .

مدرسة بيروت

كان كلما اتسع مدى الامبراطورية وتنوعت الشعوب المنضوية تحت لواء روما ازداد تعدد الشرائع ، حتى اصبح من مسيس الحاجة عند الرومان ان يوجهوا عناية خاصة الى علم الحقوق وتدريسه وتنشيط وضع المؤلفات فيه . فلم تلبث ان حظيت مدارس الحقوق وعلماء الحقوق برعاية السلطة القائمة وعطف الاباطرة الخاص .

وكان من أهم المدارس مدرسة روما ومدرسة بيروت . وقد احتلت هذه المركز الاول في الامبراطورية بفضل من نبغ فيها من اساتذة وتلاميذ .

ابتدأت كلية الحقوق في بيروت بقاعة صغيرة الى جنب مكتبة لاصقة بهيكل وثني تحوّل بعد انتشار المسيحية في بيروت الى كاتدرائية في الموقع الذي تشغله اليوم كاتدرائية مار جرجس المارونية قرب ساحة البرج .

وقد أخذت تمتد شهرة المدرسة منذ اوائل القرن الثالث — وبلغت الأوج في القرن الخامس فطبق صيتها ارجاء الامبراطورية . كان الطلاب يقصدون اليها من اوروبا وارمينيا وقيليقية وسوريا وفلسطين ومصر وسائر البلاد العربية . لقد أصبحت ، على حق ، المرجع القانوني للامبراطورية الرومانية كلها .

من اشهر اساتذة مدرسة بيروت في الجيلين الثاني والثالث للمسيح جايوس وبابينيانوس واوليبانوس . وقد نشروا من على منبرها دروساً كانت الى جنب مؤلفاتهم المعين الذي غرف منه علماء الحقوق ولا يزالون يغرفون حتى اليوم طيلة ألف وثمانمائة سنة .

جايوس : عاش في اوائل الجيل الثاني للمسيح . وله مؤلفات عديدة اهمها « القواعد » .

بابينيانوس (١٤٢ — ٢١٢ م) (١)

عرف الامبراطور سبتيموس سافيروس منزلة بابينيانوس في العلم فعينه « قاضي القضاة » وهو اكبر مركز في الدولة . وخبر فيه نبل الاخلاق والكفاءة الفذة فجعله مستشاره وصديقه الحميم .

وكان للامبراطور ولدان كاراكلا وجيتا . وقد تبين الوالد في ابنه البكر كاراكلا شراسة الخلق وحب الاستئثار بالسلطة ، فخشي منه على جيتا اخيه متى كبر الولدان . فلم يترك الامبراطور وسيلة الا استعملها لتوثيق صلة المحبة بين الاخوين . فأنشأ لهما عيداً خاصاً دعاه فيلادلفيا (صداقة الاخوين) . وكانت العائلة الامبراطورية تحتفل بذلك العيد كل سنة . وضرب الامبراطور قطعة معدن منقوش عليها صورة الأخوين ويد كل منهما في يد الآخر . على ان كل تلك الوسائل لم تغير من طباع كاراكلا شيئاً .

وفي سنة ٢١١ توفي الامبراطور سبتيموس سافيروس فخلفه ولداه على سدة الملك واستبقيا بابينيانوس في مركزه الخطير . على ان كاراكلا لم يلبث أن ثارت في نفسه شهوة الأثرة فصمم على قتل أخيه جيتا للتخلص منه والاستقلال بالملك . وكان قد وقع بين الأخوين تباعد . فدعا يوماً كاراكلا أخاه الى غرفة والدتهما بحجة الرغبة بإزالة التباعد وتحقيق المصالحة والتقارب .

فلما دخل جيتا على والدته وثب كاراكلا عليه ، فاحتمى جيتا في حضن والدته ، فهجم كاراكلا عليهما وبين ذراعي الوالدة فتك كاراكلا بأخيه .

وما انفضح امر تلك الجريمة المنكرة حتى هاج الشعب وماج فخشي كاراكلا سوء العاقبة فقصد الى مستشار الدولة بابينيانوس ، حجة العلم

---

(١) هو صهر سبتيموس سافيروس لزوجته الثانية جوليا دومنا .

والعلماء ، وتوسل اليه ان يبدي رأياً قانونياً امام مجلس الشيوخ ينتحل فيه عذراً لكاراكلا تبريراً للجريمة . فأبت على بابينيانوس نبالة خلقه ان يذعن للأمر وأعطى الامبراطور جواباً ارسله مثلا بقوله :

« أسهل على المرء ان يقتل أخاه من أن يجد مبرراً لقتله » .

فثار غضب كاراكلا على بابينيانوس وثنّى على الجريمة الاولى بجريمة أخرى فأمر بقطع رأس بابينيانوس فقطع .

يعتبر العلماء ان بابينيانوس المع نجم سطع في علم القانون . قال الاستاذ جاستون ماي في مؤلفه « الحق الروماني » (الطبعة الحادية عشرة ص ٥٢) ما خلاصته معرباً :

« كان بابينيانوس صديق الامبراطور سبتيموس سافيروس ومستشاره
« الحميم . وقد اسند اليه وظيفة قاضي القضاة . وكان بابينيانوس
« يعتبر في زمانه كما اعتبرته الأزمنة التالية أكبر متشرع عرفته
« روما » .

وقال (ص ٥٢٤) : « ان النظريات القانونية الواسعة الأفق بلغت الأوج في مؤلفات بابينيانوس وألقت على العلم ، بحسن الانتقاء والاختيار ، نوراً لم يعهد له مثيل من قبل » .

اوليبانوس : ولد في صور سنة ١٧٠ م ، وتتلمذ على بابينيانوس فنبغ في علم الحقوق وما عتّم ان صار نداً لمعلمه . فعُين أستاذاً مثله في مدرسة بيروت ، فوضع في الحقوق مائتين وثمانين مؤلفاً . وعُين في روما معاوناً لبابينيانوس في مجلس القضاء الأعلى ثم عين وصياً على ابن وطنه اللبناني اسكندر سافيروس الذي صار في ما بعد امبراطوراً فكان أول عمل أتاه ذلك الامبراطور أن عيّن وصيه القديم اوليبانوس « قاضي القضاة » ومستشار الامبراطورية كما كان بابينيانوس على عهد سبتيموس .

لكن المنزلة التي بلغ اليها اوليبانوس هاجت عصبية الناقمين من الرومان ولم يرق لهم أن يجلس على عرش القياصرة امبراطور لبناني ، وأن يقوم إلى جنبه لبناني آخر في أكبر مركز قضائي وأعلى مرتبة ادارية .

فما زالوا يكيدون لاولبيانوس حتى توصلوا إلى الفتك به سنة ٢٢٨ .

وتفصيل الخبر ان اولبيانوس علم بمؤامرة الثائرين عليه ففزع الى قصر الامبراطور اسكندر سافيروس وأمر الحرس فأقفلوا الأبواب . فلحق به الثائرون ، واذ وجدوا أبواب القصر موصدة ، هجموا عليها فكسروها وتخطوا باحة القصر الى غرفة ومنها الى قاعة العرش حيث كان اولبيانوس لائذاً بالامبراطور . فلما رأى الامبراطور الثائرين وما كانوا عليه من هياج نزع عنه وشاحه الارجواني ولف به صديقه ومواطنه اوليبانوس وهو يعتقد ان هيبة العرش وحرمة الوشاح الامبراطوري ترهبان القتلة وتكسران من حدتهم . لكنهم هجموا على اوليبانوس وأثخنوه جراحاً حتى قتلوه وهو بين يدي الامبراطور نفسه .

الامبراطور اسكندر سافيروس : ولد اسكندر سافيروس في عرقا من بلاد عكار سنة ٢٠٨ م. وهو يمت بالنسب من أمه إلى الامبراطور سبتيموس سافيروس وهليو جبل وكاراكلا وجيتا .

أخذ العلم والخلق الكريم عن وصيه وابن وطنه اللبناني اوليبانوس .

ارتقى العرش سنة ٢٢٢ ودام له الملك حتى سنة ٢٣٥ .

ان لاسكندر سافيروس في التاريخ صفحة من أجمل صفحات الأباطرة الرومانيين . ما أن استلم زمام السلطان حتى أحاط العرش بهالة من أهل العلم في مقدمتهم اوليبانوس ويوليوس بولس ولم يكن يصدر شرعة الا بعد أن يأخذ فيها رأي مجلس استشاري يضم عشرين عالماً من علماء الحقوق .

من مآثره أنه أنشأ نقابات للعمال وللصناع ومنحهم حقوقاً تساعدهم على مزاولة أعمالهم وتسهل لهم النجاح والنبوغ . ووجّه عناية خاصة الى حاجات الشعب في المعيشة وأسباب الراحة ، وأغدق المساعدات والمرتبات على المعلمين والمزارعين والتجار . واهتّم بتنظيم الجيش ورفع مستواه فألّف كتيبة ممتازة من ثلاثين ألف مقاتل وأنشأ فرقة « الحرس » وجعل دروعها من فضة وذهب .

كانت ديانته الوثنية كديانة أسلافه . على أن سعة صدره وسعت

للمسيحيين مكاناً ، فباتوا على عهده يمارسون شعائرهم الدينية ولا يصيبهم اضطهاد . وبلغت منه الرحابة انه أقام الكثيرين منهم في وظائف البلاط الامبراطوري .

وكانت تروق له تعاليم المسيح فنقش على كثير من المعاهد العامة الآية المسيحية القائلة « لا تعمل بالغير ما لا تريد أن يعمله الغير بك » .

وكان الامبراطور اسكندر سافيروس في انطاكية حين جاءته الأنباء ان الجرمان سيتحركون على حدود الامبراطورية في اوروبا وانه يخشى خطرهم فبادر الامبراطور الى تعبئة جيش لجب زحف به الى حيث موطن الخطر ، فقطع غالية ، وعبر نهر الرين على جسر من المراكب وقبل أن يهجم على الأعداء وقع خلاف بينه وبين قوّاد جيشه على الخطة الواجب اتباعها ، وكانت الدسائس تدس على الامبراطور وتحاك المؤامرات فأتاح ذلك الخلاف الفرصة لثورة نشبت فقتل في معسكره سنة ٢٣٥ .

لم يقتصر لمعان لبنان في تلك الحقبة على علماء القانون ومدرسة بيروت ، بل امتد الى غيرها من المدن وإلى سائر فروع العلم والأدب خصوصاً إلى حقل الفلسفة فنبغ فيها « بورفيروس الصوري » ، نسبة الى بلدته صور ، حيث ولد سنة ٢٣٢ م . ومن جميل تعلقه بوطنه ومفاخرته به ان اسمه كان في الأصل ملكوس ، فبدله باسم « بورفيروس » وهي كلمة يونانية تعني الأرجوان اشارة الى اختراع الارجوان في وطنه اللبناني الفينيقي. ولم يكتف بهذه الاشارة حتى انتسب بنوع خاص الى بلدته فصار اسمه « بورفيروس الصوري » . وقد كان وثنياً وخصماً لدوداً للمسيحيين . فكتب ضدهم خمسة عشر كتاباً . وله مؤلفات عديدة غيرها في الفلسفة وقد نحا فيها نحو الفيلسوف افلوطين . وقد بلغ من احترام أفلوطين له ان كلفه بمراجعة مؤلفاته وتنقيحها . توفي في روما سنة ٣٠٤ .

ولم يفقد اللبنانيون في عهد رومة وبيزنطية تقاليدهم في التجارة عبر البحار . فقام تجارهم ، خصوصاً من أهالي جبيل وبيروت وصور ،

يحملون مصنوعات البلاد وبضائعها ومحصولاتها وينقلونها كما كان ينقلها آباؤهم الى ثغور افريقيا واوروبا .

وقد اشتهرت بيروت في تلك الحقبة في حقل الاقتصاد فأصبحت ميناؤها مرفأ الشرق المتوسط يقصد اليها المسافرون من البلاد المجاورة ومصر واليونان وايطاليا وبيزنطية . وترد اليها تجارة ما بين النهرين والبلاد العربية ومنها تصدر الى البلاد الاجنبية .

وكان للتجار اللبنانيين محلات أنشأوها في الكثير من مدن ايطاليا واسبانيا وفرنسا . وكان أهم تلك المحلات في بوردو وليون واورليان وباريس .

وكثرت الجاليات اللبنانية في تلك الاقاليم حتى ان الجالية البيروتية في مدينة بوزولي (ايطاليا) في القرن الثاني ق . م . أقامت نصباً للمشتري الأعظم إله بيروت الوثني (١) .

ومن معجزات الهندسة والبناء في لبنان هيكل بعلبك . وقد تعاقبت عليه الدهور منذ الفينيقيين وقد ذكر المنقبون ان مهندسي الهيكل وبناته وعماله كانوا على توالي العصور لبنانيين .

وقد زار لامرتين بعلبك فوقف مندهشاً أمام هيكلها الرائع وكتب في وصفه صفحات ممتعة ورد فيها ما تعريبه ملخصاً :

« أفقنا مع الشمس وهي ترسل أشعتها الاولى على هيكل بعلبك فتلقي على تلك الآثار الخفية أسرارها وهجاً من حياة فتية تتفنن الطبيعة في حفظه حيث تريد رغم تهديم الزمن . إزاء ذلك المشهد لا يبقى للمرء من قوة غير الصمت ، وهو يحس أن ما يشعر به يفوق الحاسات العادية . فوقفنا صامتين امام روعة تلك العواميد نقيس بالنظر قطرها وعلوها ويدهشنا ما نراه من نحت ونقش وتزيين ... » .

(١) روى القديس غريغوريوس اسقف طور انه لما اتى الملك جونتران بن كلوتير بن كلوفيس (٥٢٥-٥٩٣) لزيارة مدينة اورليان في فرنسا خرج الشعب لملاقاته داعين له باللاتينية والعبرانية والسريانية ، وهاتان اللغتان الاخيرتان كانتا لغتي الجالية اللبنانية ، مما يدل على كثرتها ومكانتها في تلك المدينة على عهد الملك جونتران .

وبعد أن أسهب في وصف ما رأى من مدهشات ومعجزات في ضخامة الحجارة والعواميد وفي تركيبها على علو لم يهتد العلم حتى الآن الى طريقة وضعها فيه قال : « على فرض أن الجنس البشري لم يتجاوز في تركيبه الحدود التي نجده عليها الآن ، فما يمنع ان يكون العقل البشري قد تغيرت حدوده . ما يمنع ان يكون الذكاء قداخترع في تلك العصور وسائل ميكانيكية أشد اتقاناً من الوسائل الآلية الحاضرة مكنت الانسان -- وهو كأنه يلعب بقبضة رمل — من تحريك أثقال لا يستطيع اليوم جيش عدده مئة ألف رجل من تحريكها .

« ومهما يكن من أمر فبعض حجارة بعلبك ، وطول الواحد منها ٦٢ قدماً وعرضه عشرون وضخامته خمسة عشر ، أعظم أثقال حركتها البشرية منذ بدء العالم . فان أضخم حجر في أهرام مصر لا يتجاوز ثماني عشرة قدماً .

« يا لسعادة الرجل الذي يتمكن — كأن له أجنحة يطير بها — من التحليق فوق الاعصر الخوالي فيحط — ولم يأخذه الدوران — على هذه البنايات المعجزة التي شادتها يد الانسان ، فيصوب من عليائها الى أعماق الفكر الانساني ومصائره ، فتقيس عينه الطريق التي قطعها العقل البشري وهو يخطو متلمساً سبيله في ايام اختلط قبسها بديجورها من فلسفة ودين واشتراع وقد تكدست اجتهاداتها تثقل الأجيال ، ثم ينظر كالمسافر بحراً إلى آفاق لا تظهر فيها الشواطىء فيتساءل في أي فترة من الزمن يعيش وما هي مظاهر الحقيقة والألوهية التي يدعو الله اليها الجيل الحاضر. لقد ذهبت وحدي أمس ووقفت على شرفة الهيكل في ضوء القمر أفتكر وأبكي وأصلي ... »

وفي الجيل الرابع نبغ معلم الخطابة « ليبانوس » وكان يدرس اصولها في انطاكية . ولا يبعد ان يكون ليبانوس لبناني الأصل كما يدل اسمه ، فضلا عن انه كان على اتصال وثيق بلبنان وله في بيروت اصدقاء بين علية القوم واساتذة مدرسة الحقوق وكان يرسل اليهم كتب التوصية بالتلاميذ الذين يوجههم الى بيروت وله عن تلك المدينة كتابات شائقة

تنم عن عاطفة قلّ أن تكون لأجنبي غريب .

ومن الملوك الذين ذاعت شهرتهم الامبراطور قسطنطين الكبير . وقد اضطر بعد وفاة أبيه إلى تنازع الملك وستة مطالبين بالعرش . فحاربهم حتى تخلص منهم الواحد تلو الآخر واستقل بالملك سنة ٣٢٣ م.

ومما يؤثر عنه ان حرر الدين المسيحي من ربقة اضطهاد الوثنيين اذ نشر ، وهو لا يزال على وثنيته ، القرار المعروف بقرار ميلانو سنة ٣١٣ وفيه أطلق للدين المسيحي الحرية ، دون قيد ولا شرط . وعلى أثر استقلاله بالملك اعلن اعتناقه للمسيحية . وحارب البدع فأمر بعقد مجمع نيقوس سنة ٣٢٥ وفيه حرمت بدعة أريوس القائلة بعدم ألوهية المسيح .

وقد جعل قسطنطين الكبير بيزنطية عاصمة الملك الاولى وأطلق عليها اسمه فعرفت منذ ذلك الحين بمدينة القسطنطينية . وكانت وفاته سنة ٣٣٧ .

على أثر اعتناق قسطنطين الكبير للنصرانية تغيرت الاحوال الدينية في الامبراطورية . فأخذت أقوامها في مشارق الأرض ومغاربها تتهافت على نكران الوثنية والانضمام الى المسيحية . وراحت كل مدينة وكل قرية تحطم اصنامها وتضع مكانها تماثيل للدين الجديد . فلم يمض زمن حتى اصبحت الهياكل كنائس ، وانقلبت اعياد الأصنام أعياداً للقديسين . والناس على دين ملوكهم .

على أن ما ظهر في الدين الجديد من بدع وما قام فيه من شيع أدى الى البلبلة والاضطرابات في الامبراطورية فتفرقت وحدتها وتفكك تنظيمها فلما توفي الامبراطور تاودوسيوس سنة ٣٩٥ اقتسم ولداه الامبراطورية من بعده فاختص الواحد بامبراطورية الغرب وعاصمتها روما واستقل الثاني بامبراطورية الشرق وعاصمتها القسطنطينية .

وقد اطلقت على امبراطورية الشرق اسماء عديدة منها اسم الامبراطورية السفلى ، وامبراطورية بيزنطية ، وامبراطورية القسطنطينية. وكانت اللاتينية لغة الامبراطورية الغربية . وكانت اليونانية لغة

الامبراطورية الشرقية الى جنب اللغة السريانية لغة الشعب . وظلت اللغة اللاتينية تستعمل للتدريس في المدارس العالية كمدرسة الحقوق في بيروت .

وفي نطاق امبراطورية القسطنطينية دخل الشرق محيط المتوسط بما فيه لبنان .

في الجيل الرابع كان الدين المسيحي قد انتشر في الامبراطورية الشرقية انتشاراً كبيراً واحتل الدين الجديد مراكز الوثنية بقعة إثر بقعة ، وبلغ لبنان فتغلغل بين قومه الوثنيين .

على أن الوثنية وجدت في لبنان معقلها الأخير فصمد فيه الوثنيون يمارسون شعائرهم بملء الحرية ، وزاد عددهم فيه بمن انضموا اليه قادمين من الجوار ، وقد ابوا تغيير دينهم واعتناق النصرانية .

قبل ظهور المسيح كانت الوثنية — عدا اليهود الموحدين بالله — شاملة للعالم كله فلم يكن مجال لجعل الدين فارقاً بين الشعوب . وكان يقسم الناس بين عبيد وأحرار . فالعبيد لا حقوق انسانية لهم . والاحرار فئات تميز بعضهم عن البعض الآخر نسبة القدر من الحقوق التي كانت كل فئة تتمتع بها ، من مواطنين لهم الحقوق السياسية المؤهلة لاستلام الحكم ، الى اللاتين اصحاب حقوق سياسية ضيقة لا تجيز لهم ممارسة الحكم ، إلى أجانب يعتبرون رعايا في الامبراطورية لا يتمتعون بشيء من الحقوق السياسية .

فلما انتشر الدين المسيحي في الامبراطورية وقام فيها وثنيون ومسيحيون كان من الطبيعي ان يصبح الدين هو الجامع في كل من الفئتين .

ثم ظهرت بدع بين المسيحيين فانقسموا مذاهب كالأريوسيين والنسطوريين واليعاقبة والمونوتيليين . وبلغ التعصب الديني او المذهبي حداً لم يبق معه مجال لسكنى عقيدتين او مذهبين في بقعة واحدة . فكانت كل أغلبية دينية او مذهبية في بقعة تضطهد الاقلية فيها .

وكان لبنان وحده الموطن الذي تسود فيه حرية المعتقد . فيه التقى

الوثنيون والمسيحيون . وفيه ظل كل فريق يمارس دينه حراً أميناً لا يتعرض لجاره في رأيه وعقيدته . وقد ظل هذا شأنهم طوال ستة أجيال . كان اللبنانيون مثلا في بيروت يحتفلون بقيامة المسيح بينما كان اللبنانيون في جبيل وجرودها يحتفلون ببعث أدونيس ويرددون هزيج الأجيال للإله الجميل وحبيبته عشتروت .

ومنذ ذاك العهد بدأ التنسك ينتشر في لبنان على غرار القديس انطونيوس الكبير في الصعيد المصري وكثرت المناسك بين صور وصيدا وفي البقاع وفي الشمال . وكان الزهاد فيها ينقطعون الى عبادة الله ممهدين الطريق أمام نشأة الرهبانيات .

كان تكاثر المؤلفات الحقوقية ، وتزايد القرارات الامبراطورية ، وتعدد المراسيم المحلية في طول الولايات وعرضها ، سبباً في اضطراب الشرائع وبلبلة الأحكام . فرأى امبراطور القسطنطينية تاودوسيوس الثاني ان يعلن سنة ٤٢٦ « شرعة المراجع » بغية الحد من ذلك الاضطراب وتلك البلبلة. فحصرت الشرعة المذكورة المراجع التي يمكن للقضاة الرجوع اليها بخمسة علماء هم أساتذة مدرسة بيروت : بابينيانوس واوليبيانوس وجايوس يضاف اليهم يوليوس بولس ومودستينوس . وقد ورد في الشرعة أنه إذا أجمع هؤلاء الأقطاب الخمسة على رأي فرأيهم واجب الاتباع . واذا اختلفت الآراء يُعتمد رأي الأكثرية ، وإذا تعادلت الآراء يرجح بابينيانوس .

وظل القضاء يعمل بتلك الشرعة حتى ارتقى عرش امبراطورية الشرق يوستينيانوس الأول (٥٢٧–٥٦٥) فرأى ان شرعة تاودوسيوس الثاني لم تعد تفي بالحاجة ، فعمد الى إصلاح أعم تناول الشرعة والشرع . فوضعت القرارات والمراسيم في مواد تألف منها القانون المعروف بقانون يوستينيانوس سنة ٥٢٩ . وعين الامبراطور لجنة وكل اليها أن تأخذ من مؤلفات الأقطاب الخمسة النصوص والقواعد والنظريات التي تصلح ان تكون الأسس التي يبنى عليها تعليم الحقوق في المدارس والمستند الذي يستند اليه القضاة في أحكامهم ، والنور الذي يهتدي به

المشترع في قراراته ومراسيمه وشرعاته .

وكان من أبرز أعضاء اللجنة استاذان من مدرسة حقوق بيروت وهما دوروتيوس واناطوليوس . وفي المرسوم الذي صدر بتعيين اللجنة ذكر الامبراطور يوستينيانوس الأسباب التي دعته الى اختيارهما. قال عن دوروتيوس :

« دوروتيوس الرجل المشهور والخطيب الكبير ومدير المال سابقاً
« استاذ الحقوق في مدينة بيروت البديعة ، وقد حملنا على استقدامه
« الينا وتكليفه المعاونة في هذا العمل ما اتصل بنا عن شهرته الذائعة
« وعن مجده » .

وقال عن اناطوليوس :

« واناطوليوس هو أيضاً استاذ مشهور عني بتدريس الحقوق في
« بيروت وقد استدعيناه للمعاونة في هذا العمل . وهو رجل ينتسب
« الى عائلة قديمة لها شهرتها في عالم القانون من والده لايونسيو
« الى جده أودوكسيو » .

وقد قامت اللجنة بمهمتها فوضعت المجموعة القانونية المعروفة بالحق اليوستينياني وهي مؤلفة من الديجست أو البديكت (الكليات) عبارة عن خمسين مجلداً تحتوي على نصوص مأخوذة من مؤلفات الأقطاب الخمسة لتكون الاساس الذي يبنى عليه الاشتراع والقضاء والاجتهاد .

ثم الانستيتوتس (الحقوق الخاصة) وهي القواعد الموجبة في ما يتعلق بالحقوق الخاصة بالاشخاص والأشياء كحق الملكية ووسائل الحصول عليها بالارتفاق او بوضع اليد وبالوصية . وحق الارث والموجبات والعقود . والموجبات الناتجة عن جرم أو شبه جرم أو عمل .

وأخيراً النوفيلس (المستجدات) وهي مجموعة القرارات والمراسيم التي أصدرها يوستينيانوس بعد نشر الكليات والحقوق الخاصة . وقد صدرت معظم المستجدات باللغة اللاتينية وصدر بعضها باللغة اليونانية .

والحق اليوستينياني هذا هو المرجع العام الذي يُرجع اليه منذ ألف

وأربعماية سنة علماء الحقوق وأساتذة الكليات ، وقضاة المحاكم ، في العالم القديم وفي العالم الجديد .

وهذا « الحق اليوستينياني » يعود معظم الفضل فيه الى مدرسة بيروت لان ثلاثة من الاقطاب الخمسة اساتذة مدرسة بيروت في الجيل الثالث وهم بابينيانوس واوليبانوس وجايوس . واحدهم بابينيانوس قطب الأقطاب ومرجع جميع العلماء بلا استثناء . ولان عضوي اللجنة البارزين في الجيل السادس استاذان في مدرسة بيروت أيضاً هما دوروتيوس واناطوليوس .

ولم يأفل نجم مدرسة بيروت خلال تلك الأجيال الثلاثة بل ظلت منارة للعلم في الشرق على ما أثبته الباحثون والمؤرخون .

وكان الأباطرة والكتاب اذا ذكروا بيروت في مراسيمهم وكتاباتهم نعتوها بأجمل النعوت فقالوا : « المدينة الفائقة الجمال ، المتناهية في الأناقة » . وقد منح الاباطرة مدرسة بيروت الامتياز الفخري بأن تكون مدرسة الدولة . وأطلقوا على أساتذتها لقب الأساتذة المسكونيين .

وقد وضع المسيو بول كولينه استاذ الحقوق في كلية باريس مؤلفاً عن تاريخ مدرسة بيروت ورد فيه ما خلاصته : « ان الباحثين الذين كتبوا عن الحق البيزنطي وعن الأصول التي يرجع اليها الحق الروماني او تاريخ تعليمه أعلنوا جميعاً أن مدرسة الحقوق في بيروت سواء نظرت اليها على عهد الدولة البيزنطية او قبل يوستينيانوس أو بعده تجد انه كان لها المقام الأول في تعليم الحقوق . وكان الشرق يومئذ مبعثاً للعلم لا يضارعه فيه الغرب . وفي الشرق كان نور مدرسة بيروت أشد تألقاً وكان إشعاعها أبعد مجالا من مدارس الاسكندرية وقيصرية واثينا وحتى من مدرسة العاصمة ذاتها القسطنطينية » .

وكتب زخريا أسقف ميتيلين عن مدرسة بيروت ، في ما كتب ، محاورة تصور انها جرت بينه وبين تلميذ جاء يدرس الحقوق في بيروت ، قال مخاطباً التلميذ :

— ماذا حملك على ترك وادي النيل ومدينة الاسكندرية العظيمة

للمجيء الى هنا .

التلميذ : حملني حب القوانين الى « ام القوانين » جئت الى فينيقيا حتى أتعلم كيف فهم الحقوق المشترعون الرومانيون لانني أحب أن أتعلم الحق والقانون .

وقال في مكان آخر (ص ٧٩) « ولم تقتصر جامعة الطلاب في مدرسة الحقوق يوماً على ابناء المدينة او ابناء سوريا وفينيقيا حتى ولا على التلاميذ القادمين من الولايات المجاورة او من داخلية البلاد . كان الطلاب يقصدون الى بيروت من كل الولايات التي كانت تتألف منها امبراطورية الشرق في آسيا ، في افريقيا ، حتى في أوروبا» .

ومن نوابغ تلامذة بيروت الاسقف القديس غريغوريوس العجائبي والبطريرك القديس غريغوريوس النازيانسي وزخريا اسقف ميتيلين وسفيروس بطريرك انطاكية اليعقوبي .

وبينا بيروت تلمع في الشرق حضارة ورقياً ، وتوزع كليتها العلوم على شعوب الامبراطورية جميعاً اذا بزلزال هائل يجتاحها سنة ٥٥١ فيدمرها تدميراً ، فتصبح بعد ذلك العز قاعاً صفصفاً .

وقد ورد في كتاب كولينه (ص ٥٦) عن اغاتيا وصف لتلك الفاجعة قال : « بيروت بؤبؤ عين فينيقيا نزع عنها جمالها الفتان . قصورها الشاهقة التي طار صيتها في الأمصار زينة الفن والاتقان قد تهدمت . لم يسلم منها قصر . لم يبق منها الا أنقاض . كثيرون من أهاليها ومن الأجانب المقيمين فيها هلكوا تحت الردم . ومن أشد فواجعها إيلاماً ان عدداً كبيراً من الشبان الأجانب المنتمين الى البيوتات النبيلة الممتازين بآدابهم العالية ، وقد قصدوا الى بيروت ليدرسوا فيها الحق الروماني ، قد هلكوا أيضاً .

وكان من المعروف ان لهذه المدينة خاصة لا تنازع وامتيازاً لا يعادله امتياز ان فيها تلك المدرسة الذائعة الصيت » .

دمرت المدينة ولقي فيها حتفهم ثلاثون ألف نسمة . نقلت مدرسة الحقوق إلى صيدا بانتظار تعمير بيروت . وفي الواقع أعيد بناء المدينة

لا كما كانت عليه ، بل وفقاً لهندسة مماثلة . وكان قد تحدد موعد لتدشين المدينة الجديدة والاحتفال برجوع الاساتذة إلى المدرسة فحال دون كل ذلك أن حريقاً شب سنة ٥٦٠ فالتهم البنايات التي كانت أقيمت .

المسيحيـــة

في أوائل الجيل الخامس حلت الديانة المسيحية محل الوثنية في معظم الامبراطورية الشرقية ، لكن ازدياد البدع ما لبث أن مزق صفوف المسيحيين أنفسهم . وكان أشد تلك المنازعات خطورة في الشرق الأوسط ، حيث قامت الاريوسية والنسطورية والمونوفيسية والمونوتيلية .

كان الاريوسيون ينكرون ألوهية المسيح وقد حرمهم مجمع نيقوس سنة ٣٢٥ ثم مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ .

كان النساطرة يقولون بأقنومين مختلفين في السيد المسيح وينكرون على مريم أنها والدة الله فحرمهم مجمع أفسس سنة ٤٣١ .

وادعى المونوفيسيون أو « اليعاقبة » أن في المسيح طبيعة واحدة فحرمهم المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١ . وقام منهم بطريرك انطاكية سفيروس سنة ٥١٢ ، وكان من تلامذة كلية بيروت ، ودافع عن العقيدة المونوفيسية فحرمه مجمع القسطنطينية سنة ٥٣٦ .

وقال المونوتيليون بالمشيئة الواحدة فحرمهم المجمع القسطنطيني سنة ٦٨٠ .

وكان اليعاقبة في شمالي سوريا ينعمون بتأييد السلطات المدنية فقويت شوكتهم ، وأخذوا يضطهدون من يخالفهم من المسيحيين في العقيدة . وقد كان في أولئك المخالفين مارون الناسك ورهبانه وأشياعهم ، وهم يسكنون جهات نهر العاصي .

وكان من المعروف في الشرق الأوسط أن لبنان من قديم الزمان موئل حرية وأمان وملجأ كل أصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يعايشونها فيلقون جوراً منها .

فلما ضاق الأمر بالموارنة لم يبق أمامهم الا الهجرة . وكما فعل

الوثنيون فعل الموارنة . هجروا إلى لبنان في أواخر الجيل السادس هرباً من اضطهاد اليعاقبة . وفي لبنان تسنى للموارنة أن يجدوا الحرية التي جاؤا ينشدون . فأقاموا بأمان يمارسون شعائرهم الدينية براحة واطمئنان وأخذوا يبشرون بدينهم ومذهبهم أهالي لبنان . فما عتموا أن استمالوا معظم السكان . فسهلت وحدة الدين اندغام القوم حتى أصبح الجميع يشعرون أنهم شعب لبناني واحد يتضامن في السراء والضراء ، لا يفرق بينهم دين ولا مذهب .

وكان العبيد في تلك الأيام يملأون المدن والقرى فلا يخلو بيت وجيه من عبيد . والعبد ، على ما هو معروف ، كان في بيت سيده متاعاً يتصرف فيه على هواه ويسوم السيد عبده الظلم ألواناً ، ويذيقه العذاب أشكالا حتى القتل ولا من يسأل السيد عن عبده .

ولم يكن كل العبيد من سود افريقيا بل كان الكثيرون منهم سبايا حروب وقد استعبدوا رجالا ونساء ، فتياناً أولاداً وبنات ، من مختلف الشعوب وجميع الطبقات . كل اولئك العبيد والمستعبدين كانوا يرزحون تحت أثقال الظلم . فكان اذا أسعف الحظ بعضهم ، فر إلى لبنان في طلب الحرية لائذاً بحماه ممتنعاً في جباله لا تصل اليه يد الاضطهاد .

هكذا — من الوثنيين ، الى الموارنة ، الى العبيد ، الى المستعبدين — كان يلجأ الى لبنان كل من لحق به جور في البلاد المجاورة لسبب ديني ، أو لسبب زمني ، أفراداً وجماعات .

أولئك جميعاً على اختلاف الأديان والملل والشعوب والمذاهب ، كانوا يهجرون السهول الواسعة والمروج الزاهية ، قاصدين إلى أودية لبنان وأغواره وأنجاده وصخوره مكتفين من العيش فيه أنه موئل للحرية ومعقل للأمان .

وهذا ما أشار اليه كتاب « لبنان » ، الذي وضع أثناء الحرب العالمية الأولى تحت اشراف اسماعيل حقي بك التركي ، وقد ورد فيه حرفياً :

« كان لبنان منذ ذلك العهد (٥١٧ م) ملجأ للطرداء . فالتاريخ

« يذكر عن أنستاس القيصر أنه طرد من القسطنطينية راهبات كن « يدافعن عن المجمع الخلقيدوني فقصدن لبنان واتخذن لهن فيه « مسكناً ، وعطرنه بعرف فضائلهن » .

المـــردة

وفي ذلك العهد يذكر التاريخ وجود قوم في لبنان عرفوا باسم « المردة » ومؤرخو العرب يسمونهم « الجراجمة » .

اختلف الباحثون في أصل المردة وتاريخهم . على أن المعروف عنهم أنهم فئة من اللبنانيين ، أدغمهم بعض المنقبين بالموارنة . وجاء في مطول « لاروس » أن المردة هو اسم الموارنة القديم . وقيل فيهم إنهم كانوا رجال حرب ، شديدي البأس ، مرهوبي الجانب ، وقد أقاموا وتناسلوا في لبنان يمنعونه حصناً ويصونونه معقلا حتى ورد في بعض المؤرخين نعتهم « بالسد النحاسي »

ومهما يكن من أصل المردة ونسبهم فلم يذكر عنهم أعمال تؤثر إلا في لبنان . فصفحة تاريخهم صفحة لبنانية . شأنهم فيها شأن من عرفوا قبلهم باسم فينيقيين وانحصر تاريخهم بلبنان .

ولئن لم يكن المردة والموارنة ، شعباً واحداً فقد امتزجوا امتزاج الماء بالخمر (تسريح الابصار ج ٢ ص ٤٨) .

ومن لبنان انتقلت جالية مارونية الى قبرص — في القرن الحادي عشر وبنت فيها ثلاثين ضيعة وجالية الى رودس على عهد الفرسان وجالية الى مالطة حفظت اللغة العربية حتى القرن السادس عشر .

النهـــاية

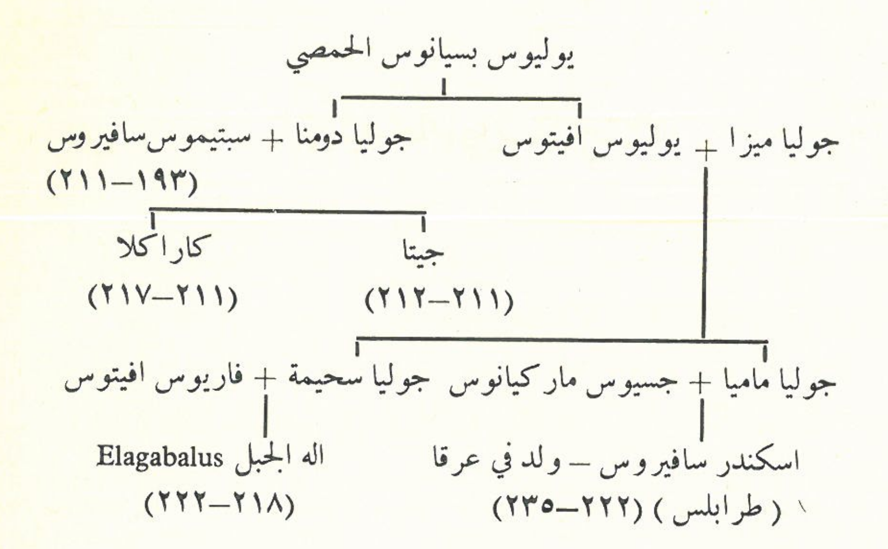
كان الضعف الذي اعترى الامبراطورية الشرقية يزيد تفاقماً حتى اختلت آلة الحكم ، وتقلقلت قوى الجيش ، فأصبح ذلك الملك الواسع العظيم هدفاً لمطامع الجيران . وقد ساعد على تفكك عرى الامبراطورية نشوء البدع والخلافات التي فرقت بين المسيحيين . وشعرت الشعوب

المجاورة بذلك الضعف فاستقوت وحاولت أن تعتدي على حدود الامبراطورية ، وكان الفرس أشد هؤلاء خطراً فأخذوا يشنون على أطراف الامبراطورية غارات متتالية في الجهات الشرقية الشمالية من البلاد الشامية . وقام كسرى انوشروان سنة ٥٤٠ بحملة قدرت بتسعين ألف مقاتل . جاء عن طريق منبج (هيارابوليس) في اتجاه حلب (بيره) فاحتلها وأحرقها وواصل زحفه على انطاكية ففتحها ودخلها ظافراً . وظل الفرس يتنقلون من فتح الى فتح حتى دخلوا اورشليم سنة ٦١٤ واستولوا فيها على عود الصليب .

على أن الامبراطور هرقل تمكن بعد معارك دامت سنوات من اجلاء الفرس واسترجاع عود الصليب واعادته الى اورشليم سنة ٦٢٨ أو ٦٣٨ . والمسيحيون لا يزالون يحتفلون بتلك الذكرى في ذكرى عيد الصليب في ١٤ ايلول من كل سنة .

لكن ذلك النصر لم يُعد الى الامبراطورية قوتها ولا استرجع لها هيبتها . بل كانت تلك الجهود المتواصلة وتلك التضحيات المرهقة التي كلفها النصر عاملا قوياً في ازدياد انحطاطها ، خصوصاً في ذلك الاقليم من الشرق المتوسط . فأصبح الملك على ذلك الضعف والانحطاط لقمة سائغة مهد انهيار السلطة للغزوة العربية .

شجرة الاسرة السورية اللبنانية



الفَتحُ العَرَبي والصّليبيّون

لبنان والفتح العربي

كان العرب في الجزيرة قبل الاسلام يدينون بالوثنية . وكان مجموعهم يجهل كل شيء عن الاله الواحد وصفاته فقيل فيهم « الجاهلية ». وكان صنمهم الاكبر في مكة يحجون اليه . وكانوا قبائل موزعة بين بدو وحضر . فالبدو أهل البادية ينزلون الخيام ويرحلون من مكان إلى مكان وفقاً للحاجة وسيراً مع فصول السنة . والحضر سكان المدن وأهمها مكة ويثرب . وكانت مكة مركز التجارة ، ويثرب مركز الصناعة . وكانت القوافل تروح وتجيء بين البحار المحيطة بالعرب من بحر عمان جنوباً الى خليج العجم شرقاً ، الى البحر الأحمر غرباً إلى الأبيض المتوسط شمالا ، ومنها شبه الجزيرة العربية .

وكانت القوافل تنقل وتروي ما ترى وتسمع عن كل بلد تصل اليه وتتاجر معه . وكان أهمها قوافل خديجة . وأجمع الحديث على فيض الخيرات والعمران في البلاد السورية فلقبها العرب « ببلاد الخمر والخمير » . ونقل رواة القوافل الشيء الكثير عن ظاهرات التفكك التي كانت تبدو على الدولة البيزنطية ، خصوصاً في تلك المنطقة ، حيث كانت المسيحية قد حلت محل الوثنية . وكانت الانشقاقات والمنازعات بين المسيحية قد بلغت حدّها وزادت في تفكك السلطة .

في ذلك العهد ، في مستهل القرن السابع للمسيح ، جاء محمد (صلعم) يدعو قومه الى ترك عبادة الأوثان ، والايمان بوحدانية الله . فلقيت دعوته في البداية مشقة منتظرة بين اولئك الوثنيين ، فاضطر الى هجر مكة والالتجاء الى يثرب (المدينة) . ومن ثم قيل « الهجرة » وقد وقعت سنة ٦٢٢ ، وهي بداية الحساب الهجري .

ما عتمت الدعوة ان انتشرت وأخذ بها الكثيرون فالتف حول

محمد (صلعم) الأنصار وما زالت تقوى شوكتهم حتى تمكن من الرجوع على رأسهم إلى مكة ظافراً سنة ٦٢٩ . فحطم الأصنام وألغى عبادة الأوثان وأقام الاسلام على أنقاضها .

نفخ الدين الجديد في العرب روحاً جديدة فنشطوا الى مناوأة الروم . وكانت قد ضعفت شوكة الامبراطورية البيزنطية . فكانت المناوشة الأولى التي فاز فيها العرب سنة ٦٣٣ . فأثار الفوز في نفوسهم طموحاً فجمعوا جموعهم وأطلقوا هجوماً عنيفاً على جيش الروم سنة ٦٣٦ فسحقوه على اليرموك وهو من روافد نهر الأردن في فلسطين .

وابتسم النصر للعرب فساروا من ظفر الى ظفر حتى تمكنوا من اجلاء الجيوش البيزنطية عن البلاد الشامية ، ثم عن الاقطار العراقية ، وبلغوا وادي النيل فاحتلوه سنة ٦٤٠ ، كما احتلوا بعدها بلاد فارس .

وكان على رأس الفاتحين قوّاد حفظ التاريخ اسماءهم بالتقدير والاعجاب كخالد ابن الوليد وعبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص .

عيّن عمر بن الخطّاب معاوية والياً على سوريا ٦٣٩ . فرأى ان الروم بعد تلك الانكسارات التي منوا بها لن يستطيعوا الى تهديد العرب في البر سبيلا . لكن للروم اسطولاً في البحر لا يستهان به ، والشواطىء عرضة لهجمات الاسطول اذا لم يحمها اسطول اقوى . فلم يكن بدّ من الاستعانة باللبنانيين اسياد البحر القدماء ، لان البدو اهل مراس وشكيمة في الصحراء وفي حروب البر ، لكنهم لم يألفوا ركوب الاساطيل وخوض البحار .

بنى اللبنانيون الاسطول المطلوب واطمأن اليهم معاوية في القيادة والملاحة ، وشاء ان يشجّع الجنود العرب على قحم المياه فنزل بنفسه الى السفينة الاولى مصطحباً امرأته وحاشيته. فكان يوم تدشين الاسطول برئاسة معاوية يوماً مشهوداً . واتحد الاسطول المبحر من الموانىء اللبنانية بالاسطول الجاهز في المياه المصرية . وكان عمرو بن العاص قد فتح وادي النيل . والتقى الاسطولان بالاسطول الرومي على شواطىء بحر ايجه ، فكان النصر للعرب .

ولما نشر الفتح رايته المظفرة على سوريا والعراق ومصر وفارس اخذ سكان تلك البلاد، على ما جرت به العادة، يدخلون في دين الفاتح افواجاً . وكان الدين الجديد في انطلاقه كالدين المسيحي تبشيرياً عالمياً لا ينكمش على قومية او عنصرية ، ولا يفرق بين عربي وغير عربي وبين اقليم وآخر ، معتبراً ان المسلم اخ للمسلم، تمشياً على القاعدة التي سنتها تعاليم النبي وارشاداته (١) .

وظل لبنان في معظم ارجائه مقيماً على مسيحيته ، محتفظاً بحريته الدينية والمدنية . وكان اكثر من لم تمل بهم الدعوة او الرغبة الى تغيير ديني وشاءوا البقاء على مسيحيتهم في تلك الاقطار يقصدون الى لبنان .

الشيعـــة

توفي محمد سنة ٦٣٢ فخلفه ابو بكر والد زوجه عائشة وهي الملقبة بأم المؤمنين .

وتوفي ابو بكر سنة ٦٣٤ فخلفه عمر بن الخطّاب وقد قتله غلام فارسي اسمه لؤلؤة بن المغيرة سنة ٦٤٤ . وجاء بعده الخليفة عثمان بن عفّان ومات قتلاً سنة ٦٥٦ .

وقع تنازع على الخلافة بين علي زوج فاطمة بنت النبي وبين معاوية الاموي حاكم سوريا . فأدى ذلك التنازع الى قيام « شيعة » في الاسلام . كما سبق ان قامت البدع في النصرانية . فانقسم القوم بين « السنّة » في سوريا وعليها معاوية ، وبين « الشيعة » في العراق وعليها علي .

وكانت مواقع بين الفريقين انتهت بقتل علي سنة ٦٦١ فخلا الجو لمعاوية .

في ذلك الزمان كان التقارب او التباعد بين الناس يُبنى عادة على الدين اذا كان الامر بين دينين مختلفين ، او على المذهب اذا كان الامر

(١) من خطبة النبي في حجة الوداع قوله : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه . »

بين مذهبين مختلفين في دين واحد . فوقعت المنازعات بين الوثنيين والمسيحيين في الامبراطورية الغربية والشرقية . ووقع النزاع في مكة بين الوثنية والاسلام . وجرى الاقتتال الدامي في المسيحية بين اليعاقبة والموارنة . واصطلت نيران القتال في الاسلام بين السنّة والشيعة في سوريا والعراق .

وهكذا جرى التقارب بين لبنان وبيزنطية ، وقد اوجس اللبنانيون خشية من الفتح على حرياتهم ، فوقفوا يدافعون عنها . وقد اشار الى ذلك مؤرخو العرب الذين دوّنوا حوادث تلك الايام . فقد ورد في تاريخ « فتوح البلدان » للبلاذري ما نصه (١) :

« لما كانت ايام ابن زبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد
« الملك الخلافة بعده لتولية اياه عهده واستعداده للشخوص الى العراق
« لمحاربة مصعب بن الزبير خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها
« قائد من قوادهم . ثم صارت الى لبنان . وقد ضوت اليها جماعة
« كثيرة من الجراجمة (المردة) وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين .
« فاضطر عبد الملك الى ان يصالحهم على الف دينار في كل جمعة .
« وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته ، وتخوفه
« ان يخرج الى الشام فيغلب عليه . واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل
« بحرب اهل العراق . فأنه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالا . وذلك
« في سنة ٦٧٠ » .

لم تعترف الشيعة في العراق بمعاوية خليفة . وبايعت الحسن بن علي . لكن معاوية تمكن من استرضاء الحسن فلم يزاحمه على الخلافة . توفي الحسن فبايعت الشيعة اخاه الحسين . ولما توفي معاوية سنة ٦٨٠ وخلفه ابنه يزيد الاول ابى الحسين الاعتراف به وتحرك وانصاره يثير فتنة في العراق فارسل يزيد عليهم جيشاً التقى بهم في كربلاء حيث دارت معركة قتل فيها الحسين وذلك في ١٠ تشرين الاول سنة ٦٨٠م.

(١) ص. ١٦

١٠ محرم سنة ٦١ هجرية ، وهو يوم عاشوراء الذي يقدّس ذكره الشيعيون ويحتفلون به حتى اليوم .

واستتب الامر للامويين فبلغت خلافتهم الاوج في مستهل القرن الثامن على عهد الوليد الاول (٧٠٥–٧١٥) وقد امتدت حدود الدولة الى التركستان شرقاً ، والى اسبانيا غرباً .

تمّ فتح اسبانيا على الوجه الآتي :

بعد ان احتل عمرو بن العاص وادي النيل سنة ٦٤٠ واصل الفتح تقدمه في افريقيا ، واقام الخليفة الاموي عبد الملك سنة ٦٩٩ موسى بن نصير عاملاً عليها فتوغل عامل الخلفاء فيها حتى بلاد البربر وهم قوم ينتمون الى حام من الجنس الابيض . وكانوا قد اعتنقوا النصرانية . وعلى اثر الفتح دخلوا في الاسلام .

وتدرج موسى بن نصير في الغزو حتى بلغ الاوقيانوس الاطلنطي .

وكان الحكم على الضفة الاوروبية المقابلة في اسبانيا لعائلة من « القوط » (الفيزيقوط) ، توفي احد ملوكها المدعو ابن عطيشة (وتيزا) وله ولد اسمه اخيلا نودي به ملكاً بعد ابيه . لكن احد نبلاء « القوط » المدعو ذريق (الكونت رودريغ) خرج على اخيلا وتمكن من انتزاع الملك منه . فاضطر اخيلا الى مغادرة اسبانيا وقصد مع صحب له افريقيا ملتجئاً فيها الى الكونت جوليان الحاكم البيزنطي على مدينة سبته وهي واقعة على شرفة المضيق بين القارتين . وبعد ان اطلع الكونت جوليان على ما جرى لاخيلا نصحه بان يتصل بالعرب فقد يمدونه بمساعدة على المغتصب . حتى اذا تمّ الاتفاق بينه وبينهم يقدم الحاكم المراكب اللازمة لنقل الحملة بحرا . فعمل اخيلا بالنصيحة واتصل بموسى بن نصير فلقي منه الموافقة التامة ...

وكان لموسى بن نصير مولى من البربر يدعى طارق بن زياد ، وقد خبر فيه موسى الجرأة والاقدام فاعتقه وعهد اليه ، في اوائل صيف سنة ٧١١ ، بقيادة الحملة على الملك ذريق . فقطعت الحملة المضيق وعرضه ثلاثة عشر ميلا على المراكب التي قدمها حاكم سبته ونزلت

على الضفة الاوروبية في الجبل الذي عُرف منذ ذاك الحين بجبل طارق .

وبادر ذريق على رأس جيشه الى الوقوف في وجه الحملة . فدارت رحى المعركة بين الجيشين عند مصبّ وادي بكة (نهر سلادو) فانكسر «القوط» وفرّ «ذريق» ولم يعرف له مقر بعدها . وانفتحت اسبانيا في وجه طارق حتى احتل اكثر من نصفها في اقل من اربعة اشهر .

وفي السنة التالية (٧١٢) لحق موسى بن نصير بطارق واكمل فتح اسبانيا فبنى فيها الامويون ملكاً قدر ان يكون له في ما بعد شأن خطير .

كان من الطبيعي وقد استولى الخلفاء الراشدون والخلفاء الامويون على معظم البلاد التي كانت تتألف منها الامبراطورية الشرقية ان يصبح الهدف الاقصى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة تلك الامبراطورية . فالمحاولة التي جربها معاوية وعبد الملك ، تصدّى لها الخليفة الاموي سليمان وتمكن من محاصرة القسطنطينية براً وبحرا . لكن سلسلة حديدية حالت دون مرور الاسطول العربي الى قرن الذهب ، واضطرت جيوش الخليفة الى رفع الحصار .

وارسل يزيد الثاني بدوره حملة على بيزنطية فلم تكن الحملة اسعد حظاً من سابقاتها .

ورؤي على عهد هشام ان يُستعاض من الاخفاق المتكرر في فتح القسطنطينية بالتوغل في اوروبا من اسبانيا حتى اذا اسعد الحظ تمكن العرب من الوصول الى الآستانة من جهة الغرب ، بينما تزحف جيوشهم من جهة الشرق ، فتؤخذ القسطنطينية بين شدقي كلاّبة .

وبعد ان مدت الخلافة الاموية سلطانها على اسبانيا قطعت جيوشها جبال البرانس (البيرينيه) واحتلت جنوبي غاليه (فرنسا) وقد ظلّ الغزاة يتنقلون من منح الى فتح حتى تصدى لهم شارل مارتل في سهول بواتيه (سنة ٧٣١) حيث دارت معركة حاسمة كتب فيها النصر للفرنجة ووقف الفتح .

العبـــاسيون

لم تسلّم الشيعة بالامر الواقع بعد مقتل الامام علي ومقتل ابنـــه الحسين . وكمنت النار تحت الرماد في العراق حتى اثارها رجل شيعي فارسي اسمه ابو مسلم الخراساني . وقد تمكن من جمع الانصار واشعال نار الثورة على الامويين . ونودي بالخلافة لحفيد من آل العبّاس عم النبي محمد وبويع في الكوفة (العراق) سنة ٧٤٩ .

وما تمّ النصر للثائرين واستلم حفيد العبّاس مقاليد الخلافة حتى اشعلها حرباً لا هوادة فيها على الامويين فعاملهم معاملة اعداء مغلوبين وبطش بهم بطشاً لم يبق ولم يذر ، حتى نبش قبورهم وعفى آثارهم . فدعي بالسفّاح لكثرة ما قتل وسفك من دماء . ولم ينج من المذابح الا امير اموي واحد هو عبد الرحمن حفيد هشام ، عاشر الخلفاء الامويين.

افنى العبّاسيون الامويين في دمشق . وكان الامير عبد الرحمن في العراق ففرّ هائماً على وجهه جنوباً حتى بلغ فلسطين ، ومنها قطع الى افريقيا وجنّد العبّاسيون جواسيسهم يطاردونه . وما زال يتنقل متخفياً من بلد الى بلد حتى وصل بعد خمسة اعوام الى مدينة سبته ومنها ابحر الى الضفة المقابلة . وما عرف الجيش بقدومه وتعرّف اليه حتى انضمّ اليه وبايعه بالزعامة . واستلم عبد الرحمن الحكم في اسبانيا ، مكتفياً بلقب الامارة ، حتى ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث سنة ٩٤٢ فنادى بنفسه خليفة .

وهكذا اصبحت خلافة في بغداد للعبّاسيين وخلافة في اسبانيا للامويين .

ولم يحل قيام الدولة الاموية في اسبانيا دون توطيد اركان الدولـــة العبّاسية وتوسعها في الشرق . فكان للعباسيين عهد سطوة وازدهار وتألق حتى قيل ان بيزنطية اصبحت تتمنى بعض عزّ كانت ترفل في بُردتيه بغداد عاصمة الخلافة .

لبنان والعباسيون

عنيت الدولة الاموية عناية خاصة بلبنان فعملت على تعزيز الوحدة بين ابنائه على اختلاف اديانهم ، فلما قامت دولة بني العباس على انقاض دولة الامويين سنة (٧٤٠) لم ينظر عمالها في البلاد الشامية نظرة ارتياح الى لبنان في صيانته لحريته واحتفاظه بتقاليده فاخذوا يضايقونه .

شعر اللبنانيون بضغط العباسيين فأبى عليهم تشبثهم بالاستقلال الا ان يقفوا في وجههم ، فاشتعلت نار الثورة في كسروان وانتخب الثوّار قائداً عليهم سار بهم الى البقاع فاحتلوه وواصلوا الزحف الى بعلبك . فدهمهم الوالي العباسي في كمين اقامه على الطريق فوقعت بينهم واقعة اسفرت عن انكسار الثوّار وتراجعت فلولهم الى حصن المنيطرة في كسروان سنة ٧٥٩ حيث حاصرهم الجيش العباسي حتى سقط الحصن . فانتقم منهم المحاصرون انتقاماً فظيعاً .

انصبّ اهتمام الدولة العباسية على تحصين الثغور في لبنان وسوريا . فارسلت الى لبنان قبيلة وكلت اليها مهمـة دفاعية ضد غارات الروم وسكان الجبل . ومن هذه القبيلة نشأ الامراء التنوخيون الذين قدموا الى منطقة الغرب بين صيدا وبيروت في عهد ابي جعفر المنصور سنة ٧٦٣.

وكان الموارنة في شمالي لبنان يتمتعون بشبه استقلال ذاتي لقاء جزية يؤدونها على ايدي المقدمين وينتفضون كلما قامت محاولة لكبت حرياتهم.

الدويـلات

لم تمرّ مئة سنة على الخلافة العباسية حتى اخذت تندلع نيران الثورات في ارجاء الدولة .

ففي مصر خرج على العباسيين احمد بن طولون التركي الجنس سنة ٨٧٨ وانشأ في وادي النيل الدولة الطولونية . وهي لم تعمر طويلا (٨٧٨–٩٠٥) .

وقامت على انقاض الدولة الطولونية الدولة الاخشيدية ، وكان مؤسسوها من الاتراك ايضاً ولم يستقم لها الامر اكثر من اربع وستين

سنة (٩٠٥–٩٦٩) .

ثم قامت على انقاض الدولة الاخشيدية الدولة الفاطمية فدام لهـا المُلك نحواً من مئتي سنة (٩٦٩–١١٧١) . وينتسب الفاطميون الى فاطمة زوج علي بنت النبي . وكانوا يقيمون في تونس ومنها زحفوا على مصر واستولوا عليها . واتجهوا الى سوريا فاشتركوا بقتال فيهـا دام اكثر من مئة سنة . وهو قتال بين الفاطميين الشيعيين والعباسيين السنيين . ومن الخلفاء الفاطميين الحاكم بأمره (٩٩٦–١٠٢٠) واليه يرجع تأسيس المذهب الدرزي .

وفي ذلك العهد وقع اضطهاد على الدروز فلم يلبثوا ان حذوا حذو من تقدمهم في ظروف مماثلة فولوا وجوههم شطر لبنان وفزعوا اليه معتصمين فيه مطمئنين على عقيدتهم ومذهبهم يمارسون شعائرهم بملء الحرية والامان .

في سوريـا

وفي البلاد الشامية قامت الدولة الحمدانية في حلب (٩٤٤–١٠٠٣) واشهر امرائها سيف الدولة وقد خلد ذكره شعر المتنبي (٩٤٤–٩٦٧) وثار بنو مرداس وهم من اعراب الباديـة فاسسوا بدورهم الدولة المرداسية . ولم تعش سوى ستين سنة (١٠٢٣–١٠٧٩) .

في لبنـان

لم يلق اللبنانيون من الدولة الفاطمية احسن مما عرفوه من العبّاسيين فنشبت في تلك الاثناء ثورة في صور تزعمها بحّار من بحّارة المدينة يُدعى علاّقة . فاعلن الاستقلال حوالي سنة ٩٩٧ ، ورفع اسوارالمدينة ، وصكّ عملة خاصة نقش عليها « عز بعد فاقة الامير علاّقة » .

وارسل عليه الفاطميون حملة قوية في البر والبحر . فصمدت صور كعادتها مدة طويلة ، على ان اسطول الفاطميين تمكن بعد جهاد طويل من دخول المرفأ . فشنع الظافرون وفظعوا في المدينة واهلها قتلاً وهدماً

واحراقاً . وقبضوا على علاّقة . وبعد ان اذاقوه من العذاب الوانـــا علّقوه على خشبة وصلبوه .

وقامت اخيراً دولة السلجوقيين . وهم اتراك كان اتخذهم العباسيون حرساً خاصاً في بغداد . ولما اضطرب حبل الامن في البلاد الشامية واندلعت فيها الثورات ارسل العباسيون نفراً من السلجوقيين وعهدوا اليهم باستئصال شأفة الثائرين . فابتدأ السلجوقيون يعملون باسم العباسيين. ثم استهواهم حب السلطة فانتهوا الى العمل باسم انفسهم واستقلوا بالحكم عن بغداد .

وكان داء الانشقاقات الدينية والخلافات السياسية قد تفشى في ذلك العهد ، كما سبق تفشيه في اواخر عهد الامبراطورية الرومية . وكمـــا تعددت البدع في المسيحية تعددت الشيع في الاسلام من السنّة الى الشيعة ومنها الى المتاولة والنصيرية والاسماعيلية وغيرها .

وشبّت في مصر والعراق وسوريا ثورات أدّت الى قيام دول مختلفة على انقاض دول . وبلغ من توتر الاعصاب وهياج الخواطر ان فقد معظم الحاكمين وعمالهـــم روح التسامح ، على نحـــو ما جرى في الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، فاصبحت الاقليات الدينية والاقليات المذهبية تسأم اضطهادات لم تنج منها الاقلية المسيحية ، حتى باتت تلك الاقليات تتلمس السبل لاستعادة حريّاتها في ظل السلام والامان .

يصعب تفهم حوادث تلك الايام وسبر غور الاسباب والنتائج فيها اذا لم ينظر الى الاعتبارات الدينية والمؤثرات المذهبية ، وهي يومئذ الحافز والدافع والمثير .

لم ير العراقيون مأخذاً في ان يقود الفارسي ابو مسلم الخراساني الثورة مع حلفاء بني اميّة العرب . ولا وجـــد المصريون والسوريون غضاضة في ان يحلّ في وادي النيل الطولونيون الاتراك والاخشيديون الاتراك محل العبّاسيين العرب ، وفي البلاد الشامية السلجوقيون الاتراك محل العباسيين والفاطميين العرب ، باعتبار الوحدة الدينية الجامعة دون

غيرها (١) .

لم ينعم السلجوقيون طويلا بلذة الحكم بعد انقلابهم على اولياء نعمتهم ولجوئهم الى العنف والظلم في البلاد . فما عتم ان قلب لهم الدهر ظهر مجنه ، فأفلتت السلطة من ايديهم ، وتطرّق الوهن الى ملكهم ، وكما عجزت الامبراطورية البيزنطية عن الصمود في وجه الفاتحين ، هكذا أدّت العوامل المشابهة الى نتائج مماثلة فعجز السلجوقيون عن رد الفاتحين الاوروبيين حين تدفقت على الشرق حملاتهم المعروفة بالحملات الصليبية.

في تلك الحقبة حالت الاضطرابات التي اصابت الشرق عامـــة ولبنان خاصة دون مواصلة لبنان لازدهاره وتفوقه واشعاعه .

على ان ميزات قومه لم تفقد . فلما احتاج معاوية حاكم سوريا الى اسطول لمحاربة البيزنطيين اتجه الى اللبنانيين في تحقيق غرضه فبنوا له اسطولاً كما رأينا . وقد مكّن هذا الاسطول الجيش العربي من احتلال قبرص سنة ٦٤٩ ثم رودس ٦٥٤ . فلما رأت بيزنطية ان العرب بدأوا يهددون الامبراطورية في البحر ، بادرت الى تجهيز اسطول ضخم دلّ على خطورة ما يرجى منه في نظر بيزنطية ان الامبراطور كونستـــان الثاني قد استلم قيادته بنفسه . وفي « ليديه » جنوبي الاناضول التقـــى المتحاربون وكان قد انضم الاسطول المصري الى اسطول معاوية ، وما استعرت نيران المعركة حتى دارت الدائرة على الاسطول البيزنطي . فوطّد هذا النصر بحراً دعائم الفتح برا .

ولم يعدم العلم والادب انصاراً فاشتهر من اللبنانيين افراد حفظ التاريخ ذكرهم منهم الامام الاوزاعي . وقد ولد في بعلبك وتوفي في بيروت حيث لا يزال مقامه موضوع التجلة والاحترام .

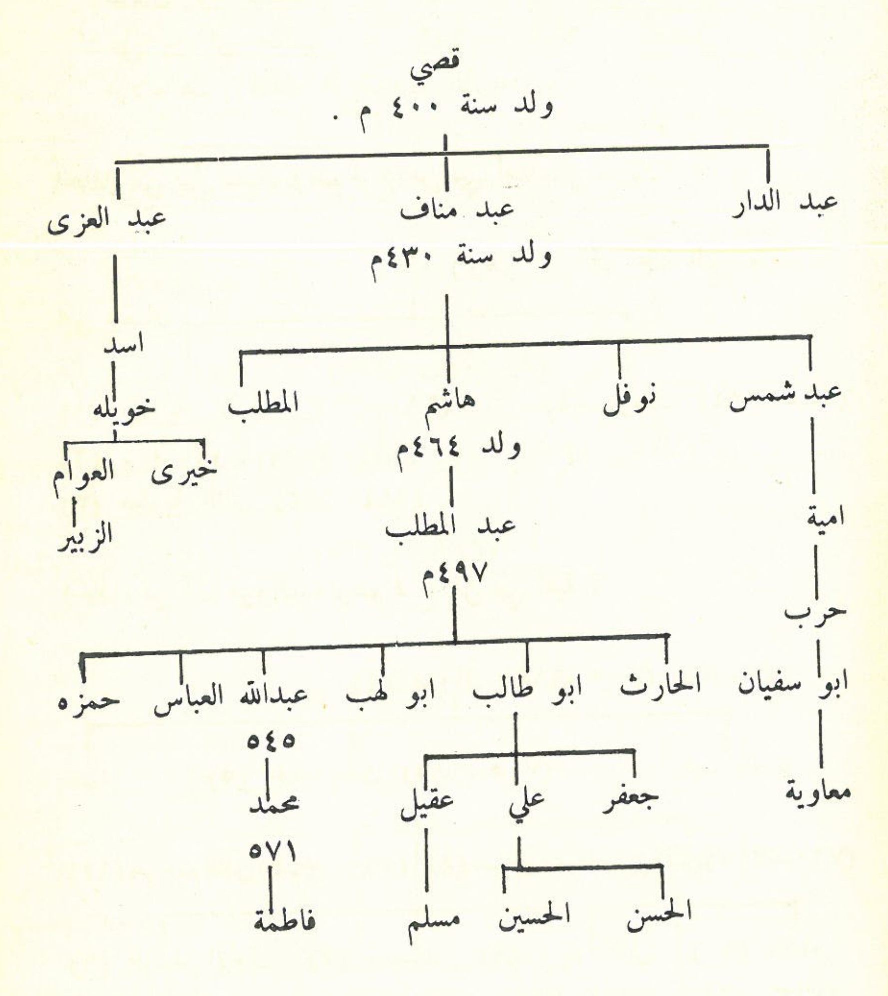
وكذلك اشتهر قسطا بن لوقا البعلبكي وكان يتقن اللغات اليونانية والسريانية والعربية . وقد زار بلاد الروم ورجع منها يحمل مخطوطات قيّمة لمشاهير علماء اليونان امثال ارسطو واكليدوس وجالينوس . ونقلها الى العربية

(١) وقام في ما بعد صلاح الدين الايوبي وهو كردي الاصل وأسس الدولة الايوبية وظلت الخلافة .

فوضع في عمله هذا الحجر الاول في ذلك البناء الباذخ الذي شاده . نقل علوم اليونان الى اللغة العربية ومنها نقلت تلك العلوم في القرون الوسطى الى اللغة اللاتينية . فكان نقلها الى اوروبا عن اللغة العربية الاساس الذي بُنيت عليه المدنية الغربية .

وفي ذلك العهد اخذت اللغة العربية تنتشر في لبنان الى جانب لغته السريانية . وقد قدّر للبنانيين في ما بعد ان يحملوا علم لغة الضاد وينشروه في العالمين .

شجرة النسب النبـــوي :



خلفــاؤه

ابو بكـــر	٦٣٣ – ٦٣٤	
عمر بن الخطّاب	٦٣٤ – ٦٤٤	قتــل

عثمان بن عفّان ٦٤٤ – ٦٥٦ قتل

علي بن ابي طالب ٦٥٦ – ٦٦١ قتل

اولاء هم الخلفاء الراشدون الاربعة .

الخلفاء من بني سفيان وهم فرع من بني أمية :

امية (وهو ابن عم جد النبي)

ابو سفيان

(١) معاوية الاول (٦٦١–٦٨٠)

(٢) يزيد الاول (٦٨٠–٦٨٣)

(٣) معاوية الثاني (٦٨٣–٦٨٤)

(٤) مروان (٦٨٤–٦٨٥)

الخلفاء من آل مروان ، وهم فرع من بني أمية :

(٤) مروان (٦٨٤–٦٨٥)

محمد

(٥) عبد الملك (٦٨٥–٧٠٥)

عبد العزيز

(١٤) مروان الثاني (٧٤٤–٧٥٠)

(٨) عمر بن عبدالعزيز الثاني (٧١٧–٧٢٠)

(٦) الوليد الاول (٧٠٥–٧١٥)

(٧) سليمان (٧١٥–٧١٧)

(٩) يزيد الثاني (٧٢٠–٧٢٤)

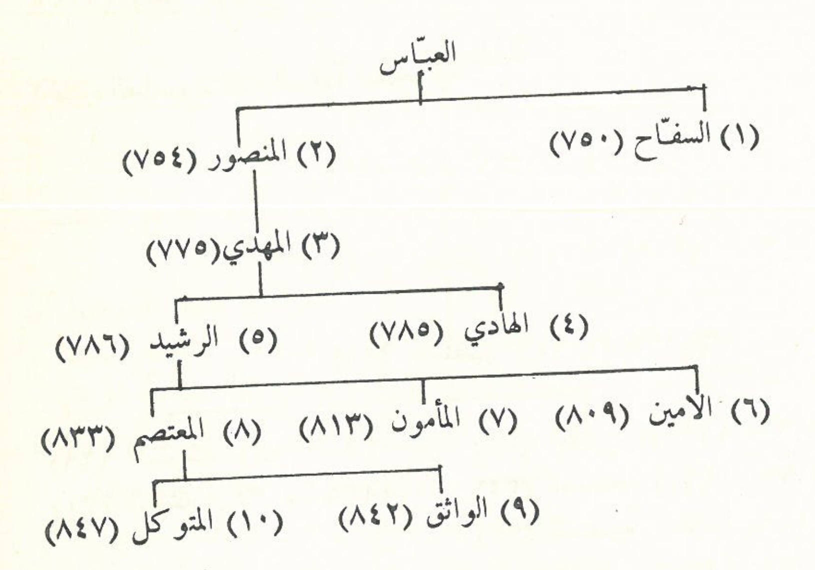
(١٠) هشام (٧٢٤–٧٤٣)

(١١) الوليد الثاني (٧٤٣–٧٤٤)

(١٢) يزيد الثالث (٧٤٤)

(١٣) ابراهيم (٧٤٤)

الخلفاء العباسيون



خلفاء بغداد الذين كان الاتراك يتحكمون بهم :

(١٦) المعتضد (٨٩٢–٩٠٢)

(١٧) المكتفي (٩٠٢–٩٠٨)

(١٨) المقتدر (٩٠٨–٩٣٢)

(١٩) القاهر (٩٣٢–٩٣٤)

(٢٠) الراضي (٩٣٤–٩٤٠)

(٢١) المتقي (٩٤٠–٩٤٤)

(٢٢) المستكفي (٩٤٤–٩٤٦)

الخلفاء العبّاسيون في الحكم البويهي ، الثالث والعشرون : المطيع (٩٤٦–٩٧٤) ثم الطائع (٩٧٤–٩٩١) وهو الرابع والعشرون ، ثم

القادر (٩٩١–١٠٣١) وهو الخامس والعشرون ، ثم القائم و(١٠٣١–١٠٧٥) وهو السادس والعشرون .

الخلفاء العباسيون اثناء السيادة السلجوقية :

(٢٦) القائم (١٠٣١–١٠٧٥)

(٢٧) المقتدي (١٠٧٥–١٠٩٤)

(٢٨) المستظهر (١٠٩٤–١١١٨)

(٢٩) المسترشد (١١١٨–١١٣٥)   (٣١) المقتفي (١١٣٦–١١٦٠)

(٣٠) الراشد (١١٣٥–١١٣٦)   (٣٢) المستنجد (١١٦٠–١١٧٠)

(٣٣) المستضيع (١١٧٠–١١٨٠)

(٣٤) الناصر (١١٨٠–١٢٢٥)

الظاهر (١٢٢٥–١٢٢٦) والمستنصر (١٢٢٦–١٢٤٢) والمستعصم (١٢٤٢–١٢٥٨) .

الصليبيون في لبنان
١٠٩٨ – ١٢٩١

كان شرقي البحر المتوسط منذ القدم ولا يزال مطمح انظار الفاتحين .

كانت كل دولة في الشرق اذا قويت شوكتها يتجه طموحها الى مراقي البحر المتوسط ، حيث بلاد الخير والازدهار والمواقع المنيعة ، ونقطة الاتصال بين ثلاث قارات . هكذا اتجه اليه الفراعنة من افريقيا ، والكلدان والاشوريون من بين النهرين ، والفرس من البلاد الايرانية ، والاسكندر الكبير من مقدونية ، والرومان من ايطاليا وبيزنطية .

في اواخر القرن الحادي عشر شاع في اوروبا ان المسيحيين في الشرق لا يتمتعون بحريتهم ولا يجدون فيه الامان ، وان الاماكن المقدسة في اورشليم مهددة ، وذاع عن الدولة السلجوقية انها على ضعفها ممعنة في الجور والاضطهاد ، فتنادى ملوك اوروبا وامراؤها الى تجهيز حملة على الشرق يحدوهم عاملان : عامل صيانة الاماكن المقدسة وحماية المسيحية وعامل التطلع الى بقعة في شرقي البحر المتوسط اشتهر عنها انها ممتازة بخيراتها العميقة وبمواقعها الفريدة . فنظمت الحملة الاولى من مختلف الشعوب الاوروبية ، ولا سيما الافرنسيين ، والبلجيكيين والايطاليين والالمان والانجليز .

جاؤوا عن طريق البر فقطعوا شرقي اوروبا الى القسطنطينية ، ومنها الى بر الاناضول ، الى ارمينيا ، الى سوريا فسقطت انطاكية في ايديهم سنة ١٠٩٨ ومنها زحفوا على نهر العاصي فاحتلوا معرة النعمان وانحدروا في سهول طرابلس الى بيروت ، ومنها الى فلسطين حيث فتحوا القدس سنة ١٠٩٩ .

ثم واصلوا اعمالهم الحربية حتى استقام لهم الملك نحواً من مئة وخمسين سنة . كما ان الرومان لم يدخلوا لبنان دخول الفاتحين هكذا كان شأن الصليبيين حين وصلوا الى لبنان .

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الصليبيين بعد ان قطعوا الشرق الى انطاكية واحتلوا شمالي سوريا اوفدوا الرسل الى لبنان يحملون اليه الآمال والاماني ويعلنون انهم ما جاؤوا الا لصيانة الاماكن المقدسة ولحماية المسيحيين ، وانهم يطلبون منهم المعونة . وكان قد اصاب اللبنانيين في الحقبة الماضية ما اصابهم من حيف واضطهاد في زمن كان الحافز الديني هو العامل الاهم في احكام الروابط ، فلبّوا النداء وقدّموا للصليبيين مساعدات جلّى .

بعد ان استتب الامر للصليبيين قسّموا البلاد الى اربع مناطق .
١) — شرقاً ، منطقة ادليس (اورفا) وهي تشمل ضفتي نهر الفرات .
٢) — شمالا ، امارة انطاكية وهي تشمل قيليقيا الارمنية . ٣) — في الوسط ، منطقة طرابلس وهي من حصن المرقب شمالا الى نهر الكلب جنوباً . ٤) — في الجنوب مملكة اورشليم وهي تمتد من نهر الكلب الى شبه جزيرة سينا حتى العقبة على البحر الاحمر .

شيّد الامراء الصليبيون ، القائمون على السلطة في المدن الساحلية ، قلاعاً كثيرة وصكوا نقوداً باسمائهم منها بالفرنسية ، او باللاتينية ، ومنها بالعربية ، بالحرف الكوفي مع بعض الرموز النصرانية .

وتكيف الصليبيون بالبيئة اللبنانية فاقتبسوا بعض عادات اللبنانيين وطرقهم في الاكل واللباس والسكن وحتى في بناء الكنائس .

وقد تعززت سلطة البطريرك الماروني في العهد الصليبي بحيث اصبح رئيساً روحياً وزمنياً على المسيحيين في شمالي لبنان على الاخص .

ووثقت روابط الكنيسة الشرقية برومة .

في العهد الصليبي تعززت العلاقات التجارية على اوسع نطاق بين

لبنان واوروبة عبر مرافىء المتوسط ولاسيما مرسيليا والبندقية وجنوى . ونشأت القنصليات الاوروبية في المدن اللبنانية تعزيزاً للتبادل التجاري . واستمرت هذه العلاقات بعد ذهاب الفرنجة . وقد نقل هؤلاء عن لبنان الى اوروبة صناعاته المحلية واهمها تربية دود القز واستخراج الحرير وزخرفة الاواني المعدنية والزجاجية والنقش والحفر على النحاس وافادوا من تطور صناعة النسيج وتلوينه .

الايوبيون

لما شاخت الدولة الفاطمية خلع صلاح الدين وهو كردي الاصل (١١٣٨—١١٩٣) آخر خلفائها العاضد وكان وزيره واسس الدولة الايوبية واعاد سيادة اللبنانيين ثم احتل سوريا وانتصر على الصليبيين في واقعة حطين الشهيرة واسترد اورشليم ثم عقد صلحاً مع ريكاردوس قلب الاسد امير الصليبيين في الحملة الثالثة تخلى بموجبه عن سواحل سوريا ولبنان للصليبيين. وقد اشتهر بالحلم والمرؤة وتشجيع العلم ، وبناء المدارس والقلاع وتنشيط العمران .

اقتدى الايوبيون بالعباسيين فاشتروا عدداً من الاتراك والشراكسة خدماً (مماليك) فقوي ساعد هؤلاء فقتل احدهم معز الدين ايبك آخر الملوك الايوبيين الاشرف موسى سنة ١٢٥٢ واقترن بزوجته شجرة الدر فتنازلت له عن الحكم .

وكان المماليك دولتين : البحرية والبرجية ، الاولى مؤلفة من التركمان سميت كذلك لانطلاقها في الاستيلاء على الريف المصري البحري والثانية من الجراكسة سميت كذلك لامرتها على بروج مصر .

ولما استقر الامر للمماليك في مصر وسوريا لم يرقهم ان تبقى الجبال في لبنان على حريتها واستقلالها ، وقد كان لجأ اليها كل طلاب الحرية ، من الشيعة في البقاع الشمالي والدروز في جبل الشيخ والموارنة في الشمال . فجهز المماليك حملة على كسروان فدمروا واحرقوا واتلفوا ونهبوا

وقتلوا حتى مزقوا البلاد شر تمزيق (١)

على ان الجيش لم يصل الى الشمال حيث كان يقيم معظم الموارنة فانضم اليهم من نجا من حملة المماليك من جميع الطوائف .

وهكذا بقيت شعلة الحرية والاستقلال ، ولو في بقعة صغيرة ، تضيء ولا تنطفىء (٢) .

وفي سبيل الدفاع عن الساحل اللبناني ضد هجمات الفرنج المتلاحقة من الجزر المجاورة عزم المماليك على انشاء اسطول في بيروت من اخشاب الصنوبر في احراجها الكثيفة لكنهم غيروا رأيهم لضآلة المال بعد ان قطعوا معظم الاشجار واكتفوا ببناء ابراج صغيرة على طول الساحل اللبناني اقاموا فيها قبائل عربية وتركية وفارسية من اشهرها آل تنوخ وقد كلفوا بحماية الساحل بين بيروت وصيدا وبنو عساف بين بيروت والمعاملتين وبنو سيفا بين طرابلس وعكار .

---

(١) تجمع ابناء كسروان على اختلاف المذاهب سنة ١٢٩٢ (بنو عاملة) (بنو تغلب) – (بنو بحتر) (الدروز) – (الشيعة) – (الموارنة) بقيادة اللمعيين ونصبوا كميناً بين المدفون وا[illegible]دار ثم فتكوا بجنود المماليك ونصبوا من رؤوسهم (شقعة) بين شكا والبترون . بعدها دعي الرأس الممتد في البحر بجانب شكا (رأس الشقعة) . ان المماليك انتقموا في ما بعد فشن الناصر بن قلاوون حملة على كسروان فدمرها (١٣٠٥) .

(٢) في عهد المماليك برز المؤرخان المقريزي وهو لبناني الاصل مصري المولد وصالح بن يحيى وهو لبناني الاصل والمولد .

المماليك

التركية البحرية	١٢٥٠ – ١٣٨٢
الجركسية البرجية	١٣٨٢ – ١٥١٧

الدولة الايوبية اتبعت خطة خلفاء بغداد في ادخال الارقاء والاجانب في الحرس والجيش . فما عتم هؤلاء ان فعلوا في الايوبية فعل زملائهم في العباسية فاصبحوا امراء الجيش ثم سلاطين الدولة .

الملك الضاهر ركن الدين بيبرس – الرابع من المماليك ١٢٦٠– ١٢٧٧

كان رقيقاً انتدبه السلطان الصالح الايوبي لقيادة فصيلة من حرسه الخاص . فترقى بالعنف والبطش وهرق الدم الى اعلى منصب .

لم تكن السلطة في المماليك وراثية بل كانت للاقوى فالاقوى .

١٢٦٠ انتصر بيبرس على جيش هولاكو في عين جالوت، فلسطين .

اعاد العباسيين اسما حتى يكتسب شرعية السلطنة .

١٢٦٣ احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة . واحتل قيسارية ويافا وانطاكية .

١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية ١٦٠٠٠

سبى وباع في الاسواق من اهلها : ١٠٠٠٠٠

ثمن الطفل ١٢ درهماً

ثمن الطفلة ٥ دراهيم

لم تستطع انطاكية النهوض بعد هذه الكارثة الى يومنا هذا .

١٢٧١ انتزع حصن الاكراد

١٢٨٥ خليفته قلاوون انتزع المرقب بجوار طرطوس

١٢٨٩ خليفته قلاوون : استولى على طرابلس .
١٢٩١ خليفة قلاوون : الملك الاشرف فتح عكا آخر حصن بعد حصار شهر اعمل السيف في حاميتها من الفرسان الداوية جميعاً فيما استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس . وانتهت الحرب الصليبية .

الملك الناصر صلاح الدين الايوبي

ولد في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين .

سار على كره منه في صحبة عمه تيركوه ، القائد اللامع ، في خدمة نور الدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولة الفاطميين فيها .

امنيتان لصلاح الدين : أنزال السنة منزلة الشيعة في مصر .
مواصلة الجهاد ضد الفرنجة .

١١٦٩ توفي عمه تيركوه في مصر فاسندت اليه الوزارة
١١٧١ قضى على خلافة الفاطميين وامر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء
١-٧-١١٨٧ اولى حملاته على الفرنجة . احتل طبرية بعد حصار ٦ ايام على مقربة منها معركة حطين .

وقع في الاسر : غي دى لوزينيان ملك اورشليم ، فاحسن معاملته .

في ٢-١-١١٨٧ سقطت اورشليم.

تجدد الحملات على اثر سقوط اورشليم : فردريك بروس المانيا — غرق في النهر. طيب علاقات ريشارد قلب الاسد وصلاح الدين وعقد صلحاً في ٢-١١-١١٩٢

في ١٩-٢-١١٩٣ توفي صلاح الدين في دمشق عن ٥٥ سنة . قبره قرب الجامع الاموي .

الدولة الايوبية — ١١٧١ — ١٢٥٠

صلاح الدين	١١٦٩
العزيز	١١٩٣
المنصور	١١٩٨
العادل الاول	١١٩٩
الكامل	١٢١٨
العادل الثاني	١٢٣٨
الصالح ايوب	١٢٤٠
المعظم نوران ثاه	١٢٤٩
الاشرف موسى	١٢٥٠ — ١٢٥٢

لبنانُ الحديث

لبنان الحديث

(١٥١٦ – ١٩١٨)

الفتح العثماني

اصل العثمانيين قبيلة تركية من المغول نبغ فيها قواد وأمراء كان أعزهم شأناً (عثمان) فانتموا اليه ومنه عرفوا بـ «العثمانيين».

قامت الدولة العثمانية التركية على أنقاض الدولة البيزنطية، واحتل السلطان محمد الثاني عاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها اسم «الاستانة».

وظل خلفاؤه في التوسع حتى كانت موقعة «مرج دابق» – بالقرب من حلب – بين الجيش العثماني وعلى رأسه السلطان سليم، وجيش المماليك – حكام مصر – بقيادة السلطان قانصوه الغوري.

حالف النصر جيش الاتراك فاحتل السلطان سليم سوريا ومصر (١٥١٦).

أما لبنان فقد وجد الفاتح فيه الأمير المعني فخر الدين الأول فأمنه السلطان على إمارته ولقبه بـ«سلطان البر».

المعنيون جاؤوا في القرن الثالث عشر الى لبنان واتخذوه موطناً أقاموا فيه. ويوم دخل السلطان سليم، كان قد مضى على المعنيين – لبنانيين – اكثر من ثلاثمئة سنة.

على ان الولاة العثمانيين في سوريا ومصر لم يحسنوا الصلات بأمير لبنان، لا سيما بعد أن وسع امارته ومدّ سلطانه من حدود فلسطين حتى طرابلس حيث أمراء بني سيفا، بل عمدوا الى مناوأته واستفزازه، فلم ينم الأمير على الأذى بل راح يبادلهم بمثل أعمالهم،

فوشوا به الى الاستانة ودسوا عليه الدسائس فوجدت سعاياتهم لدى الباب العالي آذاناً صاغية ، فباتت الاستانة تنظر الى لبنان بعين الحذر .

وفي تلك الأثناء توفي فخر الدين الاول وخلفه ابنه الأمير قرقماز فتسلم زمام الحكم غير حاسب لما يخبئه له حساباً .

وفي سنة ١٥٨٤ قيل ان الاموال الاميرية سرقت وهي في طريقها الى الاستانة ، وان السرقة وقعت في جون عكار وان السارقين من لبنان . فكانت تلك التهمة حجة تذرع بها الباب العالي لهدم الإمارة اللبنانية وإلحاق لبنان بالولايات فأوكل السلطان الى والي مصر ابراهيم باشا أمر تلك المهمة ، فجهزت حملة اشتركت فيها الجيوش البرية والسفن البحرية بقيادة ابراهيم باشا .

وقد وصلت الجيوش الى بلادنا على حين غرّة ، فلم يستطع الامير قرقماز الى الدفاع سبيلا واضطر الى الالتجاء الى مغارة قرب جزين حيث قتل مسموماً ، وتوفي عن ولدين صغيرين فخر الدين ويونس ووالدتهما زوجته الست نسب .

الست نسب

سيدة لبنانية كان لها يدٌ في تغيير مجرى الحوادث في تأسيس أعظم عمل في سبيل الاستقلال على يد ابنها البكر فخر الدين .

كانت الفتاة نسب تنتمي الى امراء بني تنوخ واقترنت بالامير قرقماز المعني وأصبحت والدة أعظم رجل انجبه لبنان .

والمعنيون متحدرون من قبيلة عربية جاؤوا في القرن الثاني عشر الى لبنان واتخذوه موطناً لهم . ولما وصل السلطان سليم الى سوريا كان مضى على المعنيين – لبنانيين في لبنان – اكثر من اربعمئة سنة . شأنهم في ذلك شأن الأمراء التنوخيين الذين قدموا في القرن التاسع الى لبنان واستوطنوه .

عندما هلك الأمير قرقماز خشيت الست نسب على ولديها القاصرين من بطش قائد الجيش العثماني فعمدت الى اخفائهما في مكان امين ،

وكان من اعوان زوجها المخلصين رجل اسمه الحاج كيوان . فاستدعته واسرّت اليه بهواجسها وبانها ترى اخفاءهما في كسروان وديعة بين ايدي احد وجهاء الموارنة الشيخ ابو صقر ابراهيم الخازن في قرية بلونة .

فصدع الحاج كيوان في الامر واخذ الولدين الى مقر الشيخ ابي صقر وقص عليه حكاية الولدين وابلغه ان والدتهما تأتمنه عليهما .

فرحب ابو صقر بالحاج كيوان ورسالته ورجاه ان يبلغ الست نسب انه سيكون عند حسن ظنها ويقوم بحماية الولدين وتربيتهما فيكونان في بيته اعزّ من اولاده .

هكذا خفي على القائد العثماني مقر الاميرين اللذين ترعرعا في حضن ابي صقر حتّى بلغا اشدهما . وظلت الست نسب ترقب الفرص معتمدة على مساعدة ذويها الامراء التنوخيين . وبعد ان بلغ فخر الدين سن الرشد كان خاله الامير سيف الدين التنوخي قد تمكن من ازالة الصعوبات التي كانت تقف في وجه المعنيين فاعاد فخر الدين واخاه يونس الى الشوف حيث سعدت الست نسب باعلان بكرها اميراً على البلاد وارثاً لأبيه باسم فخر الدين الثاني .

فخر الدين الثاني الكبير

١٥٧٢ – ١٦٣٥

صفحة بارزة في تاريخ لبنان تزينها هالة من الحب والاعجاب .
تسلم فخر الدين الثاني زمام الإمارة وهو في ربيع الصبا يحدوه الطموح وتبتسم له الآمال .

وكما أورث هملكار ابنه هنيبعل مهمة الأخذ بثأره من روما ، وتوطيد سلطان قرطاجة ، هكذا ورث فخر الدين الثاني – برعاية والدته الست نسب – مهمة الأخذ بثأر أبيه ورفع شأن الإمارة اللبنانية ، فبات هدفه توسيع الإمارة وتحقيق الاستقلال التام .

في ذلك العهد كانت الحزبية في لبنان – شأنها في البلاد العربية – بين قيسي ويمني ، على اختلاف الطوائف والمناطق .
وكان المعنيون قيسيين .

رأى فخر الدين – بارشاد الوالدة وهدى نشأته الكسروانية في البيت الخازني – ان الامارة لا تثبت اركانها الا اذا هي وطدت على أساس وحدة لبنانية توثق العرى بين مختلف الطوائف والمناطق والنزعات الحزبية . فقرّب اليه الدروز والمسيحيين سواء ، واستمال أعيان الحزب اليمني ، وحالف الحرافشة ، وصاهر الشهابيين ، وعين مربيه الشيخ أبا نادر الخازن مستشاراً أول ، وأخاه الشيخ رباح مديراً للمالية .

وأنشأ جيشاً التف تحت رايته الموارنة والدروز والشيعة والارثوذكس والكاثوليك صفاً واحداً ، وقيادة واحدة ، وروحاً واحدة .

هكذا أصبح الجميع لا يعرفون الا وطنية واحدة هي الوطنية اللبنانية ، ولا يستهدفون في اتحادهم وسياستهم إلا غاية واحدة هي استقلال لبنان .

وكان الحكم في ذلك العهد اقطاعاً تولّي عليه الدولة رجلا يقال له « مقاطعجي » يؤمن فيه خراج الخزينة .

فأخذ فخر الدين يستولي على الاقطاعات المحيطة ، إقطاعاً تلو اقطاع ، ويؤمن عنه الخراج للسلطنة ، حتى تمكن من نشر راية لبنان على إمارة تمتد من فلسطين جنوباً الى قلعة الحصن شمالا ، وقد دق شرقاً أوتاد خيامه على أبواب دمشق ، وله في تلك الفتوح قوله المأثور : « انما السلطنة نقل تخم ، فكلما تملكنا بلاداً نتقوى برجالها وأموالها وننتقل الى غيرها » .

وطّد فخر الدين في الامارة الأمن والاستقرار فازدهرت فيها التجارة والصناعة . على ان همّ الأمير كان في الوصول الى نزع السيادة العثمانية عن لبنان تحقيقاً للاستقلال التام .

وكانت الاقطاعات موزعة كما يلي :

(بنو حرفوش) في البقاع وطرابلس وفلسطين .

(ابن الفريخ البدوي) في الجليل وعجلون وكسروان .

(بنو عساف) في الكوره وقاعدتهم غزير .

(بنو سَيفا) في بيروت وطرابلس الى قلعة الحصن .

وكان هم الباب العالي في هذه الانحاء تأمين الخراج في كل إقطاع . في هذا السبيل زاد فرق الجيش وسهر على تجهيزه أحسن تجهيز ، وبنى في المواقع الاسترا تيجية القلاع والاسوار .

أقلقت تلك التجهيزات والتحصينات خاطر الباب العالي ، فقرّ قراره على البطش بفخر الدين وتمزيق الإمارة والحاقها بالولايات .

وكان على عرش السلطنة السلطان احمد الاول . فارسل السلطان الى والي دمشق « حافظ باشا » أمراً بأن يزحف بجيشه على فخر الدين .

جاءت الأخبار الى الأمير اللبناني منبئة بتلك الحملة الهائلة ، فجمع مجلس شوراه بحضور والدته وأخيه يونس فرأى الجميع أن لا قبل للبنان بصد تلك الحملة ، وان الأفضل أن يغيب فخر الدين عن المسرح موقتاً تاركاً الحكم لأخيه برعاية الوالدة .

تحسّباً للطوارىء ، كان فخر الدين قد دخل في مخابرات دولية سعياً لمحالفات تساعده على الوقوف في وجه السلطنة ، فاختار البابوية في روما ودوقية توسكانة في فلورنسا ، دون الدول الكبرى كفرنسا واسبانيا ، خشية أن ينقلب التحالف مع دولة كبيرة ذات مطامع في الشرق الى احتلال يبدل سيادة بسيادة ، فلا يتحقق الاستقلال الذي كان يستهدفه .

فلمّا قرّ الرأي على مغادرة لبنان ، نزل فخر الدين ومن معه الى صيدا حيث استقلوا مراكب حملتهم الى ايطاليا فوصلوا الى ثغر ليفورنو في ٣ تشرين الثاني سنة ١٦١٣ بعد سفر استغرق ثلاثة وخمسين يوماً .

فخر الدين في ايطاليا

ما اتصل خبر قدوم فخر الدين بدوق توسكانة قوسموس الثاني حتى ارسل وفداً من كبار البلاط لاستقباله ودعاه الى موافاته في مدينة بيزا حيث اخلى له قصراً فخماً وبالغ في الحفاوة به .

وجرت المباحثات بين الدوق كوسموس وفخر الدين حول المحالفة بينهما ، فرأى الدوق أن يتأكد من الموقف في لبنان وسوريا ، فعرض على الأمير ارسال بعثة تسافر الى لبنان فتدرس الاحوال وتقف على القوة التي يمكن الاعتماد عليها من جيش وقلاع ، ثم تعود البعثة وتقدم الى الدوق تقريراً يبني عليه حكمه .

فوافق فخر الدين على هذا الرأي وعين الدوق رجال البعثة ، وأصحبهم الامير بابن العيسوق ومحمد كاور من تابعيه ، وحملهم رسائل الى والدته الست نسب والى أخيه وذويه واعيان البلاد يطلعهم فيها على الاتفاق الذي تم بينه وبين الدوق ، ويسألهم ان يسهلوا مهمة البعثة .

فلما وصلت البعثة الى سواحل لبنان نزلت الى البر قرب صيدا ثم صعدت الى دير القمر حيث مقر الامير يونس . فلما رآها الامير

يونس فرح فرحاً عظيماً ، وتسلم الرسائل الواردة فاكرم الضيوف اكراماً بالغاً .

وارسل الامير الى اعيان البلاد الرسائل الموجهة اليهم فجاءت اجوبتهم تؤيد استعدادهم لخدمة البلاد ، تحت راية فخر الدين .

وعين الامير يونس نفراً من رجاله لمرافقة البعثة فطافوا معاً انحاء لبنان وشاهدوا القلاع والحصون ، وتبينوا وسائل الدفاع ووقفوا على قوات الجيش اللبناني .

ولما اتمت البعثة عملها رجعت الى توسكانه وقد انضم اليها للّحاق بالامير الشيخ خاطر الخازن أخو الشيخ أبي نادر مع جماعة من قومه ، ويزبك بن العفيف من اعيان الشوف .

وصلت البعثة الى توسكانه وقدمت الى الدوق تقريراً وافياً عما رأت وسمعت . وأطلع اللبنانيون القادمون فخر الدين على اخلاص أهل البلاد له حاضراً وغائباً .

فلما وثق كوسموس الثاني من ان في لبنان تحت تصرف الامير قوة لا يستهان بها وان البلاد كلها يد واحدة معه أعلن عزمه على السعي لتحقيق محالفة تضم البابوية ، لمساعدة فخر الدين على الدولة العثمانية .

ولما رأى فخر الدين ان الامور جارية على ما يشتهي أحب أن يأتي الى لبنان في زيارة خاطفة ليتفقد بنفسه أحوال البلاد ويهيء الجميع لرجوعه نهائياً على رأس حلفائه لتحقيق الآمال .

وبالاتفاق مع الغراندوق كوسموس أبحر فخر الدين الى لبنان فوصل الى الدامور وارسل الشيخ خاطر الخازن الى دير القمر ليعلم والدته وأخاه بقدومه . انتشر خبر قدوم فخر الدين الى البلاد انتشار البرق فهرولت الوفود والأهالي من الشوف والمتن وكسروان الى الدامور لملاقاة فخر الدين ومشاهدته وهم لا يكادون يصدقون الخبر لشدة فرحهم واغتباطهم بقدومه .

كان ذلك اليوم يوماً عظيماً عند اللبنانيين وقد نزل فخر الدين من المركب الى الدامور ليتمكن الجميع من مشاهدته فحملوه على

أعناقهم يهلّلون له ويهزجون .

وبعد أن وعدهم برجوعه النهائي القريب رجع الى المراكب فأقلعت به وبمن معه عائدة الى ايطاليا .

وقد مرت المراكب في طريقها على مالطة ، وكانت أخبار فخر الدين قد شاعت وذاعت في سائر الاقطار ، فلما علم أهل الجزيرة بقدوم الامير خرجوا الى لقائه في الميناء وفي مقدمتهم حاكم الجزيرة ، استاذ فرسان مالطه الاكبر ، فاستقبلوه بموكب عظيم . ونزل الامير في ضيافة الحاكم ثلاثة أيام ثم واصل سفره ونزل في ثغر ليفورنو وقص على الغراندوق تفاصيل رحلته .

في تلك الاثناء حدثت في الاستانة حوادث جاءت في مصلحة فخر الدين فمات السلطان احمد الذي امر بتسيير الحملة على لبنان بقيادة أحمد باشا الحافظ . وخلف السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ، وثار عليه الجيش فأسقطه وأقام مقامه ابن أخيه عثمان ، والدولة يومئذ في حروب مع ممالك بولونيا وروسيا وإمارات البلقان .

وعزل أحمد باشا الحافظ عدو فخر الدين الشخصي .

رجوع فخر الدين الى لبنان

كانت الست نسب طوال مدة غياب فخر الدين في ايطاليا ترعى من جهة ولدها يونس بالنصح والارشاد ، وتراقب من جهة اخرى الحوادث في البلاد وفي السلطنة العثمانية .

فلما جرت في الاستانة الحوادث المشار اليها ادركت الوالدة الكبيرة ان الظروف مؤاتية لرجوع بكرها فخر الدين ومواصلة العمل في لبنان ، فكتبت اليه تخبره بواقع الحال وتسأله الرجوع دون ابطاء .

فما ان اطلع فخر الدين على رسائل والدته حتى عزم على العودة الى لبنان ، فقابل الغراندوق كوسموس واطلعه على ما ورد عليه من الاخبار ، فسر الغراندوق بما سمع ووافق على رجوع فخر الدين مطمئناً اياه بتنفيذ المحالفة وتقديم المؤونة والذخيرة والخبراء لتمكينه من تحقيق اهدافه .

على هذا الاتفاق ابحر فخر الدين من ثغر نابولي الى لبنان سنة ١٦١٧ ، بعد ان قضى في توسكانه اربع سنوات اتاحت له الوقوف على ما في تلك البلاد من معالم الحضارة ، ومستلزمات الحكم ، ووسائل الدفاع في تنظيم الجيش وبناء القلاع وتحصين المدن .

وما كاد يصل الى بيروت حتى اهتز لبنان من ادناه الى اقصاه ، فهبط اهله من امراء ومشايخ الى الساحل لاستقبال الامير العائد .

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان فخر الدين سار في البلاد بعد عودته سير الفاتح تواكبه الجماهير بين الهزيج والاناشيد واطلاق البارود.

بعد ان استقر المقام بفخر الدين ووقف على بواطن الامور تبين له ان زعماء البلاد واعيانها وشعبها مجمعون على الاخلاص التام له ، عدا آل سيفا وكبيرهم يومئذ يوسف باشا سيفا فعزم على ان يزيل العقبة التي يقيمها آل سيفا في وجه الوحدة اللبنانية واستقلال لبنان .

هيأ فخر الدين جيشه ، واستنفر امراء البلاد ومشايخها فمشوا جميعاً تحت رايته لمحاربة يوسف باشا سيفا ، فوقعت معارك بين الفريقين كتب فيها النصر لفخر الدين فانهزم يوسف باشا سيفا ومن معه والجيش اللبناني في اعقابه حتى بلغوا قلعة الحصن حيث استسلم آل سيفا لفخر الدين .

موقعة عنجر

ازاء تلك الحوادث عادت الهواجس تساور الدولة العثمانية خشية استفحال امر فخر الدين ، فاوعزت الى والي دمشق مصطفى باشا لمحاربة الامير اللبناني ، فزحف مصطفى باشا على لبنان بجيش

لا يقل عن اثني عشر الف مقاتل ، فقابله فخر الدين باربعة آلاف لبناني مشى بنفسه على رأسهم . فالتقى الجيشان في مجدل عنجر في ١٣-١١-١٦٢٣ واستعرت موقعة هائلة لم يلبث الجيش اللبناني ان بطش باعدائه فمزق شملهم . وطارد اللبنانيون الوالي المنهزم مصطفى باشا حتى القوا القبض عليه وجاؤوا به اسيراً الى خيمة فخر الدين . فلما شاهده الامير ذليلاً ابت عليه شهامته الا ان يحسن معاملته ، ثم اطلق سراحه ، بلا قيد ولا شرط . فاكبر مصطفى باشا نبل الامير وحفظ له اطيب جميل .

ان موقعة عنجر (١٦٢٣) ابلغت لبنان اوج عزه ، ووطدت اركان الامارة وتبين للدولة ان فخر الدين امنع جانباً من ان يظفر به ولاتها ، فاقرته على ملكه ، واطلق عليه السلطان اللقب الذي كان السلطان سليم اطلقه على فخر الدين الاول اي « سلطان البر » .

فخر الدين على ابواب دمشق

في ذلك العهد حدث غلاء في دمشق هدّد اهلها بالمجاعة ، فارسلوا يشكون امرهم الى فخر الدين . فبادر الامير الى اغاثتهم فارسل اليهم الفي حمل جمل قمحاً وفي اليوم الثاني ارسل الفي حمل آخر . ثم جمع جمال حوران ودوابها وامر اصحابها بنقل القمح الى دمشق وبيع الرطل بقطعتين . وجاء الامير بنفسه يشرف على الحالة فاتى الى مرجة دمشق ، فخرج اهل المدينة كباراً وصغاراً الى ملاقاته يحتفلون بقدومه ويدعون له بالنصر .

لم تنم الدولة العثمانية على الاذى ، بل ظلت رغم مظاهر الصداقة تتحين الفرص للايقاع بفخر الدين وتمزيق الامارة اللبنانية لا يفارقها حلمها القديم بالحاق لبنان بالولاية .

وبينما الدهر يبسم لفخر الدين ودوق توسكانه يواصله بالذخيرة والخبراء اذا بحوادث تقع في اوروبا ويكون لها صداها في لبنان :

تفشّى الطاعون في ايطاليا فاستأثرت موجبات مكافحته بجهود الولاة والحكّام فاضطرت توسكانة الى قطع مساعداتها عن فخر الدين .

واشتدت من جهة اخرى وطأة حرب الثلاثين سنة في اوروبا فاججت نار العداوة بين الكاثوليك والبروتستانت .

رأى الباب العالي ان الظروف مؤاتية للخلاص من فخر الدين . ففي سنة ١٦٣٣ اصدر السلطان مراد امره الى الصدر الاعظم خليل باشا بتعبئة الجيوش وتسييرها على لبنان . فجهزت الدولة جيشاً عرمرماً في البر بقيادة احمد باشا الحافظ كجك « الصغير » ، وعبأت اسطولاً ضخماً لمحاصرة شواطىء لبنان .

فزحف الجيش بمعاونة الاسطول وضربوا حصاراً في البر والبحر على لبنان .

ازاء تلك الحملة الهائلة جمع فخر الدين مستشاريه من اعيان البلاد وقادة الجيش فاستعرضوا الحالة الرهيبة وتبينوا ان غرض الدولة القضاء على استقلال لبنان ، فقالوا جميعاً بصوت واحد :

الموت ولا الاستسلام ، الفناء ولا فقد الاستقلال .

بتلك الروح اللاهبة وفي هوى الوحدة اللبنانية الشامخة التفّ اللبنانيون حول الامير الكبير فمشى على رأس جيشه الى ملاقاة الجيوش العثمانية وقد عيّن ابنه علياً قائداً عاماً على الجيش اللبناني .

احتدمت المعارك وانقلبت اسود على اللبنانيين ذلك ان الامير علي وكان في مقدمة الجيش اصيب اصابة قاتلة كانت فاتحة شؤم ففارق السعد الوية الجيش اللبناني ، وقد نفدت منه الذخيرة ، وسدّت في وجهه ابواب البحر ، فالتوى الامر على فخر الدين ، واستظهر الحافظ الصغير على الامير الكبير الذي اضطر — بعد محاولات مقاومة — الى التسليم ، فنقل من الآستانة مع اولاده ، حيث غدر به وبهم — الا اصغرهم حسين — في ٢ نيسان سنة ١٦٣٥ .

انقراض الاسرة المعنية

خلف الامير ملحم ابن الامير يونس عمّه فخر الدين الثاني على كرسي الامارة .

ولم يصف الجو بين الامير ملحم والولاة العثمانيين في البلاد المجاورة فكان له معهم مواقع مشهودة اشهرها موقعة « وادي القرن » سنة١٦٥٣ وقف فيها اللبنانيون بوجه جيش والي دمشق بشير باشا .

ودام القتال ثلاث ساعات استبسل فيها الفريقان فاسفرت المعركة عن انتصار اللبنانيين وانهزام عساكر بشير باشا .

وكانت الصلات في الصداقة قد استحكمت بين المعنيين والشهابيين فزوّج الامير ملحم ابنته من الامير حسين الشهابي فرزق منها الامير بشير ، الذي قدّر له ان يكون اول امير شهابي على لبنان .

وتوفي الامير ملحم سنة ١٦٥٨ فخلفه ابنه الامير احمد ، وعلى عهده كانت وقعة « الغلغول» عند برج بيروت سنة ١٦٦٦ بين القيسيين واليمنيين فظفر الامير احمد وجيشه اللبناني باليمنيين واستولى على مقاطعاتهم وضمها الى امارته .

وصاهر بدوره الامير موسى الشهابي فرزق من ابنة الامير احمد ولداً سمّي حيدر وهو الذي انتخبه اللبنانيون على الامارة بعد الامير بشير .

وسنة ١٦٩٧ توفي الامير احمد المعني بلا عقب فانقرضت به السلالة المعنية في لبنان وحلّت محلها الامارة الشهابية .

انتقال الامارة الى الشهابيين

لم تكن الدولة العثمانية لتنكر على لبنان كيانه الخاص في امارته المستقلة داخلياً . فلما خلت كرسي الامارة بوفاة الامير احمد المعني بلا عقب ، لم يقدم الباب العالي على تعيين الخلف ، شأنه في الولايات العثمانية ، بل ترك السلطان للبنانيين ان ينتخبوا من يشاؤون على كرسي الامارة .

اجتمع اعيان البلاد ووجوهها للتشاور في الامر .

وكان للمعنيين كرامة جلّى في لبنان ومحبة في قلوب اللبنانيين . فأجمع الرأي على انتخاب اقربهم الى الامراء المعنيين حفظاً لذكر السلالة المعنية .

وكان للامير احمد المعني حفيده حيدر ابن الامير موسى الشهابي وكان للامير ملحم حفيد آخر هو الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي. فكان احقهم بالامارة حفيد الامير احمد لكنه كان صغير السن . فانتخب اللبنانيون الامير بشير وتوجهوا الى راشيا ودعوه للولاية واتى معهم الى دير القمر وبايعوه الولاية على لبنان فاستمر عليها حتى موته .

وهكذا انتقلت الامارة الى الشهابيين .

وبعد وفاة الامير بشير سنة ١٧٠٧ اجتمع اكابر البلاد وانتخبوا الامير حيدر حفيد الامير احمد المعني . وتوجهوا الى حاصبيا فأتوا بالامير حيدر الى دير القمر وهو في الحادية والعشرين ، فكان جدّ الشهابيين في لبنان .

الامير حيدر شهاب (١٧٠٧ - ١٧٣٢)

نهج الامير حيدر على منوال جدوده المعنيين في الذود عن استقلال

لبنان وفي توسيع حدود الامارة ما استطاع عاملاً على تمكين الروح الوطنية في النفوس على اساس القومية اللبنانية لا دخل فيها للدين والمذهب والحزبية الاقليمية وقد تجسمت تلك العصبية القومية في (موقعة عين داره) سنة ١٧١١ .

وفي تلك الموقعة التفّ اللبنانيون على اختلاف طوائفهم ومناطقهم بلواء الامير حيدر فتألف منهم جيش لبناني جمع بين الدروز والموارنة صفاً واحداً ، الى غاية واحدة هي الدفاع عن استقلال لبنان .

وقفت قبالة اللبنانيين في يوم عين داره المشهود جيوش جرارة بقيادة ثلاثة باشاوات وهم محمود باشا هرموش ، نصوح باشا والي دمشق ، بشير باشا والي صيدا .

وما احتدمت نار المعركة حتى ظهر تفوّق اللبنانيين بما أتوا من ضروب الشجاعة والاقدام متفانين في التضحية تحت راية لبنان . وما زالوا على ذلك الاستبسال حتى دارت الدائرة على الاعداء فانهزم نصوح باشا وبشير باشا بفلول رجالهم ووقع محمود باشا في قبضة اللبنانيين .

ورجع الامير حيدر الى دير القمر تخفق على رأسه رايات النصر والفخار .

وقد نال لبنان في ذلك العهد من العز والاستقلال شأواً بعيداً على الطريق التي خطّها فخر الدين الكبير . وفي ذلك يقول جودت باشا الوزير التركي في تاريخه ما نصّه :

« ان الامير حيدر الشهابي حصل في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها البقاع وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية واحكامهم مستقلين فلا يقدر احد من حكّام الدولة ان يتداخل في امورهم الداخلية. حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجئون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم ، وذلك لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده » .

من الامير ملحم الى الامير بشير الثاني

توفي الامير حيدر سنة ١٧٣٢ فحزن عليه اهل البلاد حزناً شديدا ولبست النساء عليه الحداد اربعين يوماً يندبنه في الصباح والمساء (١) .

وتوالى على الحكم بعده الامير ملحم (١٧٣٢–١٧٥٤) .

ثم اخوه الامير احمد والامير منصور الذي تنازل عن الحكم للامير يوسف ابن اخيه ملحم (١٧٥٤ – ١٧٧٠) .

وأسوأ ما مُني به لبنان في تلك الايام كان احمد باشا الجزار الذي احسن الامير يوسف اليه فجحد الفضل وكفر بالنعمة .

هرب الجزّار من والي مصر علي بك الى لبنان يحتمي باميره ، فقبله الامير واكرمه وابقاه في ضيافته بدير القمر ثم بعثه الى بيروت بوظيفة رتّب له نفقتها من الجمرك ثم رفعه الى وظيفة متسلّم على بيروت فما طال به الامر حتى خان الثقة وخرج على الامير فوضع يده على بيروت وما زال يدسّ الدسائس لدى الباب العالي حتى توصّل الى مقام الولاية ورتبة الباشاوية وانقلب على ربّ نعمته الامير يوسف واخذ يدبّر له المكائد في لبنان حتى اضطرّ الى الاستقالة فخلفه على الامارة الامير بشير الثاني .

الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ – ١٨٤٠)

لم يشذّ الامير بشير عن الخطة التي وضع اسسها فخر الدين الكبير فعزّز في الداخل الوحدة الوطنية على اساس القومية اللبنانية . وقد بلغ تشدده في نبذ النعرة الطائفية انه تعذّر على الناس في عهده ان يعرفوا الى أية طائفة كان ينتمي الامير ويروون انه قد وقع جدال بين رجال ثلاثة حول دين الامير فقال احدهم انه مسلم وقال الآخر انه درزي وقال الثالث انه ماروني . قام الامير بالقبض عليهم وسوقهم الى ديوانه وحكم عليهم حكماً شديداً .

---

(١) طنوس الشدياق ص ٣٦٨ .

وضع الامير بشير نصب عينيه بلوغ هدف فخر الدين بالسعي لنزع مظاهر كل سيادة للدولة العثمانية على لبنان .

في هذا السبيل تحالف الامير مع محمد علي والي مصر على ان يرسل محمد علي حملة على سوريا بقيادة ابنه ابراهيم ، فيساعده الامير بشير وتواصل الحملة زحفها حتى الآستانة .

وفعلاً دخل الجيش المصري سوريا وانضم اليه اللبنانيون فكان لهم شأن في كثير من انتصارات ابراهيم باشا .

على ان ابراهيم باشا بعد ان استتبّ له الامر لم يحقق للبنانيين ما أرادوه من المحالفة وهدفهم فيها الاستقلال التام . بل رأوا ان نتيجة احتلال ابراهيم باشا كان عبارة عن ابدال سيادة بسيادة فثار اللبنانيون على ابراهيم باشا ثورة جمعت في مار الياس انطلياس الدروز والنصارى والمتاولة والاسلام واقسموا اليمين انهم يحاربون لاستعادة الاستقلال او الموت (١) .

وقد ارسل قنصل روسيا في بيروت تقريراً الى سفيره في الآستانة بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ ورد فيه ما تعريبه : « وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ جرّ خضوع كل سوريا فلا يبعد ان تؤول ثورتهم اليوم الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد» (٢) .

وقد تم ما تنبأ به قنصل روسيا فلم يلبث ان اضطر ابراهيم باشا الى ترك البلاد والرجوع الى مصر سنة ١٨٤٠ . وذهب الامير بشير ضحية تلك المحالفة فاضطر الى ترك لبنان الى جزيرة مالطا ثم سافر الى الآستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠ عن ٨٤ سنة .

---

(١) المحررات السياسية : ج - ١ - عدد ٢ و ٣ .
(٢) المحررات السياسية : ج - ١ - عدد ٤ ص ٧ .

الامير بشير الثالث

على اثر تخلي الامير بشير الثاني عن الامارة ، حاولت الدولة العثمانية ان تعين والياً تركياً .

احتجّ اللبنانيون وابلغوا صوتهم الدول الاوروبية فاجتمع سفراؤها في الآستانة واتفقوا على تحذير الباب العالي من سوء العاقبة اذا هو أقدم على تعيين وال تركي على لبنان ، خلافاً لحقوقه وتقاليده وامتيازاته .

وما زالوا بوزير خارجية الآستانة حتى وافقت الدولة على استبقاء الامارة وحفظها في الشهابيين .

على ان الباب العالي — تحسباً للمستقبل اختار لتولي المركز اقل الامراء كفاءة واضعفهم شأناً فعين بشير الثالث الملقب (ببوطحين) خلفاً لبشير الكبير .

على ان الغيوم لم تلبث ان تلبدت في سماء لبنان . وابتدأت فيه القلاقل . فكلف الباب العالي الامير بشير الثالث السفر الى الآستانة بحجة تقديم تقرير عن الحوادث .

وما ان سافر الامير حتى أعلن الباب العالي تعيين عمر باشا حاكماً على لبنان .

الفتن والثورات في لبنان

الطموح الى استقلال لبنان ، وفي سبيله حارب فخر الدين ثلاثاً وثلاثين سنة ، ركز في النفوس العقيدة اللبنانية بالاستقلال مؤسسة على الوحدة الوطنية بين ابنائه .

وبهدي تلك العقيدة سارت السياسة اللبنانية على عهد من خلف فخر الدين في الامارة من آل معن وشهاب .

ولم يكن استشهاد فخر الدين في نهاية الصراع الا ليمهر تلك العقيدة بطابع الدم .

قبالة ذلك الطموح الى الاستقلال ، وبعد ان تبين للباب العالي ان سرّ القوة في لبنان انما هو الاتحاد الوثيق بين الطوائف ، وجهت السياسة

العثمانية همها الى تفكيك عرى ذلك الاتحاد .

ذلك كان سبب الفتن التي اثير ضرامها في لبنان طوال عشرين سنة (١٨٢٠ — ١٨٤٠) .

على اثر تخلي الامير بشير الثاني عن الامارة ، حاولت الدولة العثمانية ان تعين على لبنان والياً تركياً . فحذرها ممثلو الدول من سوء العاقبة فوافقت على حفظ الامارة في الشهابيين ، على ان يكون اضعفهم وهو الامير بشير الثالث خلفاً للامير بشير الكبير ، وذلك تهدئة لحوادث مبيتة وفي الواقع لم تلبث الغيوم ان تلبدت في سماء لبنان وابتدأت في الفتنة .

وتنفيذاً للخطة المرسومة كلف الامير بشير الثالث السفر الى الآستانة بدعوة تقديم تقرير عن الحوادث .

وما ان سافر الامير بشير حتّى اعلن الباب العالي تعيين عمر باشا حاكماً على لبنان .

عمر باشا والثورة في لبنان

لم يكد ينتشر خبر اقالة الامير بشير الثالث وتعيين عمر باشا مكانه حتّى افاق اللبنانيون من غفلتهم وفهموا ان الضربة لم تكن للامير بشير شخصياً بل بالاحرى لاستقلال البلاد . فهاجت خواطرهم وقدّموا العرائض الى قناصل الدول محتجّين على تولية حاكم اجنبي عليهم .

وسرت في البلاد روح الثورة فبادر القناصل الى اطلاع سفرائهم في الآستانة على واقع الحال فبادر السفراء الى مخابرة الباب العالي تلافياً للكارثة قبل وقوعها .

وقد جاء في تقرير لسفير انكلترا بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢ ما ترجمته :

« اتصل بنا ان الامير بشير قاسم عزل فجأة بامر استبدادي ... وان السرعسكر مصطفى باشا عيّن باشا مسلماً مكان الامراء عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم ، وهو اليوم في دير القمر بصفة وال على لبنان

مما لم يسبق له مثيل وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقررة منذ عدة قرون ... واذا ثار اهالي الجبل واضطر السرعسكر الى استعمال القوة يزيد في غضبهم ، ويرجح ان حراجة موقفه تجعله ينشب في قتال تكون الارجحية فيه الى خصومه فيعرّض شرف سلطانه لعار الانكسار » .

ولم تستطع مؤامرات الباب العالي من حمل الدروز على الرضا بالحاكم الاجنبي ، فانتشرت الثورة في الشمال وكسروان والمتّن والشوف فاضطرت الآستانة اخيراً الى اقالة عمر باشا .

اعلان لبنان قائمقاميتين

زادت القلاقل في لبنان بفضل ما دسّه فيه عمل الدولة وما حاكوه من مؤامرات ، وتوالى اجتماع السفراء في الآستانة بوزير الخارجية ، يتباحثون ويتداولون في ما يمكن عمله حتّى يضعوا حداً للاضطرابات ، ويحولوا دون امتداد الفتنة وانتشارها بين الدروز والنصارى .

وبالرغم من معارضة سفير فرنسا المطالب باعادة الامارة الى ما كانت عليه ، قرّر رأي السفراء والباب العالي على انشاء نظام حكم جديد في لبنان حلاً للمشكلة ، على ما ادعوا ، وخلاصة الاتفاق ان تلغى الامارة ويقوم مقامها قائمقاميتان :

نصرانية وعليها امير مسيحي من غير الشهابيين ، ودرزية وعليها امير درزي .

فولي الامير حيدر اسماعيل اللمعي قائمقامية النصارى ، والامير احمد ارسلان قائمقامية الدروز .

هكذا بلغت الدولة العثمانية الغاية التي أرادتها فكان نظام القائمقاميتين هدماً للامارة اللبنانية ، وطعنة في صميم الاستقلال .

عهد القائمقاميتين

الوحدة الوطنية التي رفع فخر الدين منارها كانت الركيزة التي بنى عليها العقيدة اللبنانية بالاستقلال ، وفي سبيله حارب الامير الكبير الدولة « ثلاثاً وثلاثين سنة » .

ولم يكن استشهاده في نهاية الصراع الا ليمهر العقيدة بطابع الدم . وبهدي هذه العقيدة سارت السياسة اللبنانية على عهد من خلف فخر الدين في الامارة من آل معن وشهاب .

وتبيّن للباب العالي ان سر القوة في لبنان انما هو الوحدة الوطنية فاعتمد محاربة تلك الوحدة بشتى الوسائل ، حتى يصبح لبنان وامتيازاته لقمة سائغة .

وقد سهّل نظام القائمقاميتين اعمـــال التفرقة يغذيها بالدسائس والاموال عمّال الدولة المحيطون بلبنان ، حتى انفجرت الفتنة الكبرى سنة ١٨٦٠ ، وكان الباب العالي يعتقد ان حوادث تلك السنة تكون قاضية قضاء مبرماً على كيان لبنان الخاص وقواعد استقلاله فتلحقـه الدولة بالولايـــة وتهدم حصن الحرية الذي بناه اللبنانيون بجهودهـــم وتضحياتهم عبر الاجيال .

على ان الضمير العالمي اهتز للمآسي التي حلّت بلبنان، فبادرت الدول الاوروبية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر في الشكوى التي قدمها عقلاء اللبنانيين وقد القوا تبعة الحوادث ومسؤوليتها على موظفي الدولة وعمالها في سوريا. امام الحملة التي اثارتها العواصم الاوروبية ومجالسها النيابية على الآستانة وعمالها ، لم ير الباب العالي بداً من السعي للتهدئة فارسل وزير الخارجية فؤاد باشا الى لبنان واعلن ان مهمته انزال العقاب بمستحقيه واعادة الامن الى نصابه .

بعد الغاء الامارة كان هدف السياسة العثمانية ان تلغي ايضاً نظام القائمقاميتين وتقضي على كيان لبنان وامتيازاته ولحقه بالولايات .

تلك كانت الغاية من اثارة الفتن ونشر الفوضى في لبنان لكن النتيجة جاءت على عكس ما استهدفت تلك السياسة ، فبدلاً من الحاق لبنان بالولاية ادى مؤتمر السفراء الى صيانة الكيان في استقلال داخلي وضعته الدول الكبرى في ضمانتها .

وكانت الدول الاوروبية القاضية: فرنسا، انجلترا، روسيا، النمسا، بروسيا (المانيا) ، وقد انضمت اليهن ايطاليا .

لبنان الحاضر محط رحال احداث تقلبت على دول اربع : انجلترا ، فرنسا ، تركيا ، روسيا ، طوال اربعة قرون .

فاذا لم تتصل الذكريات بتلك الاحداث ، ولم تربط الاحداث بتطورات تلك الدول ، فلا يستشف من خلايا الذكريات نور .

على متن طائرة تجوب افاق الاجيال تلقى لمحة خاطفة على القمم ومن القمم ، تهبط النفاثة الى مطار الذكريات .

لمحة على العالم

شهد مغيب القرن الخامس عشر حدثاً غير وجه الكون يوم اطلت انجاد العالم الجديد على مراكب كريستوف كولومب ، واقتسم الملك بين اسبانيا والبرتغال . فغزا البلاد تجار الدولتين يجنون فيها ثروات ما خطرت في بال بشر ، ادناها الذهب والحجارة الكريمة . واخذ المستعمرون يحملون الكنوز والمعادن والخيرات الى مدريد عاصمة اسبانيا ، والى لشبونه عاصمة البرتغال .

وهزّت الغيرة انجلترا وفرنسا وهولندا ، فراحت كل منها تحتل قطعة في ذلك العالم الفسيح . فاختصّ الانجليز ببقاع في الشمال بعد ان حطموا عمارة الاسبانيين (١٥٨٨) وسيطروا في البحار .

ونزل الفرنسيون في المنطقة عينها يزاحمون فيها الانجليز . فكانت اميركا الشمالية لانجلترا ، وكندا لفرنسا .

ثم وقعت الواقعة بين الدولتين فانتهت باخراج الفرنسيين من كندا ، واستئثار الانجليز بالشمال الاميركي (١٧٦٣) .

وما عتم ان رأى انجليز اميركا ان انجليز لوندرا يستبدون بهم ويستغلون ، فثار ثائرهم وشهرت الحرب بين الفريقين .

وكان الفرنسيون يكمنون الحفيظة على انجلترا انها اجلتهم عن كندا ، فبادروا الى نجدة الثائرين .

لافاييت ، روشامبو ، داستنج . تلك اسماء سجلت متن الصداقة الفرنسية الاميركية في القرن الثامن عشر ، فساعد الفرنسيون انجليز اميركا على طرد انجليز لوندرا ، فاستقلت الولايات المتحدة برئاسة واشنطون (٤ تموز ١٧٧٦) .

لم ينم الانجليز على الضيم فاستعاضوا من اميركا الشمالية بالهند حيث وطدوا دعائم الشركة الانجليزية واحلوا التاج محلها واعلنوا الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند (١٨٧٧) .

وكان الفرنسيون يتقفون هناك ايضاً آثار انجلترا فأنشأوا شركة الهند (١٦٢٧) وأسسوا الامبراطورية الهندية الشرقية (الهند الصينية الفرنسية) .

بينما انظار اوروبا متجهة الى ذلك العالم الجديد ، كان الفتح العثماني يلعب دوره في العالم القديم ، فدوخ محمد الثاني الامبراطورية البيزنطية ، واحتل عاصمتها سنة ١٤٥٣ ، ومدّ السلاطين رواق ملكهم على البلقان ، وحملت جيوش بني عثمان راية الهلال الى آسيا فنشرها سليم الاول على مشارف سوريا ومصر (١٥١٦) ودقّ سليمان الكبير اوتاد خيامه على ابواب فيينا (١٥٢٠–١٥٦٦) .

ازاء ذلك التوسع تحققه كل من انجلترا وفرنسا وتركيا في العالمين ، نهضت من الشرق دولة القياصرة ووجهتها البلقان ، بحجة انها تمتّ الى شعوبها الصقالبة بنسب ، فاجتاحت كاترين الثانية البغدان والافلاق (مولدافيا وفلاخيا) واحتلت كتائبها شبه جزيرة القرم ، بعد تدمير البحرية التركية (١٧٧٤) .

في غمرة تلك الاحداث ، هزّ اوروبا دوي صيحة اطلقها الفرنسيون سنة ١٧٨٩ على جنبات الباستيل ، فاطاحت الثورة عرش آل بوربون وخشي الملوك على تيجانهم فتحالفوا على فرنسا الجمهورية وفي طليعة الحلفاء انجلترا .

وقد رأى قادة الثورة ان يحوّلوا الضغط عن جيوشهم في اوروبا الى جبهة تضرب انجلترا في الصميم ، فكانت حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٩ وهدفها الهند عن طريق سوريا .

ولما وصل بونابرت الى ضواحي عكا ارسل الى الامير بشير رسالة بتاريخ ٢ اذار سنة ١٧٩٩ يعده فيها بالاستقلال اذا انضم اليه في محاربة الجزّار فلم ير الامير مصلحة للبنان في تلبية النداء (١) .

ووعت انجلترا خطر الحملة الفرنسية فارسلت في اعقابها عمارة حربية لمساعدة تركيا ، كما ساعد الفرنسيون الثورة في اميركا . فما وصل بونابرت الى عكا حتى تناولت جيشه مدافع الانجليز وقد سدّوا عليه طريق البحر وصمدت الاسوار في وجه القائد الفتى فاضطر الى التراجع . وقد ورد في مذكرات نابوليون انه لو سقطت عكا لكان مشى بجيوشه الى الهند وغيّر وجه العالم .

تلك المحاولة في تهديد الهند عن طريق لبنان وسوريا فغرت في الشرق بين انجلترا وفرنسا فوهة بركان لا تزال تتقاذف حممه الاجيال .
وكانت شعلة الثورة الكبرى قد اتصل لهيبها بالعالم الجديد فاستقلّ

(١) ذكر تفاصيل تلك الحادثة كتابي « في سبيل لبنان » ص ١٦٢ .

اسبانيو اميركا الوسطى والجنوبية عن اسبانيا ، كما استقلّ بورتغاليو البرازيل عن البرتغال تخلصاً مما كان يعانيه هؤلاء واولئك من استبداد واستئثار لشبونة ومدريد (١٨٢٠ — ١٨٣٠) .

في الوقت عينه كانت تغلي مراجل البلقان فثار اليونان والصقالبة والرومان على الفاتح التركي . فأسدت انجلترا وفرنسا وروسيا المعونة الى وطن سقراط وارسطو وافلطون فدمرت عماراتهنّ العمارة العثمانية المصرية في نافارين سنة ١٨٢٧ واستقلت اليونان . وساعدت روسيا الشعوب الاخرى ، فاستقلت صربيا ورومانيا وبلغاريا والجبل الاسود (١٨٠٤ — ١٨٨٧) .
وقد نتج عن تلك المساعدات توطيد النفوذ الانجليزي في اليونان ، وبسط النفوذ الروسي على البلقان .

وكانت الفتوحات وما يجرّ النصر في اذياله من بذخ وترف قد اوهن عزم السلاطين فخلا الجو للقياصرة في الامبراطورية العثمانية ، فأخذت جيوشهم تفيء ما تختار من ارض تركيا في جنوبي شرقي اوروبا حتى اشرفت روسيا على ضفاف الدانوب تحدق بالمضيقين ، وتتطلع الى الآستانة مرتكز الثقل بين القارتين .

هكذا فتحت ابواب المسألة الشرقية .

تطوّر الاحداث في لبنان

شغل الامارة اللبنانية بيتان : البيت المعني والبيت الشهابي ، وتعاقب الامراء عليها نحو ثلاثمائة واربعين سنة من فخر الدين الاول الى الامير بشير الثالث (١٥٠٠ – ١٨٤٢) .

ولما فتح السلطان سليم سوريا وجد فخر الدين الاول على كرسي الامارة ، فأقره في امارته وجعله مقدماً على الجميع .

في ذلك الزمن لم يكن للطائفية اثر في لبنان . فلما هلك الامير قرقماز بن فخر الدين الاول وخيف على ولديه فخر الدين ويونس من بطش القائد التركي لجأت بهما والدتهما الست نسب الى كسروان ، في صميم البلاد المارونية ، حيث حضنهما الشيخ ابو صقر الخازن في قريتـه « بلّونة » ، الى ان استعاد فخر الدين امارة ابيه وجده فعيّن مربيه الشيخ ابا صقر مديراً له وعيّن من بعده ولده الشيخ ابا نادر وجعل من اخصائه الشيخ ابا ضاهر حبيش .

ونزع فخر الدين الثاني الى الاستقلال فحارب الدولة العثمانيـة الجبّارة طوال ثلاثين سنة يلتف بلوائه الدروز والنصارى والمسلمون . ولم يحل اختلاف الدين دون محالفته دوق توسكانة وبابا رومية ، وما زال من فتح الى فتح حتى مدّ سلطان امارته من ضواحي حلب في شمالي سوريا الى جبل الكرمل في فلسطين .

ولما انقطعت السلالة المعنية بوفاة الامير احمد المعني سنة ١٦٩٧ ، اجتمع اللبنانيون ، لا تفرّق بينهم طائفية ، وقرّ رأيهم على اختيـار الامير بشير الشهابي ، وكان ذلك الاختيار مظهر اخلاص للبيت المعني لان صلة النسب كانت تربط الامير الشهابي المختار بالمعنيين وهو ابن اخت الامير احمد بنت الامير ملحم المعني .

وواصل الشهابيون سياسة المعنيين في اتجاه الاستقلال والوطنية تجمع صفوف اللبنانيين على اختلاف المذاهب حول الامير ، وقد كانت بينهم وبين عساكر السلاطين معارك ضارية ابرزها موقعة « عين دارا » (١) حيث انتصر اللبنانيون ، عهد الامير حيدر الشهابي ، على الجيش العثماني انتصاراً مبيناً (١٧١١) .

وظل لبنان على منعته في ظل الامارة ووحدة اللبنانيين ، حتى كان عهد الامير بشير يجدد في عزته عهد فخر الدين .

في تلك الاثناء غنم محمد علي فرصة الاضطرابات التي تلت جلاء حملة بونابرت عن مصر ، فقضى على المماليك وبنى له عرشاً على انقاض مملكتهم .

فاندفعت انجلترا الى مساعدة تركيا . فغشت المراكب الانجليزية والتركية هذه السواحل سنة ١٨٤٠ بامرة السر شارل نابيير ، وتدفقت الجيوش العثمانية في البر وعلى رأسها السرعسكر سليم باشا . ورأى القائدان الانجليزي والعثماني ان يستميلا الامير بشير اليهما فأرسل اليه كل منهما كتاباً يعده بتثبيت الامارة وجعلها وراثية في بيته اذا هو انحاز الى الدولة على المصريين . فأبت على الامير مروءته ان يتخلى عن حليفه . فاضطر ابراهيم باشا الى اخلاء سوريا والعودة الى مصر .

لكن الدائرة دارت على امير لبنان فاستسلم الى الانجليز — كما كان استسلم قبله سجين جزيرة القديسة هيلانة — فأقلت الامير دارعة انجليزية الى مالطة ولُقّب بالمالطي .

ورأت تركيا ان الامارة اللبنانية شوكة شائكة في جنبها وان السبيل الوحيد الى اقتلاعها تحريك نعرة في لبنان تمزقه طوائف وتهدم الامارة . فكانت بدعة القائمقاميتين المسيحية والدرزية ، وتوالت الفتن الطائفية عشرين سنة حتى حوادث السنة الستين فأسفرت عن تقسيم البلاد طائفياً وانضواء كل طائفة تحت لواء غريب . وحسبت تركيا بعد الغائها الامارة

(١) في البقاع .

ان الساعة قد آزفت لضم لبنان الى الولاية .

على ان تدخّل الدول حال دون تحقيق الهدف كاملاً ، وانتهى الى تسوية بين الدول المدافعة عن لبنان وفي مقدمتها فرنسا ، والدول المنتصرة لتركيا وفي مقدمتها انجلترا . فمن جهة الغيت الامارة اللبنانية وبترت حدود لبنان الطبيعية . لكن من جهة اخرى حفظ كيان لبنان الممتاز وسنّ نظامه الاساسي بضمان الدول الكبرى : انجلترا ، بروسيا ، روسيا ، فرنسا (١) .

ولم يكد بروتوكول لبنان سنة ١٨٦١ يضع هدنة للزحام في هذه البلاد بين انجلترا وفرنسا حتى عاد الى اشدّه بينهما في مصر وافريقيا — قنال السويس — رغم الجهود التي بذلتها انجلترا لعرقلة مشروع قنال السويس الفرنسي — وهو الطريق الجديد الى الهند — تحقق المشروع وفتح القنال سنة ١٨٦٩ . فلم تنم انجلترا على الضيم بل تمكنت سنة ١٨٧٥ من مشترى اسهم الخديوي اسماعيل وقدرها ١٧٧٠٠٠ سهم ففازت باكثرية الاصوات وضمنت السلطة العليا في ادارة الشركة .

ولم تكتف انجلترا بهذا الفوز فاحتلّ جيشها وادي النيل سنة ١٨٨٢ بحجة الدفاع عن عرش الخديوي توفيق ضد ثورة عرابي باشا .

فشوده

وصل القومندان الفرنسي مارشان سنة ١٨٩٨ الى « فشوده » في قلب السودان الانجليزي المصري فراع انجلترا ان تحتل فرنسا تلك المنطقة الحساسة فوقعت ازمة بين الدولتين اسفرت عن اجلاء الفرنسيين.

وبينما عبد الحميد يرى الشعوب سُجُداً له كسجود موسى في الحضور ، اذا بصوت يزعق من سلانيك فتهتزّ قصور يلدز برمتها ، وينشر فتيان الاتراك الدستور العثماني (١٩٠٨) فتختلج الامبراطورية . ان دماً جديداً سينهض « بالرجل المريض » وتستعيد تركيا امجادها لا

(١) جعلت ايطاليا في مصاف الدول الكبرى وكانت مناسبة لتوقيع سفير ايطاليا على بروتوكول لبنان .

بالفتوحات بل في الحرية والاخاء والمساواة .

وحمل الاثير تموجات الامل والاعتزاز الى هذه البلاد فنزل المشايخ والرهابين الى الشوارع على رأس تظاهرات تنادي بحياة الائتلاف الجديدة في العهد الجديد .

وسرت تلك الروح الى لبنان فقام فيه نفر يطالب بالتنازل عن الامتيازات وضم لبنان الى الامبراطورية الدستورية .

ونشبت الحرب العالمية الاولى وانضمت تركيا الى المانيا والنمسا وعاد الحلفاء الى طرح « المسألة الشرقية » على بساط البحث طامحين الى اقتسام المشرق بينهم ، والعمدتان في ذلك الطموح انجلترا وفرنسا .

ونشطت الدولتان الى الدعايات في البلاد العربية ومصر واميركا فاستدرج امير مكه الى صف الحلفاء ووعد الحسين بمملكة عربية واسعة الارجاء والتفّ حوله فريق من السوريين واللبنانيين ، ورجع الفرنسيون الى فريق منهم ، والانجليز الى فريق آخر ، على ما كان هيأه التقسيم الطائفي والفتن التي انتابت لبنان وسوريا في منتصف القرن الماضي .

وكانت اميركا قد خرجت عن مبدأ مونرو بالانعزال ، وخاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء ، وتطلعت بدورها الى نصيب في المشرق يرمز الى تضحياتها ، فارسلت بعثة « كرين » للاشتراك في الاستفتاء على الانتدابات .

وكانت فرنسا تطمع بانتداب ينشر العلم المثلث على بقعة تمتد من العريش جنوباً الى جبال طوروس شمالا .

وفي نتيجة المخابرات والمساومات اقتصر الانتداب في المشرق على فرنسا وانجلترا ، فخصّت الاولى بسوريا ولبنان وظفرت انجلترا بحصة الاسد .

اما اميركا فقد اكتفت بانزال شركاتها في البلاد العربية تأميناً لها على منابع البترول .

وظل الزحام بين انجلترا وفرنسا في المشرق حتّى وقعت الحرب الكونية الثانية وانتهت بجلاء الفرنسيين عن سوريا ولبنان ١٩٤٣ ، وقد

حسب القوم في بشامون كما حسب غيرهم انهم هم الذين سمروا الجيش الفرنسي في البر ثم قذفوا به الى البحر .

وقد تحقق ، بعد الجلاء، استقلال البلاد التام ، وتداول رئاسة الجمهورية اللبنانية اربعة رؤساء حتّى اليوم .

نظام لبنان الاساسي وقرارات الدول

وضع لبنان في الامبراطورية العثمانية

لما فتح السلطان سليم سوريا سنة ١٥١٦ اقر فخر الدين المعني الاول على امارته في لبنان . وتسلسلت الامارة اللبنانية من المعنيين الى الشهابيين الى ان اقلق استقلالها الباب العالي ، فعمدت الدولة الى اثارة الفتن في لبنان توصلاً الى هدم امارته وضمه الى الولاية . فكانت الاضطرابات التي نزلت بلبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ . وقد تمكنت الدولة خلال تلك المدة من الغاء الامارة اللبنانية ومن قسمة لبنان قائمقاميتين درزية ومسيحية ، فخلقت فيه بدعة الطائفية بعدما كان لبنان قد عاش عهد الامارة وقبلها في وحدة وطنية لا تفريق فيها بين درزي ومسلم ومسيحي .

وأدّى استفحال الحوادث الى تدخل اوروبا سنة ١٨٦٠ . وبدلاً من تحقيق هدف الدولة في الحاق لبنان بالولايات ابرمت سنة ١٨٦١ بين الباب العالي وبين فرنسا وانكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا معاهدة وضعت استقلال لبنان الداخلي في ضمانتها ، انضمت اليهن ايطاليا سنة ١٨٦٨ فدخلت مصاف الدول الاوروبية الكبرى . واصبح لبنان في ضمانة الدول الست .

هكذا قطعت الضمانة الدولية كل أمل للباب العالي بضم لبنان .

تشكيل اللجنة الدولية

لما تشكلت اللجنة الدولية التي كلفت وضع نظام لبنان ، عيّنت تركيا لتمثيلها في اللجنة فؤاد باشا وقد كان رجلاً من أدهى رجالها . وارسلت انكلترا شاباً من ألمع شبابها اللورد دوفرين .

اما فرنسا فقد اكتفت بترك تمثيلها في اللجنة لقنصلها في بيروت السير بكلار ، وارسلت الجنرال دي بوفور على رأس الحملة . وقد تبيّن في ما بعد ان الاثنين لم يكونا على مستوى المهمة .

كانت سياسة فرنسا يومئذ ترمي الى اعادة الامارة اللبنانية الى لبنان ، وعلى رأسها حاكم وطني ، والاعتراف للبنان باقصى ما يمكن من الاستقلال ، وتوسيع حدوده الى سهوله ومدنه البحرية على اساس الخريطة التي وضعتها الحملة الفرنسية .

وكانت سياسة الآستانة تؤيدها انكلترا على نقيض سياسة فرنسا .

وبفضل تفوّق ممثلي تركيا وانكلترا انحاز الى رأيهما ممثلو روسيا والنمسا وبروسيا ، وعجز النظام عن تحقيق الاماني اللبنانية التي كانت تؤيدها سياسة فرنسا :

فلا أعيدت الامارة .

ولا كان الحاكم لبنانياً .

ولا وطّدت دعائم الاستقلال .

ولا وسّعت الحدود .

بل ان ذلك النظام — على علاّته — لم يسلم من تجاوز المتصرفين ، وهم موظفون مرجعهم الى الآستانة ، فقد عملوا طوال عهد المتصرفية على خرق مواد النظام لمصلحة تركيا ، مما كان يدفع اللبنانيين الى رفع الاحتجاجات ، ويحمل الدول الضامنة على وضع القرارات لدى تعيين كل متصرف ، في شجب المخالفات وفرض احترام النظام وتوسيعه .

غير ان النظام كان — على كل حال — دستوراً يصون الكيان اللبناني في استقلاله الداخلي وامتيازاته ، ويؤمّن للبنان الضمانة الدولية .

الحاكم العام

مادة ١ — حاكم مسيحي . يتفق عليه وعلى مدته بين الباب العالي والدول الضامنة . ويصدر فرمان بتعيينه قابل العزل . ولكن لا يعزل الا بعد المحاكمة . له كل حقوق السلطة التنفيذية . يحصل الضرائب .

يعيّن الموظفين والقضاة . يدعو مجلس الادارة الى الانعقاد ويرئسه . لكن جرت العادة بتعيين رئيس لبناني . اساء المتصرفون استعمال حق تعيين الموظفين والقضاة فكان المتصرف يعيّن ويعزل بالاستحسان .

ملحوظات

بدلاً من كلمة « حاكم » التي وردت في النص الرسمي الفرنسي استعملت الترجمة الرسمية باللغتين التركية والعربية كلمة « متصرف » . كما اطلقت على لبنان كلمة « متصرفية » ، وذلك تمويهاً على الرأي العام في الامبراطورية العثمانية ان لبنان فيها هو دون « الولاية » لان الولاية كانت منطقة ادارية مقسومة « متصرفيات » . والمتصرفية جزء من الولاية . والمتصرفون تحت امر الوالي ، خلافاً لما نص عليه « النظام » ، وقد فرض ان يكون حاكم لبنان برتبة مشير او وزير وهي رتبة اعلى من رتبة الوالي ، بل اعلى الرتب في الدولة عسكرياً ومدنياً ، ولم يكن للوالي اقل شأن في امور لبنان بوجه من الوجوه ، خلافاً لما توحي به الترجمة .

جنسية الحاكم

كان تعيين الحاكم غريباً عن لبنان بدعة في تاريخه .

وقد اعترضت فرنسا على هذه البدعة اعتراضاً شديداً وارسل وزير خارجيتها توفنال الى سفيره في الآستانة دي لا فاليت بتاريخ ٢٨ ايار ١٨٦١ برقية يشدد فيها على ان يكون الحاكم وطنياً . وهذه ترجمتها : « يجب ان تطلب ان يكون حاكم لبنان وطنياً . دافع عن هذا المبدأ حتى النهاية . ولا تتحول عنه الا اذا رأيت انه يتحتم القبول بحل للاشكال . وفي هذه الحال لا ترض بأي حل كان الا اذا ضمنت رسمياً ان الوطنيين لا يكونون محرومين في المستقبل من تقلد منصب الحاكم العام » .

لم يؤيد ممثلو الدول طلب ممثل فرنسا فسقط الاقتراح .

وكان تعيين « الحاكم » غير لبناني سبباً في ثورة يوسف بك كرم .

توالى على المتصرفية ثماني متصرفين ، من ١٨٦١ الى ١٩١٦ .
ومن غرائب الصدف انه كان يرجع الى الآستانة متصرف ويتوفى في لبنان متصرف : سافر داود وتوفي فرنكو . سافر رستم وتوفي واصه . سافر نعوم وتوفي مظفر . سافر يوسف وعزل اوهانس وكان دوره ان يتوفى في لبنان (١) .

التمثيل النيابي

مادة ٢ — مجلس الادارة — وضع النظام اساس التمثيل النيابي في لبنان على درجتين : ينتخب الاهالي ، في الدرجة الاولى ، شيوخ القرى (المختارين) وفي الدرجة الثانية ، ينتخب شيوخ القرى اعضاء مجلس الادارة .
على ان انتخاب شيوخ القرى لم يكن يجري — تنفيذاً لمبدأ الدرجتين — كلما انتهت مدة مجلس الادارة او حلّ المجلس . بل كان يبقى شيوخ القرى الى أجل غير مسمى ، لا تنتهي مدتهم الا بالوفاة او بالعزل ، فكان ينفسح امامهم المجال لانتخاب مجلس الادارة اكثر من مرة . وفي كل مرة يوحي اليهم المتصرف بكلمة السر ، ويعرفون ان كل من خرج عن كلمة السر ، يخرج من المشيخة .

عدد الاعضاء

جعل النظام عدد اعضاء المجلس اثني عشر عضواً ، من مختلف الطوائف: موارنة ٤ ، دروز ٣ ، ارثوذكس ٢ ، مسلم ١ ، كاثوليك ١ .
وأنشأ بروتوكول اوهانس باشا عضواً جديداً مارونياً عن دير القمر وانتخب داود عمون ، فصار عدد المجلس ثلاثة عشر عضواً .

---

(١) داود باشا من ١٨٦١ — ١٨٦٨	فرنكو باشا من ١٨٦٨ — ١٨٧٣
رستم باشا من ١٨٧٣ — ١٨٨٣	واصه باشا من ١٨٨٣ — ١٨٩٢
نعوم باشا من ١٨٩٢ — ١٩٠٢	مظفر باشا من ١٩٠٢ — ١٩٠٧
يوسف باشا من ١٩٠٧ — ١٩١٢	اوهانس باشا من ١٩١٢ — ١٩١٦

صلاحيات المجلس

كان لمجلس الادارة الرأي الفصل في الشؤون المالية . وفي شؤون القضاة وفي الترخيص أو الرفض للعساكر العثمانية بدخول لبنان . وكان للمجلس رأي استشاري في المسائل الاخرى التي يطرحها عليه الحاكم .

القضاء

مادة ٦ — جعل النظام القضاء في لبنان مستقلا . يتولاه قضاة لبنانيون . اما الدعاوى التجارية فقد جعلها النظام من اختصاص محكمة بيروت التجارية . وعدّل بروتوكول اوهانس باشا المادة فجعل الدعاوى التجارية بين اللبنانيين من اختصاص المحاكم اللبنانية .
واعطت البروتوكولات القضاة الحصانة القضائية فلا يعزل القاضي الا بعد تحقيق يقوم به مجلس الادارة .

الجندية

مادة ١٤ — صوناً للاستقلال الداخلي في لبنان حصر النظام شؤون المحافظة على الامن بالجندية اللبنانية . وحظر على الجيش العثماني الدخول الى لبنان الا اذا وقعت ظروف غير عادية . ففي هذه الحالة اجاز النظام للحاكم ان يستعين بعساكر الدولة — شرط موافقة مجلس الادارة . وفي هذا الظرف . يكون قائد هذه العساكر تحت امرة حاكم لبنان طول المدة التي يقضيها فيه .

تضييق الحدود

مادة ٣ — شذب النظام الحدود فخنق لبنان في الجبل مقسوماً سبع قائمقاميات : قائمقامية البترون وتشمل منطقة بشري واهدن وزغرتا والزاوية (دون القلمون وطرابلس وعكار) .
قائمقامية الكورة . قائمقامية كسروان . قائمقامية المتن ، دون

بيروت . قائمقامية الشوف . قائمقامية جَزين (دون صيدا وصور وجبل عامل وحاصبيا وراشيا) . قائمقامية زحله (دون سهل البقاع) .

حسنات النظام وسيئاته

الحسنات

حفظ النظام للبنان كيانه واستقلاله الداخلي .

كل الموظفين لبنانيون في الادارة . في القضاء . في الجندية . عدا الحاكم العام . مع الاحتفاظ بحق تعيينه لبنانياً .

لا خدمة عسكرية .

لا ضرائب تفرض . ولا زيادات عليها .

حال النظام دون المحاولات في تركيا لادغام لبنان في الولايات .

منح النظام لبنان الضمانة الدولية .

السيئات

حصر النظام لبنان في جباله . فافقر ابناءه فاضطروا الى الهجرة . فجرفتهم عشرات الوف حتّى كاد عدد المهاجرين يوازي عدد المقيمين .

وحرم النظام الموظفين كل ضمانة . فجعل الموظف آلة في يد المتصرف .

واعتمد النظام اساس الطائفية في النيابة والوظائف فاطفئت الشعلة الوطنية في صدور اللبنانيين . واصبحت النعرة الطائفية – وما تزال – اداة لزعزعة اركان الاستقلال .

الاقطاعيات في العهد العثماني وقبله

الشهابيون : مالك الملقب شهاب من سلالة مرة بن كعب .

اللمعيون : المقدم مراد ابن المقدم محمد الذي امرّه الامير حيدر الشهابي من بني فوارس احدى الطوائف العشر التي قدمت من الجبل الاعلى الى لبنان . دخلوا لبنان قبل سنة ١٦٥٢ .

الخوازنة : ينتسبون الى الشدياق سركيس . سنة ١٥٤٥ دخل سركيس من جاج الى الفتوح ونزل في البوار .

الحبيشية : ينتسبون الى الشيخ حبيش . سنة ١٥١٥ ، بعد ان قتل السلطان سليم الملك قانصوه قدم حبيش الى غزير .

الظاهـــر : ينتسبون الى الشدياق بطرس الزيري . سنة ١٦٦٠ .

الصالـــح : الخوري صالح – سنة ١٧٠٠ قدم صالح من كسروان الى رشميا .

الدحداح : ينتسبون الى جرجس الدحداح . سنة ١٣٧٥ توفي غزال بلا عقب . ورثته ابنته زوجة جرجي الدحداح الملقب بالشدياق .

الشدياق : عواد – السمعاني – خاطر .

تنـــوخ : تنوخ بن تميم بن النعمان بن المنذر بن امرىء القيس المحرق (قيسي)

علم الدين: علم الدين تبرأ من آل تنوخ وصار اميراً على اليمنية سنة ١٣٠١ . انعم عليه السلطان مراد بولاية الشوف . انقطعت السلالة التنوخية سنة ١٦٣٣ .

ارسلان : ارسلان بن مالك ... الملك المنذر – اللخمي .

جنبلاط : جان بولاد الكردي الايوبي . سنة ١٦٣٠ حضر جان بولاد

من بلاد حلب الى بيروت لما بينه وبين آل معن من صداقة .

قاسم عماد : عماد رحل من العمادية قرب الموصل الى الجبل الاعلى . ثم العرقوب .

نكد : ينتسبون الى قبيلة عرب الحجاز . سنة ١١٢٠ حضروا الى الشوف وتقربوا من معن الايوبي.

تلحوق : ينتسبون الى قبيلة العرب – بني عزام – عرب الجزيرة اتوا مع الامير معن الى الشام ، ثم الى حوران ثم الى وادي التيم ؛ سنة ١١٤٤ الى بيروت . ثم الى الشويفات وكفرشيما ثم الى حومال .

معن : بن ربيعة الايوبي من ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان المنتسبة اليه العرب المستعربة. سنة ١١٢٠ قدم صقر الى الشوف .

بنو عساف : تركمان .

بنو سيف : اكراد .

حمادية : حمادة العجمي . له ولدان سرحال واحمد . ديب – او ديب تولوا مقاطعة الضنية . زوج ابنتيه لمقدمي جاج المسلمين اللذين توليا بلاد جبيل ضد الامير عساف والي غزير .

الامير عساف استدعى احمد وديب وقال لهما : تقتلان مقدمي جاج فتحلا محلهما فأبيا . اخيراً سرحال . سرحال رضي وارضى اخويه. توجهوا جميعاً الى جاج . قتلوا المقدمين واتوا برأسيهما الى غزير . سرحال تولى على بلاد جبيل .

لبنان الاداري

استقلال لبنان منذ الفتح العثماني

البيت المعني ١٥٤٥ – ١٦٩٧

فخر الدين الاول اقره السلطان سليم الفاتح على الامارة واطلق عليه لقب سلطان البر سنة ١٥١٦ – توفي فخر الدين الاول سنة ١٥٤٥

قرقماز بن فخر الدين	١٥٤٥ – ١٥٨٥
فخر الدين الثاني الكبير ابن قرقماز	١٥٨٥ – ١٦٣٥
ملحم بن يونس بن قرقماز	١٦٣٥ – ١٦٥٨
احمد بن ملحم	١٦٥٨ – ١٦٩٧

وبه انقطعت السلالة المعنية

البيت الشهابي ١٦٩٧ – ١٨٤١

بشير شهاب ابن اخت الامير احمد المعني	١٦٩٧ – ١٧٠٦
حيدر موسى شهاب ابن بنت الامير احمد المعني	١٧٠٦ – ١٧٣٢
ملحم بن حيدر	١٧٣٢ – ١٧٥٤
الاميران احمد ومنصور معاً اخوا الامير ملحم	١٧٥٤ – ١٧٦٢
الامير منصور وحده	١٧٦٢ – ١٧٧٠
يوسف بن ملحم	١٧٧٠ – ١٧٨٨
بشير الثاني الكبير	١٧٨٨ – ١٨٤٠

خلال فترات متقطعة تولى فيها امراء شهابيون آخرون

بشير الثالث الصغير ١٨٤٠ – ١٨٤١

فترة انتقال ١٨٤١ – ١٨٤٢

عمر باش النمساوي ١٨٤١ – ١٨٤٢

عهد القائمقاميتين ١٨٤٣ – ١٨٦١

قائمقامية النصارى		قائمقامية الدروز	
حيدر اسماعيل ابي اللمع	١٨٤٣–١٨٥٤	احمد ارسلان	١٨٤٣–١٨٤٤
بشير احمد ابي اللمع	١٨٥٤–١٨٥٩	امين ارسلان	١٨٤٤–١٨٥٩
حسن ابي اللمع	١٨٥٩–١٨٦٠	محمد ارسلان	١٨٥٩–١٨٦٠
يوسف بك كرم	١٨٦٠–١٨٦١		

لبنان في القانون الدولي العام ١٨٦١ – ١٩٠٥

داود باشا	١٨٦١ – ١٨٦٨
نصري فرنكو باشا	١٨٦٨ – ١٨٧٣
رستم باشا	١٨٧٣ – ١٨٨٣
واصه باشا	١٨٨٣ – ١٨٩٢
نعوم باشا	١٨٩٢ – ١٩٠٢
مظفر باشا	١٩٠٢ – ١٩٠٧
يوسف فرنكو باشا	١٩٠٧ – ١٩١٢
اوهانس باشا	١٩١٢ – ١٩١٥

الاحتلال التركي ١٩١٥ – ١٩١٨

علي منيف بك ١٩١٥ – ١٩١٧

اسماعيل حقي بك ١٩١٧ – ١٩١٨ (حزيران)

ممتاز بك من تموز ١٩١٨ – ٣٠ ايلول ١٩١٨

سلاطين تركيا

١ عثمان الاول	١٢٩٦ – ٦٩٦	١٣٤٣	(٢٧ سنة خلافة)
٢ اورخان	١٣٢٣	١٣٦٠	
٣ مراد الاول	١٣٦٠	١٣٨٨	(٢٨ سنة خلافة)
٤ بايزيد	١٣٨٨	١٤٠١	(١٣ سنة خلافة)
٥ محمد الاول	١٤٠١	١٤٠٩	(٨ سنة خلافة)
٦ مراد الثاني	١٤٠٩	١٤٥١	
٧ محمد الثاني	١٤٥٣	١٤٨١	(٣١ سنة خلافة)
٨ بايزيد الثاني	١٤٨١	١٥١٣	ابن محمد الثاني
٩ سليم الاول	١٥١٣		ابن بايزيد
١٠ سليمان بن سليم	١٥٢٢		
١١ سليم الثاني	١٥٦٦		
١٢ مراد الثالث	١٥٧٦		ابن سليم الثاني
١٣ محمد الثالث	١٥٩٤		ابن سليم الثاني
١٤ محمد الاول	١٦٠٣		ابن محمد الثاني
١٥ مصطفى اخو السلطان احمد	١٦١٧		خلع بعد ٣ اشهر
١٦ عثمان الثاني ابن السلطان احمد	١٦١٧		خلع ورجع مصطفى
١٧ مصطفى	١٦٢١		نزل عن السلطنة
١٨ مراد الرابع ابن احمد	١٦٢٣		
١٩ ابرهيم ابن السلطان احمد (اخو مراد)	١٦٣٩		قتل
٢٠ محمد الرابع ابن ابرهيم	١٦٤٨		(حكم ٤١ سنة) خلع

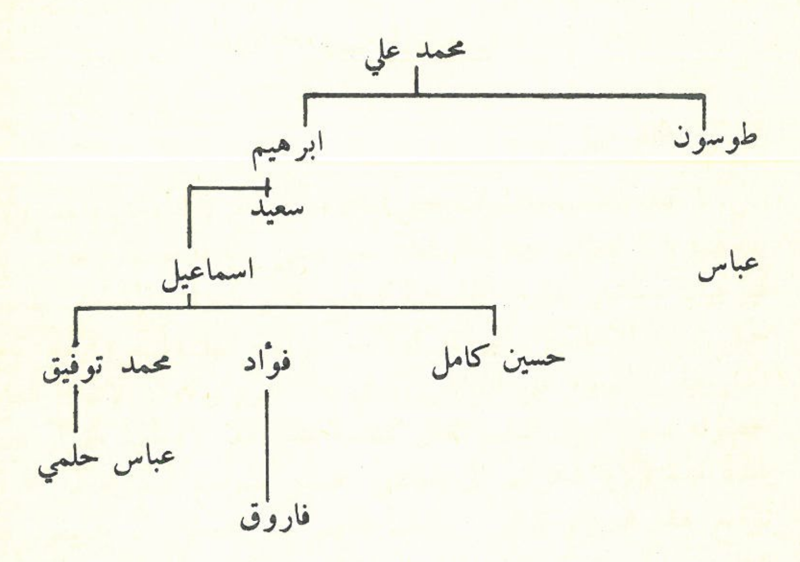
٢١ سليمان الثاني	١٦٤٨	(٣ سنين)
ابن ابرهيم		
٢٢ احمد الثاني	١٦٩٠	(٤ سنين)
ابن ابراهيم		
٢٣ مصطفى الثاني	١٦٩٠	(٨ سنين) خلع
ابن محمد		
٢٤ احمد الثالث ابن	١٧٠٣	تنازل بعد ٢٨ سنة
محمد الثاني		
٢٥ محمد الاول ابن	١٧٣١	(٢٥ سنة)
مصطفى الثاني		
٢٦ عثمان الثالث	١٧٥٤	
اخو محمود		
٢٧ مصطفى الثالث	١٧٥٨	(٣ سنين)
٢٨ عبد الحميد الاول	١٧٧٣	
٢٩ سليم الثالث ابن	١٧٨٩–١٨٠٧	
مصطفى		
٣٠ محمود الثاني	١٨٠٨–١٨٣٩	
٣١ عبد المجيد	١٨٣٩–١٨٦١	
٣٢ عبد العزيز	١٨٦٠	
٣٣ عبد الحميد الثاني	١٨٧٦	
٣٤ محمد الخامس	١٩١٨	

سلالة محمد علي

ضابط الباني الجنس تركي اللسان كان في الجيش العثماني الذي اجلى نابليون عن مصر .

حلم بانشاء امبراطورية عربية عاصمتها القاهرة ، سحق الجيوش الوهابية .

١٨٣١ ارسل حملة على سوريا بقيادة ابنه وانتزعها من العثمانيين.
ابراهيم باشا في سوريا ١٨٣١ – ١٨٤٠



بروتوكول سنة ١٩١٢

تعديل نظام جبل لبنان

لما كان منصب متصرف جبل لبنان قد اصبح خالياً بانتهاء مدة ولاية يوسف باشا تعطف جلالة السلطان بان سمى لهذا المنصب اوخانس بك قيومجيان مستشار نظارة الخارجية فاجمع ممثلو الدول الموقعات نظامات جبل لبنان الاساسية والبروتوكولات المرتبطة بها وائتمروا مع ناظر الخارجية فاجمعوا على ان يقرروا في هذا البروتوكول الاتفاق السابق حصوله بينهم وبين الباب العالي بمناسبة هذا التعيين وتأييد القرار الذي يحدد مدة ولاية الحاكم الى منقضى خمس سنوات تبتدىء من تاريخ توقيع هذا البروتوكول . وايضاً فانهم قد اجمعوا ان يضيفوا على النظامات والبروتوكولات المشار اليها المقررات الاتي بيانها :

اولا — قياساً على قاعدة الانتخاب الجاري التعامل الحالي بها في زحلة يجري انتخاب اعضاء مجلس الادارة في الاقضية من قبل شيوخ القرى الذين يضاف اليهم في القرى التي تعد مئة مكلف واكثر مندوب واحد عن كل مئة مكلف .

على ان عضو مجلس الادارة عن زحلة يبقى انتخابه كما كان قبلا من قبل مندوبية كل منهم ينوب عن خمسين مكلفاً .

اما عدد اعضاء مجلس الادارة المنتخبين عن كل قضاء وتنسيبهم بحسب الطوائف الممثلة في قوام هيئة المجلس فكلاهما لا تغيير فيه . الا ان اهالي مديرية دير القمر المحرومين حتى الان من حق النيابة في المجلس هم مكلفون ان يبعثوا اليه عضوا من طائفتهم . ومن جهة اخرى فان العضو الدرزي في المجلس المنتخب حتى الآن عن جزين

يكون انتخابه في الشوف .

ثانياً – ان عضو مجلس الادارة متى تم انتخابه لا تكف يده مطلقاً من قبل الحاكم بداعي خطأ او تجاوز او تقصير في واجبات وظيفته الادارية ما لم يسبق اجراء التحقيق وابلاغ نتائجه الى مجلس الادارة وموافقته على ذلك .

ثالثاً – ان الميزانية التي تقدر فيها الواردات والمصاريف يضعها الحاكم بمعاونة مجلس الادارة وتنظم وتنشر قبل ابتداء السنة المخصصة هي لها بثلاثة اشهر .

رابعاً – ان المتصرف المعين الان يدرس امر اعادة النظر في اجراء المساحة والاحصاء والضرائب المتنوعة الجارية جبايتها ويبادر ايضاً لتفحص المسائل الثانوية كمسألة الاراضي الخراجية والاميرية التي يراد ادخالها في نطاق القاعدة العمومية . وبناء على المعلومات المكتسبة يقدم مقترحاته الى الباب العالي قبل انقضاء مدة ولايته بستة اشهر على الكثير ليعاد النظر باتفاق الباب العالي مع الدول في المادة الخامسة عشرة من النظام الاساسي المؤرخ في ٦ ايلول سنة ١٨٦٤ وبهذه المناسبة يجري تصفية حسابات السنين السابقة بصورة نهائية .

خامساً – في المواد التجارية المتكونة بين متداعية كلهم لبنانيون يكون لمحاكم الجبل صلاحية ان تراها بداية واستئنافاً .

سادساً – ان عدد افراد البوليس (الجندرمة) المنصوص عليه في المادة الرابعة عشرة من نظام سنة ١٨٦٤ يصير الفا ومائتي رجل ويعهد بامر تدريبهم كل المدة اللازمة الى احد الضباط المستخدمين في تركيا لتنظيم الجندرمة فيها . اما زيادة النفقات الناشئة عن ذلك فتجري تسويتها بحيث يكون التثقيل على ميزانية الدول العمومية ، خفيفاً بقدر الامكان .

الوضع الدولي قبل الحرب

الفتح العثماني

حالف النصر سلاطين بني عثمان ففتح محمد الثاني القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واستولى سليم الاول على سوريا ولبنان ومصر سنة ١٥١٦ .

ومدّ سليمان الكبير رواق السلطنة حتى ابواب فيينا (١٥٣٠–١٥٦٦)

فبلغت الامبراطورية العثمانية من القوة والمنعة شأواً حمل دول اوروبا على التسابق الى التقرب من الباب العالي ، ولم يعد لاحداهن مطمع في أية أرض يخفق عليها علم الهلال فحوّلت اوروبا انظارها الى بقاع أخرى .

الصراع بين انكلترا وفرنسا

بعد اكتشاف العالم الجديد واقتسامه بين اسبانيا والبرتغال في اوائل القرن السادس عشر ، حملت الغيرة انكلترا وفرنسا الى تلك القارة :

احتلت فرنسا كندا ، واحتلت انكلترا اميركا الشمالية .

وفي سنة ١٧٦٣ أخرجت انكلترا فرنسا من كندا ، فقابلتها فرنسا بأن ساعدت الثورة في أميركا ، ومدّت الثوار بالعتاد والرجال . فاستقلت اميركا واجلت الانكليز سنة ١٧٦٦ .

وكان للدولتين مطامع في الهند فأنشأت انكلترا فيها امبراطوريتها ، وأنشأت فرنسا الهند الصينية الفرنسية .

ولم يلبث ان انتقل الصراع الى افريقيا .

فاحتل بونابرت مصر سنة ١٧٩٩ ، وقطع الصحراء الى عكا في طريقه الى الهند الانكليزية ، فلحقت به الاساطيل البريطانية ودمرت

العمارة الفرنسية في أبو قير قرب الاسكندرية . فاضطر بونابرت الى رفع الحصار عن عكا ، ورجع الى مصر ، ومنها الى فرنسا واخفقت الحملة .

ولما استقر الحكم بمحمد علي في مصر امتدّ طموحه الى عاصمة السلطنة . فساعدت فرنسا ابراهيم باشا على احتلال سوريا سنة ١٨٣١ في طريقه الى الاستانة .

ولكن بعد ان احتل الجيش الفرنسي الجزائر سنة ١٨٣٧ ، وتبين ان محمد علي يدور في فلك السياسة الفرنسية ، رأت انكلترا ان اتساع الرقعة التي تشغلها فرنسا في افريقيا ، وعلى سواحل المتوسط لا يتفق ومصالح الامبراطورية ، على ما صرّح به اللورد بلمرستون للمسيو غيزو في مقابلة ٤ آذار سنة ١٨٤٠ — قال بلمرستون : «لا شك في ان فرنسا ترى بعين الارتياح قيام دولة جديدة نشيطة مستقلة في مصر وفي سوريا . وتكون تلك الدولة حليفة لها ... ان لكم السيطرة على الجزائر فلا يبقى ما يعترض بينكم وبين مصر ، وهي حليفتكم إلا تونس وطرابلس وهما أضعف من ان تقفا في وجهكم . فتصبح والحالة هذه كل سواحل افريقيا وقسم من سواحل آسيا على البحر المتوسط من مراكش الى خليج الاسكندرونة في قبضتكم وتحت سيطرتكم . ان ذلك لا يمكن ان يوافقنا» .(١)

وفي نطاق هذا الاتجاه قام الاسطول البريطاني بمساعدة تركيا ، واضطر ابراهيم باشا الى الجلاء عن سوريا ولبنان والرجوع الى بلاده سنة ١٨٤١ .

على ان فرنسا لم تتخلّ عن سياستها في افريقيا فاحتلت تونس سنة ١٨٦١ ، وفتحت قناة السويس طريقاً أخرى الى الهند الانكليزية سنة ١٨٦٩ .

وكانت ردة الفعل في انجلترا ان اشترت اسهم القنال سنة ١٨٧٥ ،

(١) مجموعة البارون ده تستا ص ٥٢٤ .

واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ بحجة الدفاع عن الخديوي توفيق في ثورة عرابي .

حاولت فرنسا ان تلف الانكليز في مصر باحتلال فشوده (١٨٩٨)، فصدتها انكلترا وأجبرت الكابيتين مرشان على الانسحاب ، وكانت فرنسا قد تضعضعت على أثر انكسارها سنة ١٨٧٠ .

أما كيف تهادن الصراع وحل التحالف بين الدولتين محل الزحام ، فمرجعه الى ظهور خطرين يهددان انكلترا وفرنسا معاً : خطر روسيا ، وخطر المانيا .

خطر روسيا

في مستهل القرن الثامن عشر تحركت الامبراطورية الروسية واتجهت جيوشها نحو البلقان في السلطنة العثمانية ، واحتلت مقاطعتي البغدان والافلاق (مولدافيا وفلاخيا) سنة ١٨٢٩ فتبين ان الامبراطورية العثمانية ، بعد عظمتها السابقة ، قد دخلت في دور الانحطاط ، وظهرت « المسألة الشرقية » الى الوجود .

وخشيت فرنسا وانكلترا ان يصل التقدم الروسي الى الاستانة والى ولايات السلطنة في اوروبا ويسيطر على مضيق الدردنيل فتنفتح لروسيا ابواب البحر المتوسط ، وهو خطر أقلق الدولتين ، وساقهما الى التحالف في حرب « القرم » لمساعدة تركيا على روسيا (١٨٥٦) .

خطر المانيا

ما ازيل شبح الخطر الروسي حتى ظهر خطر اشد منه وادهى : فبعد ان انتصر الالمان على فرنسا ١٨٧٠ ، اصبحت المانيا اقوى دولة برية في اوروبا ، فحملها الطموح الى منازعة انكلترا في السيطرة على البحر ، وفي تهديد طرق الهند .

وفي تلك الاثناء كانت الامبراطورية العثمانية قد تفككت عراها في استقلال دول البلقان ، وفي الحرب ضد روسيا ، فغنمت المانيا

الفرصة وتغلغلت سياستها في الاستانة بمظهر الدفاع عن عرش السلاطين ، فزار الامبراطور غليوم السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٨ واعلن نفسه حامي حمى الاسلام ، ونال امتياز سكة حديد برلين بيزنطية بغداد : (ب.ب.ب.) وسيطرت على الجيش التركي بعثتا الجنرال ليمان فون سندرس والمارشال فون درجولتز ، وقال احد السياسيين الانكليز ان كل مئة كيلومتر من سكة حديد بغداد تمتد نحو خليج العجم تعادل طراداً المانيا لكسر شوكة انكلترا .

وتصدت المانيا أيضاً لمستعمرات فرنسا في افريقيا .

هكذا جمعت تلك الاحداث بين انكلترا وفرنسا ووضعت حداً – ولو موقتاً – لنزاعهما القديم، وانشئت جبهة انكلترا فرنسا تجاه جبهة المانيا وحليفتها النمسا، فلم يكن بدّ من حرب تفصل بين الجبهتين .

فجاء مقتل الارشيدوق فرنسوا فرديننذ (٢٨–٦–١٩١٤) في سراجفو صربيا شرارة أشعلت البارود الناشف ، فوقعت الحرب ، ومن اهدافها الكبرى تصفية «المسألة الشرقية» ، واقتسام «التركة» وبلادنا رقعة فيها ، ومطمح للظافرين .

فما ان اسفرت الحرب عن انتصار الحلفاء ، حتى استقل شريف مكة بالحجاز ، وعهد بالانتداب لانكلترا على فلسطين والاردن والعراق، ولفرنسا على سوريا ولبنان ، وتوطدت اركان الاحتلال الانكليزي في مصر .

عودة الصراع في المشرق

لم يطل الزمان حتى عاد الزحام الخفي بين الحليفتين .

فأسعد سوريا ولبنان ان يجلو الجيش الفرنسي ويتمتع كل منهما بنعمة الاستقلال التام سنة ١٩٤٦ ، بمساعدة بعثة الجنرال سبيرس . فلم تحزن انكلترا لفرنسا .

ثم طوي علم (الاونيون جاك) في فلسطين والاردن والعراق ووادي النيل باشراف الولايات المتحدة ، فلم تحزن فرنسا لانكلترا .

لبنان في القانون الدولي العام

١٨٦٠–١٩١٨

تدخلت اوروبا في شؤون لبنان على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ . فاجتمع سفراء انكلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا مع وزير خارجية تركيا في الاستانة . وبعد مباحثات معقدة تقرر جعل لبنان حكومة حائزة على استقلال داخلي بحماية الدول الخمس الكبرى فوضع «دستور لبنان» وصدق عليه سفراء الدول ووزير خارجية تركيا في بروتوكول تاريخه ٩ حزيران سنة ١٨٦١ . ثم تعدّل بمقتضى بروتوكول ٦ ايلول سنة ١٨٦٤ . وخلاصة الدستور الموضوع ان الحكم في لبنان يشكل على الوجه الآتي :

– حاكم مسيحي يعينه الباب العالي بموافقة الدول لمدة محدودة .

– مجلس ادارة منتخب على درجتين مؤلف من اثني عشر عضواً يمثلون المناطق على اساس الطوائف ، لمدة ست سنوات يجري تجديده بالثلث كل سنتين .

– المحاكم : تشكل على أساس الطوائف .

المالية مستقلة على اساس موازنة محدودة . واذا ظهر عجز في الموازنة تعهدت الدولة بسده .

التقسيم الاداري : سبع قائمقاميات – الكورة – البترون – كسروان – المتن – الشوف – زحله – جزين .

على هذا الأساس حفظ لبنان استقلاله الداخلي التام . وقطع اعتراف الدول الكبرى بذلك الاستقلال الطريق على الباب العالي في محاولة ضمّ لبنان الى الولايات المجاورة في نطاق الدولة .

على ان النظام الجديد لم يحقق كل الأمل الذي كان معقوداً عليه .

فالنظام لم يوجب اعادة الامارة اللبنانية ، كما لم ينص على وجوب ابقاء الحاكم لبنانياً ، بل ترك الباب مفتوحاً من هذه الجهة بشكل يجيز تعيين الحاكم لبنانياً او غير لبناني . ثم اقتضى النظام بان يكون الحاكم مسيحياً . وقصّر النظام عن تحقيق الوحدة الجغرافية للبنان . فاقتطع بيروت وسهل البقاع والمعلقة شرقاً ولم يدخل في الحدود الطبيعية عكار وطرابلس شمالا ، وجبل عامل وصور وصيدا جنوباً .

ولم تخفَ نواقص « النظام » على لبنان ، فسرت فيه موجة استياء شديدة ، ادت الى ثورة يوسف بك كرم المعروف ببطل لبنان ، وكان هدف الثورة الاول الاحتجاج على تعيين حاكم اجنبي والمطالبة بالحاكم الوطني ، جرياً على تقاليد ترجع الى ما قبل الفتح العثماني .

وما ثورة كرم إلا حلقة في سلسلة التضحيات التي قدمها لبنان على مذبح الاستقلال طيلة اجيال . ونكتفي بسرد الموجز التالي عن تلك الحركة الوطنية التي لا يزال صداها يتردد في صدور اللبنانيين .

يوسف كرم (١٨٢٣ – ١٨٨٩)

إنه سليل اسرة كانت لها منزلتها في لبنان الشمالي فكان والده حاكماً لاقطاعية اهدن (مسقط رأسه) فنشأ على الوطنية الصادقة وعلى تحمل المسؤولية وتحدي المخاطر . تولى الحاكمية وهو في الثالثة والعشرين بعد وفاة أبيه ثم رقي الى وكيل قائمقامية النصارى ومركزها جونيه بعد حوادث سنة ١٨٦٠ . فحاول ترسيخ دعائم الأمن في المنطقة واعادة الوئام بين المشايخ والفلاحين على أثر ثورة طانيوس شاهين حرصاً على الاستقرار . الا انه لم يبرز كقائد لبناني الا بعد تعيين حاكم اجنبي على لبنان استناداً الى النظام الجديد وعزله من منصبه .

تعاون يوسف كرم والبطريرك بولس مسعد على محاربة المتصرف الاجنبي داود باشا بعد ان تمادى هذا في الجور ورفع الضرائب . وعبثاً حاولت السلطة استرضاءه بكل وسيلة لكي يهادنها فتدخل الباب العالي في الأمر واستقدم يوسف كرم وأقنعه بالتريث وآمله بعودة الحكم

للوطنيين فاقتنع ووثق بالوعد ورضي بان يعيش قرب ازمير بانتظار الفرج . لكن ظنه خاب تماماً عندما جددت الولاية لداود باشا . فعاد الى بلاده يحمل سيف النقمة على المتصرف انطلاقاً من زغرتا واشترك مع رجاله الابطال على قلة عددهم في عدة مواقع مع الجيش العثماني أثارت إعجاب اللبنانيين ودهشة الاستانة ، الى ان تدخل القنصل الفرنسي ووجه اليه دعوة الى فرنسا . ولم يكن بامكان حفنة من الرجال الوقوف بوجه السلطة العثمانية حتى النهاية . الا انها أظهرت ، على كل حال ، بطولة نادرة كرست استمرار التوق اللبناني الى التحرر .

وقد تعاقب على لبنان من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٩١٥ ثمانية حكام اجانب عنه: داود ، فرنكو ، رستم، واصه ، نعوم ، مظفر ، يوسف ، اوهانس .

وكان لدى تعيين كل حاكم يجتمع سفراء الدول في وزارة الخارجية في الاستانة فيستعرضون مع الوزير اسماء المرشحين . ولا يعين الحاكم الا باجماع الآراء .

وكان اللبنانيون يعلقون الاهمية الكبرى على انتخاب مجلس الادارة ، وهو مجلسهم النيابي ، يوم لم يكن في معظم دول العالم مجالس نيابية . وكان الانتخاب على درجتين . ينتخب الأهالي مشايخ القرى في الدرجة الاولى وينتخب مشايخ القرى اعضاء المجلس في الدرجة الثانية . وكان أقل تدخل للحكومة في الانتخابات يثير السخط والاحتجاج ، على ما جرى على عهد واصه باشا (١٨٨٣–١٨٩٢) مما أدى الى وضع نص خاص في بروتوكول تعيين نعوم باشا (١٥ آب سنة ١٨٩٢) يقضي بصيانة حرمة الانتخاب موصياً : « بان تجري انتخابات مجلس الادارة بكل ضمانات الاستقلال المرغوبة وبان تحترم حقوق هذه الهيئة » .

وكانت تتراوح مدة الحاكم بين عشر وخمس سنوات . وظلت الحال على هذا المنوال حتى اعلان الحرب العالمية الاولى . فغنمت حكومة الاستانة الفرصة السانحة لتحقيق الهدف القديم الرامي الى إلغاء استقلال لبنان ، فنشرت في كانون الثاني سنة ١٩١٧ مذكرة رسمية

الوجه الآخر لتاريخ لبنان : الوجه الحضاري . وهو الوجه الحقيقي للبنان منذ فجر التاريخ حتى الآن . فتاريخ هذا البلد ليس تاريخ فتوحات وانتصارات عسكرية بل هو تاريخ التقدم الانساني منذ ان اكتشف الانسان الفينيقي الابجدية وانشاء المستعمرات الحضارية والتجارية في البحر المتوسط وخارجه .

يوسف السودا مفكر ومناضل وطني يعود بنا في هذه الدراسة الى جذور حضارة الانسان على هـذه الشواطىء وينقلنا عبر اجيال طوال الى لبنان الحديث .